إبرَاهيمُ صَدوقُ

رواية

علَى دَرْبِ الرِّمَالِ المُلتَهِبَة

ترجمة : أ.د ليلى بن عائشة

anep
بريد سريع
Messagerie Express

إبرَاهيمُ صَدوقُ
رواية
على درب الرِّمال الملتهبة
ترجمة: أ.د ليلى بن عائشة
anep
بريد سريع
Messagerie Express

إبراهيم صدوق

- رواية:

على درب الرمال الملتهبة

على درب الرمال الملتهبة

- الترجمة:
الأستاذة الدكتورة: ليلى بن عائشة

- المراجعة:
الأستاذ الدكتور: نور الدين السد - العقيد: أحمد بوذراع

- الإعداد والإخراج:
الأستاذ: نوار نسيم

ISBN: 978-9947-60-638-4

أفريل 2025

- إلى والديّ

"كل ذكريات أسلافنا متجذرة في أعماقنا"

(فرونسواز دولتو)

الشكر والتقدير

- إلى معمري زوبيدة... على تشجيعها المستمر

وكاترين ساين... لدعمها المتواصل

وعبد القادر خليفي أستاذ التاريخ وحسين حديد لمساندتهما

- وإلى كل من أسهم في إثراء هذه الرواية

- فهرس المحتويات

❁ تصديـــر وزير المجاهدين وذوي الحقوق البروفيسور: عبد المالك تاشريفت	07
❁ كلمـــة المترجمة أ.د/ ليلى بن عائشة	09
❁ تقديـــم المرحوم محمد قنطاري	14
❁ الفصل الأول: بؤس الحياة اليومية	17
❁ الفصل الثاني: معجزة سيدي بلخير	45
❁ الفصل الثالث: الحرية ضد الاحتقار	69
❁ الفصل الرابع: الهروب من الانتقام	88
❁ الفصل الخامس: النفي القسري إلى المغرب	101
❁ الفصل السادس: إيش القرية المغربية	116
❁ الفصل السابع: بين القمع والمقاومة	138
❁ الفصل الثامن: معركة مزي	155
❁ الفصل التاسع: ما وراء التضحية	178
❁ الفصل العاشر: وجدة حيث يجيد الأبطال الموت	191
❁ الفصل الحادي عشر: ما الذي لا يزال القدر يخفيه؟	212
❁ النهاية: على درب الرمال الملتهبة	233

التصديـــر

وزير المجاهدين وذوي الحقوق

البروفيسور: عبد المـالك تـاشريفت

تُعدّ رواية "على درب الرمال الملتهبة" من أهم النصوص التي يمكن أن تُدرج ضمن مشروع وطني لحفظ الذاكرة الثورية عبر الفن، فهي تمجيد للثورة الجزائرية، وتوثيق لجراحها، وتأمل في إنسانيتها. وإضافة نوعية في مسار الأدب الجزائري الحديث، بما تحمله من عمقٍ إنسانيٍّ ورؤيةٍ فكريةٍ تستحضر الذاكرة الوطنية في أسمى تجلياتها.

إن هذا العملِ الروائي يوثّق لمرحلة هامة من تاريخ الجزائر المجيد، بل نصٌّ فنيٌّ متكامل يجعل من السرد فعلاً من أفعال المقاومة، ومن الكلمة شعلةً تنير دروب الوعي والحرية.

لقد استطاع الكاتب أن يمزج بين التاريخ والخيال، بين الوثيقة والشهادة، ليقدّم عملاً يعيد إلى الذاكرة الجماعية نبضها الحيّ، ويمنح الأجيال الجديدة فرصة لاستعادة ذلك الزمن الذي صاغ هوية الجزائر المعاصرة بالدم والتضحية. فكل صفحةٍ من هذه الرواية تنبض بحبّ الوطن، وكل مشهدٍ منها يشهد على خلود الروح الجزائرية التي لم تعرف الانكسار.

إنّ ترجمة هذا العمل إلى اللغة العربية تفتح أمام القارئ العربي نافذةً على تجربة إنسانية وجمالية فريدة، تعبّر عن تلاقي

الأدب والذاكرة في خدمة القيم العليا للحرية والكرامة. وهي في الوقت ذاته تسهم في إثراء المشهد الثقافي بما يليق بتاريخ الجزائر ومكانتها في ضمير الأمة.

إنّ هذا العمل يندرج في صميم رسالة وزارة المجاهدين وذوي الحقوق، لما يحمله من طاقة رمزية وتوثيقية وجمالية تضمن استمرار الذاكرة الوطنية في وجدان الأجيال القادمة. وإنّنا، إذ نقدّم هذا العمل المتميّز إلى القارئ الكريم، نثمّن الجهود التي بُذلت في سبيل إنجازه وترجمته، ونؤكد التزامنا الدائم بدعم كل المبادرات التي تحفظ الذاكرة الوطنية وتُسهم في إشعاع الذاكرة الجمعية في محيطها العربي والإنساني.

تحية تقديرٍ للمؤلف السيد صدوق إبراهيم الّذي جعل من الرواية مساحةً للوفاء، ومن الكلمة وعدًا متجددًا بالحرية.

كلمة المترجمة

"على درب الرمال الملتهبة" هو نص سردي استثنائي بروح تاريخية خالصة ومخلصة، أبى الكاتب إبراهيم صدوق من خلالها إلا أن ينحني بكلماته تقديرا لأرواح من قضوا في "معركة جبل مزي"، التي ظلت طي النسيان بأحداثها، وبما تنطوي عليه من حكايا أهل عين الصفراء وجنين بورزق وما يتاخمهما، مما يتذكره المكان، ويعرفه الشجر وينطق به الحجر، وتروي تفاصيله السهول والجبال، وتشي بأسراره السهوب والكثبان، وما أهمل أو لا يزال في حكم السر والكتمان؛ كاستعمال سلاح النابالم المحرم دوليا في تلك المعركة، والتجارب الكيمياوية في وادي الناموس التي تشكل فصلا آخر من فصول الجرائم اللاإنسانية لفرنسا، لذا لم يجد صوت الحق والإبداع بدا من أن يصدح بكل هذه الحقائق المؤلمة، ويفضح ما دفن أو طمر، فصولة الحق حتما لا تقاوم ولا تقهر، ولسوف يحكي الزمان فصولا مريرة عن كل ذلك الظلم والعدوان، ليدحض مزاعم الحضارة المزيفة ويجردها من قناعها الذي يخفي بشاعتها اللامتناهية.

لم تكن كلمات الكاتب إبراهيم صدوق عبر هذا النص الروائي، رحلة كاتب مبدع أراد أن يبوح بالكلمة في حضرة التاريخ، بل كانت وقائعا وصورا حقيقية تتزاحم في ذهنه، نخاله قد سمع أحداثها المروية على لسان جدته، أو على الأرجح والدته ليمر المشهد أمامنا، وكأنه مشهد سينمائي للأم وهي تروي هذه التفاصيل بحرقة قبالة الكانون أو المجمر، وهو بجانبها يتدفأ

وينصت باهتمام، ويخزن تلك الصور الجميلة والمؤلمة في ذاكرته الغضة، لتستقر في ذاته ردحا من الزمن، حتى جاء اليوم الذي أفصح فيه عنها عبر رواية:

(Sur le Chemin des Sables en Feu)، وأراد أن يشاركها بصدق مع قرائه ممن يؤمنون أن الكلمة سحر وبرهان، وانعتاق وحرية وأمان... عله بهذا الإبداع يتخفف من عبء ما اطلع ووقف عليه من حقائق مرعبة، من خلال الوثائق والتقارير، وعبر شهادات حية من حكايا، تدمي القلوب وتحني الظهور، وتشيب لها الولدان لفرط ما تحمله في طياتها من معاناة سكان تلك المنطقة، التي لن تختلف حتما في ذلك عن باقي مناطق الجزائر، وما واجهوه من ظلم وقهر وعدوان، وما تعرضوا له من ذل وامتهان وهوان... وبوصفه ابن المنطقة عرف صدوق عنها الكثير، بل وعكف على البحث والتقصي عن كل ما يتعلق بها تاريخيا و"بمعركة جبل مزي" تحديدا نظرا لأهميتها، وباعتبارها من أكبر المعارك، التي جاءت في مرحلة حاسمة من تاريخ الثورة التحريرية، لتعطي نفسا جديدا لها، وتحقق بها نصرا دبلوماسيا لصالح القضية الجزائرية، وبالتالي لم تذهب تضحيات أهلها سدى بل كانت سهما أصاب فرنسا الاستدمارية في مقتل.

لقد كان هذا العمل الإبداعي بوتقة انصهر فيها كل ما سلف ذكره؛ بما اجتمع من حقائق وأفكار ومشاعر تهز الوجدان، تزاحم فيها فن السرد مع التاريخ، بل التحم كلاهما بالآخر ليخرجا في شكل رواية عنوانها: "على درب الرمال الملتهبة". ولعل ما يغري

بترجمة هذا النص هو السرد بطعم التاريخ، أو التاريخ بذوق السرد بما أضفاه كلاهما للآخر، فالسرد زاد التاريخ بهاء في الكلمة ووقعا في القلب، أما التاريخ فقد أصاب به الكاتب كبد الحقيقة باستثماره إياه في ثنايا السرد دون الإخلال به، لقد استحضر الكاتب شخصيات حقيقية وأخرى متخيلة، لكن معادلاتها في الواقع كثيرة، وكلها عاشت وعايشت فترة عصيبة كانت تقتضي قوة الصبر والجلد، والإيمان الراسخ أن النصر آت لا محالة، كما نقل معاناة المرأة وتضحياتها اللامتناهية، إذ كانت سندا وظهرا وقوة ودعما، فبدت حرة كما هن حرائر الجزائر وجميلاته، لا يساومن دائما وأبدا خاصة حينما يتعلق الأمر بالوطن...

إن ما يميز رواية "على درب الرمال الملتهبة" هي هذا الانغماس في الجانب الإنساني، الذي عكس زخما من الأحاسيس المتباينة؛ بين الرغبة والرهبة، بين الغربة والمنفى بغير منفى، وذاك التآزر والرحمة بين الجزائريين أنفسهم وبينهم وبين المغاربة، بين الحب اللامتناهي والكره المتنامي ضد المحتل... هي سلسلة مشاعر متناقضة تتجسد عبر شبكة من العلاقات التي يكشف عنها الكاتب بأسلوب سردي جميل وآسر، يخفف من وطأة المادة التاريخية، لينقلنا إلى عالم يجمع بين البعد الإنساني في عمقه، والاجتماعي بخصوصيته ومحليته، ويسبر أغوار نفسيات أبطاله، ويكشف عن لواعجها ويفكر معها ولها في آن واحد، ويرافقها في دروبها الملتوية ومسالكها الوعرة كأنما يعيش معها اللحظة بلحظة.

إن رواية "على درب الرمال الملتهبة" وثيقة تاريخية هامة وشهادة على مرحلة حاسمة عانى فيها أهل عين الصفراء وجنين بورزق وكل المناطق الحدودية الذين احتضنهم المغاربة، لتبقى قضية التجنيس الإجباري (التشنقيط والتزوكيت) التي أمعن علال الفاسي وأتباعه في فرضها على أولئك الجزائريين الذين فروا من جحيم الاحتلال، نقطة سوداء لا تمحي، تجاوزها قادة جبهة التحرير الوطني بكل رصانة ورزانة مع العقلاء من المغاربة.

إنها رواية بقدر ما كانت وثيقة تاريخية، بقدر ما هي قطعة فنية تحمل في ثناياها مزيجا من عطر السرد وعبق التاريخ، في لون روائي خاص، يفوح أريجه أينما حل وارتحل، وله قراؤه ومحبوه، والأجمل فيه أنه ينقل التاريخ والحقيقة المحضة بنفس إبداعي...

ضمن هذه الترجمة الفنية التي نحسب أن الكلمات فيها انسابت، كما الحقائق التاريخية التي تمثلها السرد بأحسن ما يكون عليه تمثل التاريخ، فكان الحكي يولد من رحم الماضي، ويتوشح بجمال الكلمة، وبلاغة الوصف ورونق الأسلوب، مما أعطى صورة حية لمشاهد إنسانية، تتشكل ضمن نسيج سردي متناسق ومنسجم.

لا يسعنا في الختام إلا أن نقول أننا استمتعنا ونحن نقرأ رواية "على درب الرمال الملتهبة" باللغة الفرنسية، فأردنا أن يكون للقارئ باللغة العربية نصيب في قراءتها، واستكشاف أحداثها

التاريخية منها والدرامية، وأن يستمتع بما جاء فيها على الرغم من الألم الذي سيعيشه.

فالرواية حبلى بالقصص الإنسانية الحقيقية المؤلمة، التي تنقل الظلم والقمع الذي عاناه الشعب الجزائري، ليس في عين الصفراء فحسب، بل أينما كان في ربوع الوطن وفي كل شبر من تراب هذه الأرض المعبقة بدماء الشهداء؛ والمعطرة بأنفاسهم، ولا أدل على ذلك من البعد الوطني الذي تكتسيه العديد من المعارك لاسيما معركة جبل مزي، إذ لم تكن محلية بل معركة وطنية بامتياز، جمعت الجزائريين من مختلف المناطق على قلب رجل واحد، فكانت ملحمة استثنائية خالدة.

لقد كان الكاتب إبراهيم صدوق بحق عبر روايته صوت المقهورين، بل صوتا إبداعيا صادحا بالحقيقة، إذ أتاح مساحة عبر قلمه للتاريخ بلون السرد، وجمالية الكلمة وشعرية الإبداع المتزن، أدعو القارئ لاستكشاف عوالمه التاريخية المحكية بقراءة هذه التحفة السردية رواية "على درب الرمال الملتهبة".

أ.د/ ليلى بن عـائشة

تقديـــم

تبدو الرواية التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه للوهلة الأولى متواضعة، من حيث حجمها، غير أن القارئ وهو يغوص في ثناياها، يجدها حبلى بالأحداث التي عاشها شخوص وعايشوا تفاصيلها على أرض الواقع خلال سنوات الثورة التحريرية.

لقد استوحى الكاتب أحداث ووقائع هذه الرواية من الشهادات الحية والروايات الشفوية التي أدلى بها وسجلها شهود عيان، فضلا عن استغلاله للوثائق والصور التي تجسد لنا المأساة الجزائرية في أقسى صورها من خلال إحدى العائلات الجزائرية التي عانت ويلات الاستعمار والنفي القسري، وما هي إلا نموذج لغيرها من العائلات في المجتمع الجزائري الذي كان يرزح تحت نير الاحتلال، بل إن الأحداث التي تم سردها من قبل الكاتب في ثنايا هذه الرواية تشكل تفاصيل ذاكرة حية، تتحدى الزمان والمكان، لتبقى راسخة، ومحفوظة وشاهدة على التضحيات الجسام في كل بقعة من أرض الجزائر الطاهرة، وهي تنتظر من المبدعين فقط من يتحلى بالإرادة الجادة، ليبعث، في أحداثها وشخوصها الروح التي تحييها صوتا وصورة، ليستمتع الجمهور بمشاهدة عرضها على شاشات السينما والتلفزيون.

لقد تناولت هذه الرواية بعض الحقائق التاريخية التي عاش أحداثها مجاهدون ممن انضموا لصفوف جيش التحرير الوطني (ALN) في منطقة عين الصفراء، وباعتباري مؤرخا، وأستاذا في

جامعة وهران، فقد كان لي شرف تحقيق العديد من الوثائق التاريخية المتعلقة بها، كما قمت بإنجاز وسائط إعلامية، لا زلت أحتفظ بأصولها في مكتبتي الخاصة، لأنها بمثابة الدليل المادي على المنجز العلمي والأكاديمي لهذا السياق التاريخي، وقد حظي كاتب هذه الرواية بفرصة الاطلاع على الأرشيف الذي أحتفظ به، والاستفادة منه في إثراء مصنفه الأدبي من الناحية التاريخية، والتحليق بخياله الإبداعي، مما يسمح لقارئ الرواية المتبصر بتوسيع مداركه الفكرية، والعقلية، والفنية.

إن أي عمل يسعى للحفاظ على الذاكرة الوطنية أيا ما كان نوعه، نعتبره مطلبا أساسيا من كل واحد قادر على تدوين الحقائق وتوثيقها، لإثراء الرصيد التاريخي ليبقى شاهدا على ما حدث، وما كان في هذا العالم الذي يتسم بالزوال والفناء وسيزول حتما يوما ما، مهما طال به الزمن فالخلود والديمومة لا تكون إلا لله وحده.

ومن نافلة القول أننا مهما قلنا أو كتبنا، فثمة حقيقة لا بد من الاعتراف بها، ألا وهي تضحية المرأة الجزائرية في سبيل وطنها، إذ ستبقى مدرسة لا نظير لها، ونموذجا يحتذى به في التفاني، والإخلاص، وأنا على يقين أن هذه الرسالة النبيلة التي ولدت من رحم الشعب الجزائري المحب للسلام، والعاشق للحرية ستترك أثرا لا يمحي على مر الأزمان، للأجيال القادمة.

المرحوم محمد قنطـاري

الفصل الأول

بؤس الحياة اليومية

جلست صفية وحيدة قرب الموقد، حيث لم يبق من النار سوى جمرات خجولة تصارع على البقاء، تشع بضوء أحمر خافت يضفي على المكان لمسة خاصة، بدت صامتة وغارقة في تفكير عميق، ثم جالت ببصرها متأملة بناتها الأربع اللائي غلبهن النعاس، ونمن بعد تناول طبق من الكسكسي، تزينه بعض الخضروات وقطعة من اللحم المقدد "الخليع"، وهن يفترشن حصيرا على الأرض ولحافا باليا يغطيهن جميعا.

في ربيع عمرها الخامس والعشرين، بدت صفية أنيقة رغم بساطتها، فاتنة بقوامها الممشوق، وعينيها السوداوين بما تحملانه من حدة لافتة، وشعرها الطويل معقود بوشاح داكن كالمعتاد، أما فستانها الرمادي فزادها وقارا وانسجاما مع هدوء اللحظة، إذ كثيرا ما كانت تفضل هذا اللون. بدت سابحة في صمتها، غارقة في تفكيرها، كأنها تنصت لهمسات الرياح المتسللة التي يصل صداها إلى داخل المنزل ومن خلف الجدران.

بعد رحيلها إلى دار البقاء، تركت زوجة دحان[1] الأولى ولدا لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، تقاسمت صفية معه الحياة بعد زواجها من أبيه دحان، في بيت عائلي دافئ بحي القصر، كان بيتا

1- الاسم الموجود في الرواية باللغة الفرنسية هو دحمان وبطلب من الكاتب تم تغييره في النسخة العربية إلى دحان.

من غرف ثلاث ومطبخ ذي مدخنة، يتوسطه فناء فيه بئر، تحيط به مصطبة، ويتدلى من فوقها دلو مربوط بحبل عند طرف عمود. في ركن صغير تقبع عنزة وبعض الدجاجات. وعلى الشرفة، غرفة فسيحة تعرف بـ"المصرية"، عند أهل المنطقة، تعلو الجدران الخارجية وتكون سقفا صغيرا مظللا، جهزت لتكون مكانا للراحة والنوم، وموضعا يلفه شبه ظلام لطيف يبعث على الهدوء والسكينة.

كان البيت بطرازه المعماري الصحراوي ذي الطابع التقليدي، وجدرانه السميكة التي تحمي من لهيب وحر الصيف وتقي من برد وقر الشتاء، شاهدا على دفء عائلي وماض عريق. فقد بناه والد دحان، ذاك الرجل الوقور ذو الهيبة والمكانة الرفيعة بين قومه المتسم باتساع علمه خاصة في شؤون الدين، وبفصاحة لسانه وبلاغة كلامه الذي يفيض حكمة، إذ كلما تحدث إلا وكان لصوته الهادئ رزانة لا تخلو من قوة، وهو إلى جانب ذلك ذو مهابة اجتماعية وسط قومه، متزوج من ثلاث نساء... كانت فاطمة والدة دحان واحدة منهن.

في هذا الجو الحميمي الذي يتصف بالأصالة والعراقة، عاشت فاطمة، حماة صفية، مع ابنها سليمان بعد انفصاله عن زوجته، وكانت كثيرة التردد على بيت صفية، بل وتبيت عندها أحيانا في غياب دحان. تبدو فاطمة امرأة مسنة ذات جسد واهن وجلد مترهل، تعاني من ضعف شديد في البصر، ما جعلها امرأة عنيدة، صعبة المراس. وكان عمر، ابن دحان من زوجته الأولى،

شديد الولع والارتباط بها، هو شاب نحيف البنية، جميل المحيا، ذو تقاسيم مليحة وإن كانت ملابسه رثة، لكن ملامحه المتزنة ووقفته الثابتة أضفت عليه هالة من الوقار، كأنه ذاك الفارس الذي لا زال يحتفظ بسمات فتى القبيلة ويجمع بين الطيبة والشجاعة.

أما زهرة أخت دحان فقد كانت قليلة الحظ، طلقها زوجها مبكرا فعادت منكسرة إلى بيت أهلها، لتتقاسم السكن مع والدتها وأخيها سليمان، كانت هي الأخرى نحيلة الجسد طويلة القامة، هادئة الطباع مقلة في الحديث، تحمل حزنا دفينا تشي به ملامحها وتفصح عنه عيناها، لم تكن تتردد كثيرا على بيت صفية، بل كانت تزورها بين الفينة والأخرى فقط، محافظة بذلك على خيط الود الرفيع الذي يصل بين أفراد الأسرة وفروع شجرة العائلة.

كان في عيني زهرة شيء من الغموض والحزن العميق، كأنها تنظر من وراء حجاب شفاف يفصلها عن العالم. لم تكن تتحدث كثيرا عما جرى وقلب حياتها رأسا على عقب، وكأنها ارتضت الصمت حكمة وملاذا، كاتمة ألمها مخفية أسرارها، فليس كل ألم يقال، ولا كل جرح يروى.

لقد كانت الظروف الصعبة التي يمر بها كل فرد من عائلة دحان تجعل من العيش المشترك أمرا صعبا بل ومستحيلا، فلكل منهم عالمه الخاص وظروفه الاستثنائية التي لا يريد مشاركتها مع الآخر، خاصة وأن دحان، هو الرجل الوحيد القائم على

شؤون العائلة، وكان أشبه بظل عابر في حياة أسرته. يغيب طويلا، لمدة قد تصل إلى شهرين أو ثلاثة أشهر، ويعود فجأة كما لو كان ضيفا عابرا... كانت عودته تحدث حركية مؤقتة في المكان، لكن سرعان ما يعود الصمت ليخيم على البيت مجددا. كانت صفية في هذا المساء تستحضر تلك اللحظات الحميمية الدافئة التي تجمعها به على قصرها، بما تحمله من ألفة المشاعر ورقة الأحاسيس، ووحشة الغياب بعد الحضور، وتستعيد في ذهنها كل ذلك الماضي الذي لم يغادر وجدانها، ماض محمل بالمشاعر المتضاربة، بالأمل والخوف. كل لقاء جمعها بزوجها، كان يحمل طعما مريرا للحظة لا تكتمل. فحضوره كثيرا ما كان حضورا مؤقتا، أقرب إلى فسحة زمنية خاطفة تختنق فيها الكلمات قبل أن تقال، وتكبت فيها العواطف قبل أن تنضج. تتزاحم الصور في ذاكرتها كأمواج تتكسر على صخور الحنين، يمر طيفه أمامها مثل مشهد مقطوع من سياقه... في تلك اللحظات الآسرة انغمست صفية بعمق في عالم ذكرياتها المتزاحمة، وهي تحدّق في الجمرات الحمراء التي تكاد تعلن عن موتها بتراجع لونها، كما لو أن دفئها قد حملها بعيدا إلى عالمها الخاص، لتستفيق منها على صوت غريب، وضوضاء غير مألوفة امتزجت بخفقان قلبها المتوتر. شدها صوت صرير مفاصل الباب الرئيسي، ذاك الباب الخشبي العتيق الذي لطالما كان سدا منيعا في وجه العابرين. تصلبت في مكانها، يتملكها القلق والتوتر، وتقدمت بخطوات حذرة نحو مصدر الصوت، ساد صمت ثقيل للحظات، ثم سمعت خطوات بطيئة، مثقلة، تقترب من الفناء،

فتضاعف ارتباكها؛ لم تكن تنتظر أحدا في مثل هذه الساعة من الليل.

أسرعت بخطى مترددة نحو مصدر الحركة حيث الحجرة الكبيرة، وقلبها يدق بعنف لم تعرفه منذ زمن بعيد، جرت نحو الباب ،ولكن الدخيل سبقها إلى فتحه ببطء ،كانت لحظة ثقيلة أطبق فيها الخوف على نفسها، وإذا بجسد رجل تعرف ملامحه جيدا حتى في العتمة يلج الحجرة . كادت تصرخ... لكنها لا تعلم:

أكان ذلك من الفرح المفاجئ أم من الخوف الغامض؟

نعم، إنه دحان... زوجها، الذي لم تكن تنتظر عودته في هذه الأيام، ولا في هذا الليل الثقيل. لكنه الآن أمامها، واقف عند العتبة، كتفه مائل قليلا من ثقل الطريق، وفي يده اليمنى حزمة متواضعة، وعيناه تتلمسان الظلمة باحثتين عنها.

وقف قليلا عند عتبة الحجرة، وراح يجول ببصره في المكان، نظر إلى الموقد القديم الذي كان يحتضن بحنو توهج آخر الجمرات المحمرة المحتضرة، تأملها كأنه يسترجع دفئه من بعيد، ثم انتبه فجأة إلى خيال زوجته الواقفة أمامه، بجسدها الممشوق وبدت أكثر صمتا، وكأن وقفتها تختزل لحظات الوحدة والانتظار، لقد جاء في الوقت المناسب. كانت مذهولة، تنظر إليه نظرة لا تفسر، تحمل في طياتها الحيرة والحنين، وربما العتاب الصامت... لكنها لم تنبس ببنت شفة.

هو أيضا لم ينطق بكلمة، كان اللقاء أثقل من الكلام، أعمق

من أن يفسر، وأقرب إلى أن يكون لحظة بين حلم وحقيقة، تمالكت صفية نفسها، وشدت على أطراف وشاحها كما لو كانت تلجم به اضطراب قلبها، ثم راحت تتظاهر بأنها طبيعية، تخفي دهشتها تحت قناع من الهدوء المصطنع.

- مساء الخير... قالها دحان بصوت منخفض، أشبه بالهمس، وكأنه لا يأتمن هذه الجدران المبنية من الطين، أو خوفا من أن يتسلل صوته خارج حدودها. كانت نبرته خافتة، متعبة، وفيها شيء من الحذر؛ وضع حزمته الصغيرة إلى جانب المائدة الخشبية التي تقبع وحيدة وسط الحجرة، كما لو كانت شاهدة على كل اللقاءات السابقة، على كل الصمت والكلمات المبتورة التي قيلت هنا ذات مساء قديم.

- مساء الخير... ردت صفية، لكن صوتها كان أقرب إلى التنفس، خافتا، مرتعشا، ثم استجمعت شيئا من قوتها وأعادت الجملة بنبرة أعلى قليلا، وكأنها تحاول أن تصدق وجوده فعلا أمامها، وأن تثبت اللحظة بالكلام.

ثم لم تستطع أن تمنع السؤال الذي أفلت منها قبل أن تقرر إن كان الوقت مناسبا له:

- عدت مبكرا... هذه المرة، ما الذي حدث؟

قالتها بلهجة تجمع بين الحذر والاستفهام، بين الاتهام والرغبة في الطمأنينة. كانت تعلم أن وراء عودته المبكرة شيء ما، وأنه لم يكن ليعود عبثا، فهي تعي جيدا أنه رجل كتوم لا يتحدث

بسهولة.

نظرت إليه مباشرة، تحاول أن تلتقط من ملامحه ما لم يتلفظ به بعد: هل طرد؟ هل ضاق به الحال؟ أم أنه فقط... اشتاق؟

كان أثر التعب لا يزال باديا على وجه دحان الشاحب الذي ينبئ بالإرهاق أكثر مما تنبئ به كلماته، اقترب بخطى بطيئة نحو صفية، يجر جسده المتهالك في العتمة، حتى وقف قبالتها وجهه لوجهها تماما... حدق فيها طويلا، بنظرة اشتياق طالت وامتدت كأنه يتأكد من أنها ماثلة حقا أمامه، وليست طيفا يراوده بعد سفر طويل... ولاحظ في عينيها وميض قلق خاطف لم يعهده بها من قبل؛ تلك النظرة التي تختصر أشياء لم تقل، والتي تنبع من ريبة لا تريد أن تعلن عن نفسها.

أراد دحان أن يقول شيئا، يتهرب به من تساؤلاتها غير المعلنة، فبدا له أن يفسح الود بينهما بكلمات لطيفة ويسألها عن أحوالها، لكنه تراجع، شيء ما أثناه عن ذلك ، ربما هو الخجل، وربما هي العودة المفاجئة التي لم يكن مستعدا لتبريرها على الأقل الآن.

انحنى نحو الموقد، وجمع كفّيه مقربا إياهما نحو دفء الجمرات المحمرة، كأنما يوقظ من رمادها بعض الحياة. سادت لحظة صمت أخرى، قبل أن يقرر أخيرا أن يشرح لها سبب قدومه المفاجئ.

بعد عودته من فرنسا التي هاجر إليها، كان دحان يعمل في بلدة مغرار؛ بلدة صغيرة تبعد نحو ستين كيلومترا من هنا... كصانع متفجرات في ورشة تابعة للأشغال العمومية، مختصة في شق الطرقات...

تقع قرية مغرار، بجبال القصور غربي الأطلس الصحراوي على الحدود الجزائرية المغربية... منطقة صعبة، قاحلة، ومنسية، لكن كل صخرة فيها كانت تحكي تاريخا عريقا... خاصة تلك النقوش الحجرية القديمة، التي تشكل معرضا فنيا في الهواء الطلق، على طول الطريق المحاذي لمدينة تيوت، والمؤدي إلى مدينة البيض وصولا إلى جبل عيسى، فهذه المنطقة تاريخيا تعد معقل المقاومة الكبرى للشيخ بوعمامة بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

كانت صفية منتبهة بدقة إلى كل ما يصدر عن زوجها، وبدأت تتجاوز دهشتها شيئا فشيئا، اقتربت منه بحنان صامت... رفعت يدها اليمنى، وبلمسة خفيفة مررتها على رأسه، كما كانت تفعل في السابق حين يعود مكدودا من عمله.

سألته بصوت خافت، محمل بالحب والاحتواء:

- كيف حالك؟

أجابها دون أن يرفع رأسه، وصوته منخفض:

- متعب قليلا... لكن لا بأس... على كل حال، فقد منحوني عطلة قصيرة، خمسة أيام.

قالت بهدوء، وكأنها تعيد ترتيب افكارها وتستعيد طمأنينتها:

- هذا أمر جيد...

ثم التفت دحان بعينيه نحو الركن الآخر من الحجرة، ونظر بحنو إلى بناته اللواتي كن ينمن على حصير بسيط، هناك وبدين كالملائكة، وكانت أجسادهن الصغيرة مغطاة بعناية، ابتسم بخفة، وبدت في عينيه لمعة حنان خافتة.

- والبنات؟ كيف حالهن؟

ردت صفية وهي تنظر إليهن بشيء من القلق:

- زكام حاد ألم بهن... بدأ بوالدتك، ثم انتقل إليهن الواحدة تلو الأخرى... لكنهن أفضل الآن، الحمد لله.. هن في تحسن...

سادت لحظة من الصمت الحذر، لكنها لم تكن ثقيلة، بل كانت تشبه استراحة قلبين يعرفان أنه لا فائدة من اللوم، وأن الكلام – كل الكلام – يأتي متأخرا دائما حين يحين وقت العناق.

كان دحان ما يزال يشعر بالضيق، فقد خنقته جلابيته التي علق بها الغبار وطوقه التعب، فنهض متأفقا منها ونزعها بعجلة، وكأنه ينزع عنه عبء الطريق، ثم التفت إلى زوجته وسألها، محاولا أن يبدو سؤاله من خلال نبرته سؤالا عابرا:

– هل الكل تناول عشاءه؟

لم يكن السؤال بريئا، بل كان طريقة ذكية منه ليذكر صفية أنه يتضور جوعا، إذ أنه لم يذق طعم الزاد منذ مغادرته الورشة،

والسفر كان مرهقا حد الإنهاك. التقطت صفية الإشارة بسرعة، فقامت إلى الموقد، وجمعت بضع أغصان من الزعتر اليابس وأشعلتها وذكت الجمر، فانبعثت منها ألسنة اللهب راقصة، تتخللها طقطقة بهيجة كسرت الصمت المخيم على المكان في تلك اللحظات. راحت صفية تحضر له شيئا من العشاء، فيما ظل دحان غارقا في تفكيره، وجهه شاحب وعيناه تسرحان في الفراغ. ومع تنهيدة ثقيلة أطلقها، شرع يتحدث عن العمل الشاق في الورشة وعن ظروف العمل الصعبة، وقساوة الجو لاسيما عند الفجر وقت الصقيع، وعن البرد الذي يلسعهم حين تهبط درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، وعن ظروف الإيواء المزرية والأسرّة المهترئة التي ينامون فوقها في كوخ خشبي، لا يقو على مقاومة الريح والمطر في ظل التقلبات الجوية وغضب الطبيعة المتكرر.

ومع ذلك، كان دحان يتحمل كل تلك الظروف، لأن الأجرة التي كان يتقاضاها، وإن كانت متواضعة، تظل نعمة نادرة في مثل هذه الأوقات العصيبة، وفي هذا الزمن الصعب، بالنسبة لرجل مثله من طبقة "الأنديجان"؛ أولئك الذين كتب عليهم الشقاء أكثر من غيرهم. عادت صفية بطبق كسكس الشعير المعاد تسخينه، والمحضر في ذلك المساء، ثم قالت بمزاج مرح، محاولة التخفيف عنه:

– كل... هذا سيفيدك.

أمسك دحان بالملعقة وراح يأكل بنهم، دون أن ينبس ببنت

شفة. كان الجوع أقوى من التعب، وأقوى من كلماته. التهم كل ما في الصحن، ولم يستطع الانتظار إذ كان يتهيأ لأن يزف خبرا سارا لزوجته، التي تركته يأكل على راحته دون أن تقاطعه بحديثها أو تتلفظ بكلمة.

تنفس بعمق وهو يزيح الطبق من أمامه برفق، بعد أن ذهب عنه عنت الجوع وبدا أكثر هدوء، وابتسم أخيرا... لكنها كانت ابتسامة مجهدة، مرهقة، ابتسامة تقول: أنا بخير، مؤقتا.

ثم قال فجأة، بصوت جاد ووجه خال من التردد:

– كما تعلمين... في منطقة مغرار، حيث يعمل صديقي الجديد بوترعة في رعي الغنم، هناك ضريح لولي صالح، يدعى سيدي بلخير. يقال أن له كرامات عجيبة... وكثيرة هي معجزاته التي يتحدث عنها الناس لاسيما في تحقيق أمنيات كل من يزوره.

انتصبت صفية فجأة، وبدت في عينيها لمعة اهتمام:

– حقا؟!

رأى في نظراتها رغبة في معرفة المزيد، ودون أن يمنحها فرصة لإشباع فضولها استرسل، في الحديث عن معجزات وكرامات هذا الشيخ الجليل وضريح سيدي بلخير:

– نعم... هذا الولي أعاد الأمل لأزواج كانوا يعانون من العقم، فجاءوا إليه بقلوب يائسة وعادوا وقد رزقوا بأولاد، ليمنحهم طعم الحياة بعد أن يئسوا... وهناك من استعاد خصوبته، ومن أنجبت بعد طول انتظار... الكل يشهد بذلك دون الحديث عن

باقي معجزاته. وبعيون متألقة بالأمل واصل دحان سرده المغري على مسامع زوجته، ثم قال بصوت منخفض لكنه حاسم، كما لو أن القرار قد اتخذ:

– فكرت مليا... أرى أنه ستكون فكرة سديدة لو ذهبنا إلى هذا الشيخ الجليل، وضريح هذا الولي المبارك... لعل زيارتنا له تحقق أمنياتنا بشأن هذا الحمل... وربما بفضل الله وبركة هذا الشيخ... يتحقق الحلم.

بدا صوت دحان مطمئنا ومقنعا أكثر من أي شيء ،وكأنه لم يبق أمام الزوجين ملجأ آخر يلجآن إليه غير زيارة هذا الضريح، وأنه آخر ملاذ لهما، شعرت صفية بشيء من القلق المضمر الذي لم يتجلى، ولم تطمئن تماما لأنها ستجد نفسها للمرة الأولى بعيدة عن بناتها الأربع.

قالت بتنهيدة، وقد جلست قربه:

– أوه، نعم... ولكن، هل فكرت في البنات؟

– البنات؟ حتما فكرت.. لا تقلقي... أمي وزهرة ستتكفلان بهن فترة غيابنا... ثم أننا لن نغيب سوى ليلة واحدة لا غير.

فكرت صفية قليلا، وقلبت الأمر على وجوهه المختلفة. طالت لحظة الصمت بينهما. ثم أخيرا، وبعد تردد وافقت على الأمر:

– حسنا... الرأي ما تراه...سوف نخبر والدتك بالأمر لنأخذ رأيها.

رغم قبولها، كان قلبها غير مطمئن تماما، إذ لم يكن من السهل عليها أن تترك بناتها الأربع، فهذه أول مرة تبتعد عنهن. كانت صفيّة تحس بالتعب والوهن في جسدها، فبطنها المنتفخ يدل على أنها في الشهر الأخير من حملها، لكن فكرة المولود المنتظر بفارغ الصبر، ظلت تراودها منذ سنوات. فهي رغم حبها الشديد لبناتها، لم تكف يوما عن الدعاء بأن يرزقها الله وزوجها بمولود ذكر لتكتمل سعادتهما، إذ ما فتئت تتذكر ملامح الخيبة المرتسمة على وجه زوجها مع كل حمل... من يدري ربما تحظى هذه المرة بما كانا يتمنيانه بمباركة هذا الشيخ فتتحقق المعجزة.

اتفق الزوجان على ضرورة زيارة هذا الولي الصالح، وأعقب ذلك محادثة مليئة بالحماس بينهما وتخطيط لهذه الرحلة، وشعور داخلي ينبئهما أنها هذه الرحلة قد تغير حياتهما نحو الأفضل، وتحمل لهما البشرى، كانت عينا صفية تتألقان أملا وحلما بهذا المولود الذي ينشدانه ولطالما انتظراه. وكما جرت العادة، لم يكن الذهاب إلى مثل هذه الأماكن يتم دون تقديم تضحية؛ فميسوري الحال يذبحون كبشا أو نعجة، أما الفقراء، فيكتفون بديك...

وها هي صفية، وهي تتمدد في فراشها تلك الليلة، تشعر بكم من الأفكار السوداوية تحاصرها وتنغص عليها فرحتها وتعكر مزاجها... فذاك الهاجس القديم ما ينفك يعود بقوة مراودا إياها: لماذا لم تلد إلا بنات؟ هل العيب فيها؟ أم أن الأمر وراثي وحتما ستشبه أمها التي أنجبت فقط إناثا؟ لقد جربت كل شيء...

الأعشاب، الوصفات التقليدية، ..، ولم يتغير شيء.

تنهدت.. لعل هذه الزيارة فعلا هي آخر أمل لها في تحقيق المبتغى.

كانت الحياة قاسية تتطلب من الجميع العمل باستمرار؛ إذ يجب النهوض باكرا لكسب القوت اليومي! فقد تسببت تصرفات الاحتلال الفرنسي وعملائه، في تفقير سكان المنطقة وتجويعهم، والسيطرة على النظام الاقتصادي المحلي الذي كان قائما على حركة القوافل، وتنقل السكان بماشيتهم إلى المراعي، كما ساهم الحكم العسكري الفرنسي عن عمد في تحطيم النمط الاقتصادي المحلي، وأدى ذلك إلى نقص كبير في رؤوس الماشية لدى السكان، حتى أن بعض القرى أصبحت خاوية على عروشها، مما أرغم السكان على البحث عن فرص للعمل، حتى ولو كانت في ظروف شاقة وصعبة فقط من أجل العيش والبقاء.

كانت الحياة الزوجية بين دحان وصفية على بساطتها تتسم بالتفاهم والاحترام المتبادل، والطمأنينة التامة، يتخللها بعض الجدالات والنقاشات من حين لآخر لسوء تفاهم بشأن أمر ما، أو الاختلاف كما هو حال أي زوجين، إلا أنه سرعان ما يزول، ويعودان إلى ما كانا عليه من هدوء وراحة وسكينة، وهذه الحالة تقريبا كانت تعيشها كل الأسر المجاورة لهما، إذ أن القاسم المشترك بينهم كان الفقر، والمعاناة، مما جعلهم يتكاتفون ويتعاونون فيما بينهم لطرد شبح المجاعة، كانت المحبة والمودة تسود بين الأفراد، الكل يفهم الكل بنظرات الأعين،

فكلهم يمد يد المساعدة دون أن ينتظر المقابل، وفي بعض الأحيان يحدث وأن يرفع أحد الجيران صوته على جاره، أو يغضب منه، ويقاطعه، ثم ما يلبث الاثنان أن يتصالحا من قريب دون حقد. هكذا كانت طباع سكان هذه البلدة، ذوو عزيمة صلبة مثل الجبال، هادئون ومتسامحون مثل الرمال الصفراء المحيطة بهم، ومن حين لآخر يثورون ويغضبون، فيهيجون مثل رياح الشهيلي حينما تهب دون توقف، فتحيل كل أخضر إلى ما هو جاف وصلب. غير أن هذا السلوك يكون عادة في حال دفاعهم عن كرامتهم ضد المستعمر الغاشم.

قبل أن يعين عاملا بإحدى الورشات التابعة لشركة الجسور والأرصفة بعين الصفراء، كان دحان يقوم بزراعة لجنان البستان بالخضروات، وغالبا ما كان يذهب إلى السوق لبيع منتوجه منه، وكان كلما عاد إلى البيت شعر بكثير من المرارة والحزن لثقل ما يعانيه كرب عائلة، وقلما يخفي عن زوجته مشقة عمله اليومي ،إذ يجد في مصارحتها بذلك متنفسا له.

عرف دحان يتم الأب في سن التاسعة وهو الذي تكفل برعاية إخوته وأخته، ولهذا كانت صفية ترغب في أن يرزق بمولود ذكر، حتى يساعده رفقة أخيه من الزوجة الأولى على الأقل في مواجهة تقلبات الحياة.

عند الفجر سمع دحان طرقا على الباب عدة مرات، فصاح وهو لا يزال على فراش النوم:

- من الطارق؟ هذا ليس وقتا مناسبا للزيارة!

- أنا بغداد[1]، افتح الباب من فضلك.. أكاد أتجمد من شدة البرد.

نهض دحان متثاقلا، وتوجه نحو الباب الخارجي، كان الجو بارد جدا معلنا عن حلول فصل الخريف، سلم الصديقان على بعضهما البعض ثم تعانقا، إنهما صديقان منذ صغرهما، وقد عاشا مع بعضهما أياما عصيبة، ومر كلاهما بفترات بؤس وشقاء مريرة، حينما كانا طفلان يترددان على المدرسة القرآنية بحي القصر.

- صباح الخير دحان، علمت البارحة أنك عدت من العمل.

- صباح الخير بغداد، نعم لقد منحوني عطلة قصيرة فقط.

كان بغداد طويل القامة، نحيف الجسم، شعره أسود قصير، عيناه فاتحتا اللون، لم يغادر أبدا منطقة القصر. وكثيرا ما كان يساعد صديقه دحان في خدمة بستانه، لجنان وزراعة أرضه. لم يخفى على دحان علامات الإرهاق والتعب التي بدت جلية على وجه صديقه، كما لاحظ أيضا أن عيناه تلوح منهما نظرة حزن كأنه يحمل هموم العالم على كتفيه، بدا له صديقه وقد تقدم به العمر، مع أنه لم يكن يتجاوز الثلاثين سنة، لقد عهده في السابق شابا سعيدا مليئا بالحيوية، يبتسم في وجه كل من يلقاه، ولا

1- الاسم الموجود في الرواية باللغة الفرنسية هو علي وبطلب من الكاتب تم تغييره في النسخة العربية إلى بغداد.

تفارق الضحكة شفتيه في كل مناسبة أو لقاء. لم يرغب دحان في أن يحرجه بالسؤال عن هذا التغيير الذي لاحظه، فالظرف غير مناسب لفتح نقاش في هذا الأمر، لقد كان ينتظر أن يبادر صديقه بسرد الجديد مما يعتلج في صدره ويطبق على أنفاسه.

ابتعد الصديقان عن البيت، وسارا وهما يقيان جسميهما من لفحات البرد الصباحي، واتخذا طريقهما عبر الشوارع المحاطة بالجدران المرتفعة بالطين الصلب المختلط بين الحمرة والصفرة، بعد فترة وصلا إلى ساحة الجامع، وجدا بالقرب من مسجد القصور مجموعة من الشيوخ جالسين على جانب الباب الأمامي للمسجد المصنوع من الخشب، كما هي عادتهم بعد أدائهم لصلاة الصبح، لتجاذب أطراف الحديث في شتى المواضيع، ويظلون هكذا حتى يقطع حديثهم صوت المؤذن معلنا عن دخول وقت الصلاة الموالية. بعد إلقاء السلام والتحية على الشيوخ، سار الصديقان في اتجاه شارع ضيق تتراص على جانبيه بيوت منخفضة الارتفاع، تؤدي نهايته إلى خارج حي القصر، وصلا بعدها إلى ساحة ثانية يطلق عليها سكان المنطقة "الباب الكبير".

كانت هناك ثلاثة أبواب أخرى للمدينة، كل واحد منها يؤدي وظيفة معينة؛ فالباب الأول، هو باب الخير، كان يقع جهة الشرق ويشرف على جبل مَكْثَر، الذي يقصده السكان لجلب الحطب الذي يستعملونه للطبخ، والتدفئة شتاء، في حين يصنعون من جذوع الأشجار عوارض وأعمدة يستخدمونها في

بناء سقوف منازلهم. أما الباب الثاني، فهو باب السد، ويقع بجهة الجنوب الغربي المؤدي إلى خزان الماء المخصص لسقي الحدائق. فيما سمي الباب الأخير الواقع بالشمال الغربي، بباب الموت، ويؤدي إلى المقبرة الواقعة بالقرب من ضريح مولاي سيدي عبد القادر.

قام الفرنسيون بتحصين حي القصر الذي يشكل برج مراقبة وحراسة، كما لو كان يستعد للحرب مرة أخرى ضد عدو خفي متوار عن الأنظار في مكان ما في الصحراء بعيدا في الجنوب، أو ربما في مكان مجهول. كما أن القلعة المحصورة بين جبل مكثر والكثبان التي تحيط بها، تشبه جوهرة في مخبئها الطبيعي معدة لحماية نفسها من الغزاة، وحماية السكان أيضا من التمرد الذي لا يمكن التنبؤ به أو تخيله. تمتد القرية طولا بالقرب من جبل مكثر ليبقى جزء منها مرتكزا على جوانب الكثيب الرملي غير المستقر، والذي تحوله الرياح من مكانه عند هبوب كل عاصفة، فهكذا هي طبيعة الكثيب الرملي، فهو لا يستقر في مكانه أبدا، بل يتحرك ويتنقل باستمرار وبطريقة لا يمكن للمرء أن يشعر بها، ولكنه يسير بثبات باتجاه حي *القصر*، وتلك المنشآت العسكرية التي بناها الجيش الفرنسي.

كانت بنايات حي القصر تشبه القصور الأخرى المنتشرة في الجنوب الوهراني، ولا يختلف عنها من حيث البناء المتسم بشكله البيضوي، حيث كانت واجهات، ومداخل المنازل على الأطراف تشكل أمكنة للسير دون عناء، تتفرع عنها أزقة ضيقة

توفر إمكانية الوصول إلى الداخل. أما جدران المنازل فقد كانت مبنية من الحصى المرصوص، بواسطة إسمنت مشكل بمزيج من الطين والرمل يميل لونه إلى الحمرة، فيما تقابل واجهات المنازل الداخلية أبواب صغيرة الحجم تسمح بدخول الأشخاص، والأثاث المنزلي البسيط والصغير الحجم فقط.

هذا الشكل الذي بني به القصر، جعله لا ينفتح على الحياة الخارجية إلا عن طريق الباب الكبير، وبطبيعة الحال فقد جذب هذا الموقع اهتمام الجيش الفرنسي الذي أنشأ قاعدة عسكرية تكاد تلتصق به. مما يسمح لعناصر الجيش الاستعماري أن يراقبوا بكل سهولة أدنى تحركات الأشخاص، ويرصدون أي محاولات للهجوم عليهم من طرف سكان المنطقة، فهم يعلمون جيدا مدى كره هؤلاء للاستعمار، وعدم تقبلهم لوجوده على أراضيهم.

كانت المنشآت العسكرية الفرنسية بحي *القصر* تشمل الحامية العسكرية وملحقاتها، من بينها المستشفى، ونادي الضباط والثكنات المتعددة، التي تأوي مختلف الفرق العسكرية التابعة للحامية والمشكلة بدورها من وحدات الرماة الجزائريين، ووحدات المشاة الخفيفة الإفريقية، ووحدات المطاردين الأفارقة، ووحدات اللفيف الأجنبي. وكان انتشار هذا التعداد البشري الهائل للقوات الفرنسية، سببا في استقرار أعداد كبيرة من التجار الذين فتحوا محلات، ودكاكين يتعاملون من خلالها مع العساكر الفرنسية، وقد أدى هذا النشاط التجاري مع مرور

الوقت إلى تشكيل نواة حي بالضفة الأخرى من الوادي أطلق عليها اسم الفيلاج القرية.

كان عدد المهاجرين من مختلف الجنسيات، لاسيما الإسبان والفرنسيون، وقدامى اللفيف الأجنبي الذين انهوا خدمتهم العسكرية، يزداد في هذا الحي يوما بعد يوم. كما شهد أيضا قدوم بعض التجار والحرفيين من اليهود، الذين شرعوا في فتح محلات تجارية وحرفية، مستغلين فرصة رواج سلعهم لدى القوات الفرنسية. وعلى مسافة تبعد قليلا عن هذا الحي، تنتشر مجموعة من المنازل المبنية من الطوب، يقطنها بعض السكان المحليين، الذين وجدوا أن العمل في الجزء الخلفي من حي سيدي بلال هو مكسب وباب رزق يجب استغلاله. ومن المفارقة أن الوادي الذي يعبر وسط البلدة كان يشكل حاجزا طبيعيا بين مجموعتين من السكان تختلفان عن بعضهما البعض اجتماعيا وثقافيا وحضاريا، ممثلة في مجموعة الكولون المستعمرين من جهة، ومجموعة السكان الأصليين من الجهة الأخرى.

ذهب دحان وصديقه بغداد إلى السوق الأسبوعي؛ حيث يعرض التجار سلعهم وموادهم، وينشر باعة الخضر سلعهم مما جادت به الأرض من الخضروات الموسمية، ويطرحونها على جانبي الرصيف وبينما كانا يتجولان داخل السوق التقيا بصديقهما عبد القادر الحداد، الذي بادلهما التحية وسار الثلاثة معا.

كان عبد القادر الحداد طويل القامة، نحيف الجسم، كستنائي الشعر، أسود العينين تعلو وجهه لحية مرسومة بعناية، تنحى الثلاثة جانبا بعيدا عن أعين الفضوليين، وشرعوا في تبادل أطراف الحديث بصوت منخفض، حول الأحداث الأخيرة التي عرفتها القرية، والأصداء التي تصل مسامع الناس عن الثورة، ليتطرقوا بعدها إلى حالة المؤونة التي جمعوها لإرسالها إلى معاقل المجاهدين، وقدروا الكمية على أفضل وجه ممكن، بما في ذلك القهوة والسميد والملابس والأغطية وغيرها من الضروريات اليومية. كما قاموا أيضا بحساب مبالغ الاشتراكات التي حصلوها إلى الآن، وكيفية توصيلها إلى المسؤول عن خزينة الثورة. وقبل أن يفترقوا، اقترح عليهم دحان أن يلتقوا جميعا على الساعة العاشرة مساء بالقرب من المسجد، لأن ثمة أمرا مهما يريد أن يعلمهم به.

عند الموعد المتفق عليه التقى الأصدقاء الثلاثة، وكان المكان خاليا من السكان تماما، والجو بارد جدا، يتخلله سقوط الأمطار الخفيفة، أخبرهم دحان أن الأمر المهم الذي جمعهم لأجله، هو أن المسؤول عن خلية جبهة التحرير الوطني سلمه ثلاثة رسائل تهديد موجهة إلى بعض عملاء الاستعمار، وطلب منه أن يقوم رفقه أصدقائه بوضعها تحت أبواب منازل هؤلاء العملاء وهم (عمر، وميلود، وصدّيق) الذين يعملون بالمصلحة الإدارية المتخصصة (لاصاص) المعروفة بخطورتها، وتنكيلها بالسكان، والمناضلين، وقد أمرت الجبهة هؤلاء العملاء بالاستقالة من

الوظيفة، وإلا سيكون مصيرهم الموت.

- أخيرا، قال بغداد، جاءت إدانة هؤلاء العملاء من قبل قيادة جبهة التحرير الوطني لتعاونهم مع العدو، تمنيت لو قمنا بتصفيتهم مباشرة دون تأخر بسبب الظلم الذي يلحقونه بالسكان.

- أنت على حق، رد عليه عبد القادر، سيأتي اليوم الذي سيدفعون فيه الثمن غاليا بعملهم هذا.

- أنتما لا تعلمان كيف أذلني القايد رفقة حراسه، قالها بغداد بحسرة شديدة.

- علينا تنفيذ أوامر الجبهة دون نقاش، قالها دحان بكل صرامة، علينا أن نسرع ولا نضيع الوقت!

- نعم، وهو كذلك، قال بغداد وهو يستلم رسالة من بين الثلاثة.

- تسلم عبد القادر الرسالة الثالثة.

توجه بغداد بسرعة نحو بناية ضخمة مبنية من الطين، نظر يمينا وشمالا، ثم دس الرسالة تحت الباب، وواصل دحان سيره باتجاه الدار الثانية التي وضع تحت بابها الرسالة الثانية. أما عبد القادر الذي كان مكلفا بالرسالة الثالثة فقد توجه إلى البيت المقصود بعد أن نزع حذاءه، وسار حافيا متحريا اليقظة التامة كعادته خشية العسكر الفرنسي، ليقوم بالأمر على النحو ذاته.

بقي دحان ينتظر لفترة من الزمن قدر خلالها أن صديقاه حتما قد نفذا المهمة وأنجزا العمل المطلوب، توجه بعدها بخطى حثيثة نحو منزله، كانت ضربات قلبه تزداد تسارعا، لقد جعلته المشاركة في مختلف الأمور المتعلقة بالثورة أكثر جرأة لم يكن يتصور أبدا أن يبلغها، فإضافة إلى ذكائه وشجاعته أضحى مدركا لهدفه، وكانت القضية الأسمى واضحة لديه؛ وهي الكفاح ضد المعتدي مهما كلفه ذلك!

كانت عين الصفراء الواقعة غربي القطاع الوهراني إحدى قلاع المقاومة الشعبية ضد الغزو الفرنسي، وقد تجلى ذلك بشكل خاص أثناء ثورة الشيخ بوعمامة. لم تكن عين الصفراء -بطبيعة الحال- تريد البقاء بمعزل عن مقاومة المحتلين مثلها مثل باقي مناطق الوطن؛ فقد وقف السكان في وجه المحتل الفرنسي، وأعلنوا الثورة حينما حل جنود العدو الفرنسي بأرضهم. فهاهي شرارة الثورة التي اندلعت بجبال الأوراس، ومنطقة القبائل، وشمال البلاد، ومنطقة الونشريس، تنتقل اليوم إلى غاية بوابات الصحراء، فكيف يمكن اجتناب لهيب نارها أو التولي عن خوض غمار معاركها، إلى جانب الوطنيين الآخرين الذين رفعوا لواء الكفاح والتحدي. ومن ثمة ما من سبب يمنعهم من الانضمام إلى الثورة؛ فها هو دحان يتطوع للمشاركة في الكفاح ضد العدو للمساهمة في تحرير وطنه، ولم يتوانى لحظة في أداء المهام التي كلفته بها الجبهة، دون أن يبدي أدنى اعتراض، وأعلن عن تصميمه للذهاب بعيدا في سبيل تحرير الجزائر، وخوض المعركة

الحقيقية، التي قد يضحي فيها بحياته.

في صباح اليوم الموالي نهضت صفية باكرا منهكة القوى، لأنها لم تنم جيدا بعد أن داهمتها الهواجس في الليل، أشعلت النار، وجهزت القهوة وحضرتها في انتظار أن يستيقظ زوجها دحان الذي كان يغط في نوم عميق. عندما استيقظ دحان وشرب قهوته، أحس بالنشاط والحيوية، خاطب زوجته:

- هل أنت مستعدة للسفر؟

- نعم، سوف نمر على والدتك لنودعها، ثم نتوكل على الله، قالت صفية.

وصل دحان وزوجته إلى بيت والدته؛ حيث أسرعت صفية الخطى نحو ابنتها هجيرة البالغة من العمر ثماني سنوات، ووضعت يديها الصغيرتين بين راحتيها، وقبلتهما بحنان، وهي توصيها بأن تعتني بأخواتها الصغيرات أثناء مدة غيابها، ثم توجهت نحو بناتها الأخريات، وراحت تقبلهن الواحدة تلو الأخرى، والدموع تملأ عينيها، كيف لا وهي المرة الأولى التي تبتعد عنهن، وتخرج من بيتها دون بناتها. تشجعت، وأظهرت الجلد، ولبست الحايك الذي كانت تعده للمناسبات، ورفعت حقيبتها، وخرجت مسرعة إلى الخارج حيث كان ينتظرها زوجها دحان، وكانت تتفادى النظر إلى بناتها حتى لا تشاهد دموع الحزن في عيونهن.

- نعتمد عليكما في التكفل بالبنات، خاطبت صفية حماتها

دون أن تلتفت نحوها.

- بالتأكيد، ردت الأم بنبرة مطمئنة.

خرجت صفية بخطى متسارعة مثقلة بحملها، تتبع زوجها دحان الذي كان يحمل حقيبة وضع فيها بعض الزاد، وعلى ظهره قربة مملوءة بالماء.

توقفت الأمطار التي كانت تهطل، وتغير الجو فأصبح لطيفا، غير أن الغيوم بقيت مستقرة ومرتسمة على صفحة السماء الصافية. كانت الساعة تقترب من السابعة صباحا، والشارع ما يزال خاليا من المارة، باستثناء العمال الذين كانوا يغادرون حي القصر باتجاه الحي الأوروبي الذي اصطفت منازله الجميلة المبنية بالحجارة، وسقوفها المزينة بالقرميد الأحمر، ونوافذها الواسعة، التي تعلوها مصابيح تضيئ المكان ليلا. بنيت تلك المنازل بطريقة تبدو فيها ملتصقة ببعضها البعض، لا تفصل بينها سوى جدران منخفضة، تتوسطها ساحة واسعة، مزينة بالنباتات، والأزهار الجميلة، وساعة حائطية كبيرة.

كانت هذه الساحة تستقطب اهتمام الأوروبيين بحيث أصبحت مكانهم المفضل للتنزه، أما الكولون الذين يرتادون خمارة (Zanzi Bar) فقد كانوا يستمتعون بالجلوس على الكراسي التي تقابل الساحة الكبرى.

كانت كل شوارع مدينة عين الصفراء واسعة، وأكبرها الشارع الذي توجد فيه الكنيسة، ومركز البريد والبنايات الإدارية المقابلة

للحديقة العامة، كما كانت تتوزع في هذا الشارع محلات البقالة، والدكاكين، والمطاعم، والمخبز، مما جعله عامل جذب واستقطاب للسكان الذين كانوا يطلقون عليه اسم "القرية الأوروبية"، على اعتبار أن أغلب التجار فيه أجانب، وأكثرهم من الإسبان الذين كانوا يبيعون للعساكر المقيمين في حامية عين الصفراء كل ما يحتاجونه من المواد، والحاجيات اليومية.

وبالمقابل يوجد في هذه القرية الأوروبية أيضا، مقر المكتب العربي ذو السمعة السيئة، ذلك أنه كان يجند ضعاف النفوس، من العملاء والوشاة، كما يشرف في الوقت نفسه على فرسان الصبايحية، وأفراد من القومية الذين يقومون بأعمال مشينة ويشبهون في تصرفاتهم قطاع الطرق المجرمين، ملتزمين في ذلك بأوامر قادتهم من المرتزقة وعديمي الشرف.

يذكر التاريخ أنه بإحدى هذه المنازل المحاذية للوادي، غرقت الكاتبة (Isabelle Eberhardt) إيزابيل إيبرهاردت ويلهيلمين بسبب الفيضان الهائل الذي حدث سنة **1904**. هذه الكاتبة ذات الأصول السويسرية التي ولدت في **17** فيفري **1877** وشبت بمدينة جنيف، وتوفيت بتاريخ **21** أكتوبر **1904** بعين الصفراء. كان أبواها من أصول روسية، غير أنها اختارت الجنسية الفرنسية. امتهنت الصحافة في شبابها، وبهذه الصفة انتقلت إلى الجزائر مع والدتها، وبحكم عملها فقد زارت مختلف نواحي البلاد، وشاركت سكان المناطق التي زارتها حياتهم اليومية. وبعد فترة من الاجتهاد والاحترافية في عملها أصبحت إيزابيل كاتبة

ومراسلة لكبريات الصحف والجرائد، ما مكنها من التنقل المتواصل، والزيارات المتعددة التي اكتشفت خلالها سماحة الأشخاص، وكرم وحسن ضيافتهم، فأحبت الإسلام واعتنقته واختارته دينا لها، وبعد زواجها من سليمان اندمجت المرأة، بل تماهت تماما مع هذا الشعب المستعمر واتخذت من اسم محمود كنية لها.

أحبت الشابة إيزابيل منطقة عين الصفراء، وبادلها السكان الحب نفسه، فاستقرت بها، وكان موتها المأساوي صدمة، عندما جرفتها ذات صباح مياه الوادي الهائجة، ولم تتركها تكمل المخطوطة التي كانت تسجل عليها ملاحظاتها، ومغامراتها العاطفية وكل ما يتعلق بالبلد، والدين، والناس الذين عرفتهم.

استطاعت الصحفية إيزابيل أن تعبر بكل صدق وحيوية في كتاباتها عن حياة، وأسلوب معيشة سكان المنطقة، وأن تنقل لقرائها وصفا بديعا والمواقع، والمناظر، الخلابة التي تتميز بها المنطقة. كانت المقالات التي نشرتها لها جريدتا "الأخبار" و"البرقية الجزائرية" مصدر إزعاج وتذمر للكولون، الذين كانوا يرون في أنفسهم المصدر الوحيد للحضارة والتمدن، لقد عرفت الصحفية إيزابيل بشجاعتها وجرأتها في الدفاع عن السكان المحليين المقهورين من طرف الإدارة الاستعمارية، مما جعل السلطات الفرنسية تصب عليها جام غضبها، وتعرقلها في عملها، وتختلق لها الصعاب لتثنيها عن نقل الحقيقة التي يخفيها الاستعمار الهمجي.

لقد غادرت ايزابيل الحياة بصفة مأساوية وهي لا تزال في ريعان شبابها، وبعد العثور على جثمانها، قام السكان بدفنها في مقبرة المسلمين بحي القصر. وهكذا بقيت ذكرى إيزابيل علامة فارقة في تاريخ المنطقة وستظل الأيقونة التي يتعين على أهل المنطقة التعرف عليها حفظا لذكراها.

الفصل الثاني

معجزة سيدي بلخير

ما إن وصل دحان وزوجته صفية إلى محطة القطار، حتى وقعت أعينهما على جنديين يقفان عند المدخل، يستندان إلى بندقيتيهما ويرمقان الجميع بنظرات حادة ويخضعان المسافرين للتفتيش دون استثناء. لم يستغرب دحان المشهد في ظل حالة الاستنفار القصوى التي فرضها جيش الاحتلال الفرنسي، منذ كثف نشطاء الأحزاب الوطنية القادمون من الشمال تحركاتهم قصد التوعية ودعم الثورة، فأضحت العيون تراقب الجميع، والشكّ لا يجانب أي عابر.

بهدوء حذر، ساعد دحان زوجته في حمل الحقيبة وترتيب الأغطية، ثم اتخذا لهما أحد المقاعد الخشبية الموزعة على طول رصيف المحطة العتيقة، يتقاسمان الانتظار والصمت وما لبثت صافرة القطار أن أطلقت صوتا مدويا شق الأفق بحدة، معلنا قدومه، فنهض دحان في هدوء، وأعان صفية على الصعود واتجها صوب مقدمة العربة واختارا لهما موضعا هادئا ومنعزلا عن الركاب، رغم أن القطار بدا شبه خال يومئذ.

جلس الزوجان في مقعد معزول عن باقي المسافرين، فأسندت صفية وجهها إلى زجاج النافذة البارد، وراحت تحدق في المناظر الطبيعية التي تتهادى أمام ناظريها، وعيناها ترقب بإعجاب ودهشة انسحاب الأرض المحمرة شيئا فشيئا أمام زحف الرمال

الداكنة، إذ بدأت تلك الرمال تحل محل الحجر الكلسي، وامتداد السهب بلا نهاية، وأما قطعان الأغنام فراحت ترعى مشتتة بين المراعي الجدباء المترامية، كانت تشاهد كل ذلك وهي تتخيل صورة المولود المرتقب، وكلما استحضرت صورته إلا وغمرها حبور داخلي خافت، وشعور عميق بالسعادة بهذا الصبي الذي تنتظره بمنتهى الشغف. كان المشهد في الخارج يتبدل بهدوء، وصفية غارقة في صمتها، لكنها اللحظة تذكرت بناتها اللواتي تبتعد عنهن للمرة الأولى، وعلى الرغم من أنها تركتهن في رعاية الجدة والعمة، إلا أن شيئا من القلق يخالجها ويتسلل إلى نفسها رغم اطمئنانها.

لاحظ دحان شرود صفية وإمعانها في صمتها، فابتسم وحاول أن يبدد هذا الصمت ويقطع سيل أفكارها وتأملاتها بلطف، ثم بدأ يسرد على مسامعها ذكرياته، ويحدثها عن هذه المنطقة التي يعرفها جيدا، بتضاريسها المتنوعة من، تلال وهضاب وسهوب وجبال صخرية ووديان ونخيل ذات تمور شهية.

لم يكتف دحان بالسرد عن جغرافية المكان ووصف ما ينطوي عليه، بل استرسل في الحديث عن المشاريع الكبرى التي أنجزتها الشركة التي يعمل بها، لا سيما على مستوى الطرقات، وبناء المنشآت الفنية والممرات المخصصة لتصريف مياه السيول نحو الجنوب. ولم يتوانى عن الدخول في التفاصيل التقنية الدقيقة فراح يشرح لها بفخر، استخدامهم لوسائل تقنية متقدمة كآلية للتفجير، من بينها المتفجرات الديناميت الذي يعد

هو من أبرز مستخدميها وأمهر خبرائها، تلك التقنية التي تخلف آثارا مذهلة وصدى رهيبا تجزع له حيوانات المنطقة، لكنها حسبه تختصر الكثير من الوقت والجهد في الآن نفسه في تكسير وتفتيت الكتل الصخرية العنيدة والضخمة من الجبال. كما حدثها بتقدير عن الجهود الجبارة التي يبذلها العمال المتفانون في إزالة الصخور والحجارة المتناثرة في تهيئة الطرقات وإنجاز مخارج لها متفرعة بحفر الأنفاق.

كانت صفية تنصت إلى حديث زوجها بإعجاب شديد، فقلما أتيحت لها فرصة الاطلاع على مثل هذه التفاصيل التي تروى من قلب الحدث.

استرسل دحان بعدها في حديثه بنبرة يغلب عليها الأسى:

- لكن للأسف تقع أحيانا بعض الحوادث... ففي الشهر الماضي، أصيب ثلاثة عمال في حادث مروع، تمزقت أجسادهم وتناثرت أشلاؤهم في أرجاء الورشة. وأما في العام الماضي، فقد لقي راع حتفه بعدما أصابته شظايا انفجار أثناء بحثه عن أغنامه الضالة عند التخوم.

تابع دحان حديثه، وصفية تصغي إليه باهتمام وتركيز، متخيلة تلك المشاهد القاسية التي ترسم ملامح حياة شاقة محفوفة بالمخاطر. ومع ذلك، كانت تدرك أن عمل زوجها، رغم ما ينطوي عليه من أخطار، إلا أنه كان يضمن لهم عيشا كريما. فحاجيات الأسرة الأساسية متوفرة دائما، وهو ما لم يكن متاحا

لكثير من العائلات في حي القصر. كان بيتهم لا يخلو من القمح والدقيق والزيت والقهوة والسكر، بل وغالبا ما كانت أسرة دحان تتقاسم خبز "الكسرة" مع الجيران، في لفتة ود ومحبة لا تغيب عنهم. ما إن انتهت المحادثة حتى انسحب دحان إلى صمت داخلي موحش، يقلب صور صديقيه بغداد وعبد القادر في ذهنه كمن يتلمّس وجودهما ويقتفي أثرهما... متسائلا: أتراهما أفلحا في أداء مهمتهما، أم ألقي القبض عليهما من قبل السلطات الاستعمارية قبل أن يلوذا بالفرار؟ هل حسما أمرهما وتمكنا من الالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني؟ أم تم الاشتباه بهما ما يجعل الإدارة الفرنسية تضعهم تحت الرقابة، لتتحول حتما بعد حين إلى تحقيقات تفضي إلى انتقام أعمى لا يبقي ولا يذر؟ كانت الأسئلة تتناسل في ذهنه دون أن يجد لها إجابة، والهواجس تزداد في كل لحظة ما يزيد من قلقه ويفاقمه، لكنه يعلم علم اليقين أنه لن يحصل على إجابات تشفي غليله وتطفئ ظمأه إلا بعد عودته، أما الآن، فليس له إلا أن يضع قناع الهدوء والرزانة ويتحرى إخفاء قلقه عن زوجته الحبلى، حتى لا يثير حفيظتها حرصا على ما تبقى من طمأنينة زائفة ومؤقتة. لقد أدرك، دحان في أعماقه بما لا يدع مجالا للشك، أن الأيام المقبلة ستكون صعبة ومشوبة بالريبة والشك الذي يقض مضجع الجميع، وأن الأجواء ستغدو أكثر توترا وقلقا، كما أيقن أن كل شيء قد تغير ولن يعود إلى سابق عهده أبدا...

قطعت صافرة القطار على دحان وزوجته تفكيرهما وتوقف

عند محطة صغيرة مألوفة لدحان، إنها مغرار قرية صغيرة وسط الريف بجماله وبساطته، ترجلا الاثنان من القطار وكان الجو باردا على الرغم من الشمس المشرقة في عز الخريف، فهكذا هي الأجواء في هذه المنطقة برودة قاسية ،فإذا كان خريفها كذلك فما الذي يمكن أن يقال عن فصل الشتاء! لاشك أنه أقسى بكثير.

مشى الاثنان بخطى ثقيلة ساير فيها دحان زوجته التي تعيش الأشهر الأخيرة من حملها، وبالقرب من حاجز صغير مصبوغ بالأبيض، كان ثمة رجل أصلع بانتظارهما يرتدي جلابة، تعكس ملامحه بكثرة تجاعيدها قسوة الحياة، وقف بوترعة بمحاذاة الجدار وغير بعيد عنه بغلان وعنزة، تقدم إليه دحان فيما بقيت زوجته بعيدة بعض الشيء عنهما، سلم الاثنان على بعضهما بحرارة وتحدثا قليلا، ثم سارع الرجل إلى حمل أمتعة الزوجين ووضعها على أحد البغلين، فيما ساعد دحان زوجته في الركوب على البغل الثاني استعدادا للرحلة المقدسة والمنتظرة إلى ضريح سيدي بلخير . والواقع أن الفضل في هذه الزيارة يعود لبوترعة الذي كثيرا ما ألح على دحان بشأنها، وكان واحدا من أولئك الذين أشاروا عليه بها؛ خاصة حينما علم برغبته في مولود ذكر بعد أربع بنات وأخيرا أذعن للأمر. كانت علاقة دحان ببوترعة علاقة مزدوجة فهما صديقان من جهة وشريكان من جهة ثانية؛ حيث يعيش هذا الأخير في خيمة مع عائلته بالقرب من ورشة تشييد الجسور والطرقات، يمتهن الرعي لقطيع من الأغنام يصل عددها

خمسين رأسا تقريبا تعود أكثر من ثلاثة أرباع منها لدحان، كان قد اشتراها بعد عودته من فرنسا لاستثمارها وبناء رأس مال ينتفع منه، ولم يكن بفعله هذا يشكل استثناء ،ذلك أن الكل هنا دأب على مثل ذلك منذ عهود طويلة.

أتم الثلاثة استعدادهم وانطلقوا في رحلتهم، وكان عليهم أن يقطعوا ما يقرب عشرين كيلومترا على طريق وعرة شقتها حوافر الخيول والبغال والعربات وسوتها سواعد رجال المنطقة، تمتد بين جبلين صخريين قاحلين كانا مرتعا للأروية البرية وهي نوع من حيوان الضأن البري؛ حيث تمتد الطريق بشكل شبه مستقيم على طول السهل وامتداده، ليختفي المسار بعد ذلك عبر درب صاعد إلى أعالي الربى الصخرية الحمراء، قبل أن يعبروا قاع الوادي الذي كان لا يزال جافا، فلم تكن السماء سخية هذا العام ولم تجد بعد بالأمطار.

كان المسافرون الثلاثة يتقدمون بخطى رصينة والصمت رفيقهم في هذه الرحلة الشاقة، لم يجرؤ بوترعة على خرق ذلك السكون الذي يخيم عليهم، فالمكان وهيبته ألقيا على الجميع هالة من التأمل وأضفيا جوا من السكينة والهدوء، ضف إلى ذلك برودة الطقس التي أجبرتهم على الاحتفاظ بما تبقى من طاقتهم لاستكمال هذا السفر المتعب. من مغرار، انعطف الركب شمالا، حتى بلغوا مفترقا للطرق يقودهم جنوبا نحو الضريح. لم تكن الرحلة سهلة على صفية، ولا على الرجلين اللذين تعثرا مرارا بوقع خطى البغلين، فوق درب مغطى بالحجارة الصغيرة والحصى في

مشهد يبعث على الشفقة والأسى. وعند منتصف الطريق، وتحت ظلال نخلة وحيدة، اقترح دحان التوقف لأخذ قسط من الراحة قبل استئناف رحلتهم، فساعد زوجته على النزول، وجلست صفية على صخرة عتيقة ملساء، بدا عليها أثر الزمان والسنون.

تأمل دحان تلك الصخرة مليا فرأى فيها معلما تاريخيا أزليا شاهدا على الكثير من الأحداث، وقال في نفسه: لا بد أن القوافل والرحل اتخذوها محطة مرارا وتكرارا على مر السنين. تناولت صفية قربة الماء، وملأت كأسا معدنيا، وقدمته للرجلين، اللذين شربا منه تباعا وشربت بدورها وروت عطشها، كان التعب قد أخذ منها كل مأخذ، فالخروج من عين الصفراء إلى أرض مجهولة للمرة الأولى في حياتها زاد من قلقها، إذ لم تكن تعرف من الدنيا سوى حدود محيطها الصغير فعالمها الكبير لا يتعدى حي القصر وعين الصفراء.

استراح الثلاثة قليلا، ثم واصلوا مسيرهم، ولم يصادفوا في طريقهم سوى راع شاحب القسمات يقود قطيعا بدا وكأنه نجا من طوفان. كان المنظر يزداد وحشة وصمتا كلما توغلوا في المسير أكثر فأكثر. مرت أربع ساعات منذ مغادرتهم محطة مغرار، حتى بدأت الشمس تميل للغروب. وما لبثت أن لاحت على مرمى حجر منهم واحة صغيرة على ضفاف واد تحفه أشجار النخيل والقصب الكثيف، لا يسمع بها صوت سوى همسات النسيم، ولا نفس يقطع سكون المكان الذي لفه المساء بضياء

خافت، فغمر المشهد هدوء روحي عميق أثر في قلب صفية أيما تأثير، فرفعت بصرها نحو ربوة منعزلة تعلوها قبة صغيرة، هناك، كانت الوجهة والمقصد.

تنفس الجميع الصعداء، رغم ما تبقى من مسافة للوصول إلى "القبة" وكان الإرهاق قد نال منهم، حتى العنزة التي كانت مربوطة القدمين بدت ساكنة، فهل كانت تدرك المصير الذي ينتظرها. تبادل دحان وبوترعة النظرات التي تشد على عضد كل منهما، ثم استأنف الجميع السير نحو الغاية المنشودة و"القبة" المورودة. على امتداد الطريق إلى الربوة بالعرق الصغير كان مشهد "القبة" ينجلي شيئا فشيئا، وملامحه تتجلى بوضوح أكثر فأكثر كلما اقتربوا. وظهرت "القبة" متربعة على قمة تل، تشبه مكعبا بأضلاع حادة، أبوابها ضيقة، وفتحاتها العليا لا تتعدى مساحة التهوية. كان كل شيء مطليا بالجير الأبيض، وبدت الحياة هناك في بساطة لامتناهية.

كان الشيخ في انتظارهم، واطمأنت صفية للغاية وهي ترى النور الذي يشع من وجهه، إذ بدا وقورا وفي غاية النبل بقامته السامقة، ونحافة جسده، وبشرته السمراء التي لفحتها أشعة الشمس. وعيناه اللتان تعكسان عمقا وحكمة، ووقاره يزداد بانحناءة خفيفة في ظهره، كمن يحمل الزمان فوق كتفيه، كان يرتدي لباسا تقليديا خاصا بأتباع تلك الزاوية، عبارة عن جلابة وسروالا أبيضا. ساعد دحان زوجته على النزول ووضع قدميها برفق على الأرض، وحيا الشيخ:

- السلام عليكم

- وعليكم السلام ورحمة الله، مرحبا بكم، رد الشيخ بكل لطف ورحابة صدر: لا شك أن السفر كان شاقا ومتعبا، خاصة على زوجتك، ... غير أن إخلاص النية في حضوركم تلبية لنداء القلب سيحقق أمانيكم بلا شك، وسيتم ترتيب كل شيء لتكون زيارتكم مباركة وعلى أكمل وجه.

أجاب دحان بخشوع:

حسن استقبالكم، وتواضعكم، يشهدان على علو شأنكم ومكانة سيدي بلخير، وفضله الذي لا ينكره أحد.

ابتسم الشيخ، وأذن لهم بالدخول.

حين تخطت صفية عتبة "القبة"، تمتمت بخشوع: جئنا بنية صافية وبإيمان صادق نرجو البركة... بركة الأجداد وبركة سيدي بلخير، ثم ضمت كفيها وقبلتهما بخشية وخشوع.

في الداخل، كان الضوء خافتا، يتراقص بفعل لهيب الشموع المثبتة هنا وهناك، والجدران المطلية بالجير تنعكس عليها ظلال هادئة. ورائحة البخور تعبق المكان وتملأ الجو، والسكون المهيمن على "القبة" يبهج الروح ويبعث على السكينة. وبدت عامرة على الرغم من أنها لم تكن تحتوي سوى على صندوق يتوسطها، مغطى بالأقمشة البيضاء والمخملية منها الخضراء والحمراء المنسدلة على كل جوانبه، جلست صفية على حجر عريض مخصص عادة للزوار ليرتاحوا من عناء السفر، وتناولت

شربة ماء وأحست بدوار ألم بها فجأة، فأغمضت عينيها.

كان ثمة أغطية مهيئة وجاهزة للاستعمال، فبعدما ساعدها زوجها على بسطها استلقت عليها لتستعيد عافيتها. وبالمقابل كان بوترعة يهتم بالدابتين؛ حيث قام بسقيها وربطها بطرف حبل لتستريح وتتمكن من الرعي في الوقت نفسه، وفي هذه الأثناء دخلت زوجة الشيخ وهي تحمل صينية عليها تمر وشاي، وابتسمت مرحبة:

مرحبا بكم تسعدنا زيارتكم لسيدي بلخير، سيخفف ببركته عنكم الألم، وتقضى حوائجكم وتتحقق أمانيكم.

ردت صفية متأثرة:

- إن شاء الله... شكرا أتمنى ذلك.

ومدت يدها لتمسك بكأس الشاي الذي ناولته إياها زوجة الشيخ، ثم راحت تحدثها وتروي لها عما قاله زوجها عن بركات هذا المكان ومعجزاته، وكيف أنه بات يشكل مقاما للرحمة، والرجاء والتضرع لله لتحقيق الأمنيات، ناهيك عن كرم الضيافة وحسن الاستقبال الذي يحظى به الزوار. وكان الدفء يسري في صدر صفيه وهي تحدثها عن ذلك، وزادتها طيبة تلك المرأة وعطفها راحة وطمأنينة خاصة وأنها تعاطفت معها بشأن ما يشغلها وما جاءت من أجله.

بعد لحظات من ذلك جلس الجميع واتخذوا مكانا لهم في فضاء القبة، وجاء الشيخ تتبعه زوجته وهي تحمل إليهم طبق

الكسكس الساخن، مع التمر وحليب الماعز. وفي لحظة ما، شعرت صفية وكأنها تنفصل روحيا عن العالم الذي من حولها، ولم تعد تسمع الحديث الدائر بين زوجها وبوترعة، وكأنها في اتصال مع الروح التي تسكن هذا الضريح المستقر خلف الجدار الصخري، لتحلق بين الأمل والفرح، تمنت من أعماقها أن ترزق بذلك الطفل الذي سيحمل اسم الولي الصالح سيدي بلخير. لاشك أن دحان سيفتخر به، وستستعيد هي حتما ثقتها بنفسها واحترامها وسط العائلة والمجتمع، وتغيب نظرات الحماة القاسية والمزدرية، وتخبو ابتسامات السخرية الصفراء لأخت زوجها، وتسترد مكانتها وتنال الاحترام الذي تستحقه هي وبناتها وسط الجميع، لقد كانت ممتلئة بالأمل الذي لا يخبو فلطالما كانت تحلم بذلك الوليد الذكر الذي سيلاعبه أفراد العائلة، وتعم السعادة البيت بوجوده، وتعلو الضحكات وتطبع القبلات. فكرت صفية أن هذا الطفل المرسل من السماء سيشكل حتما رمزا لبداية مرحلة جديدة، وحياة ملؤها النور والفرح والحبور، والدفء العائلي المفقود، أليس ذلك رائعا تساءلت في نفسها؟

ابتسمت صفية وعيناها مغرورقتان بالدموع، وقد بدأت ترى الطفل المنتظر بين ذراعيها، تسمع بكاءه، وتشم رائحة عطره. كان حلمها يتحد بالمكان، بروح الضريح، بشيء عميق لا يفسر لم تكن قادرة على استيعاب ما يحدث، كانت عيناها معلقتان بالقبر وبدت كالمفتونة بسحر المكان، ملتزمة الصمت وقد استولى عليها الذهول تأثرا بروحانية الفضاء وقدسيته، وما إن

أرخى الليل سدوله حتى أمسى الجو باردا، ودخلت في حلم ورأت نفسها بمعية دحان في حديقة غناء فردوسية، وأحست بمنحة روحانية عجيبة، ورغبة عارمة في أن تسأل زوجها عن الأمر، لكنها استفاقت من حلمها الجميل وهي مبتسمة.

لا مناص من القول أن الأخبار تتناقل بسرعة رهيبة في هذه البقعة المعزولة؛ حيث تكاد تنعدم الحياة، وكان كل قاطني القرية على علم بقدوم صفية وزوجها مع مرافقهما لزيارة ضريح سيدي بلخير.

باتت صفية ليلتها هناك وزوجها، في القاعة البسيطة المقببة المطلية باللون الأبيض، تحت الأغطية وفي حضن السكون والهدوء الذي يهيمن على المكان. أما بوترعة، فقد خصه الشيخ بالضيافة والنوم في غرفة مجاورة لمنزله، تجهز عادة للعابرين من الزوار. حينما انبلج الصبح كانت صفية مرهقة وبالكاد تفتح عينيها، وكابدت لتنهض لكنها ما فتئت أن أغمضتهما واستسلمت للنوم مجددا، لقد قضت نصف ليلتها وهي تفكر ،ولم تخلد للنوم إلا بحلول الفجر، حيث عم الهدوء، وكأن كل شيء ينتظر ميلاد يوم جديد.

كان دحان قد استيقظ باكرا، وغادر القبة متأملا في الأحداث المتسارعة التي تعصف بالمنطقة؛ كان قد جند نفسه في مهمة دقيقة لجمع المؤونة لصالح جبهة التحرير الوطني، مترقبا اللحظة المناسبة للالتحاق بإخوانه المنضوين تحت راية الثورة. إنه يعلم يقينا أن عليه أن يتحلى بالحذر الشديد، فالجيش

الفرنسي، يتمتع بتنظيم صارم وشبكة استخبارات واسعة تنتزع الأخبار من كل زاوية وركن، والأوضاع كانت تتغير بوتيرة سريعة غير متوقعة، ومع كل تغيير يولد قلق جديد. كان دحان على قناعة تامة أن الدور المزدوج الذي يلعبه الآن لا يمكن أن يستمر مطولا، لذا بدأ يفكر جديا في أنجع السبل لمواصلة مهمته دون إثارة الشبهات.

أيقظت زوجة الشيخ صفية في حدود الساعة العاشرة وهي تلف جسدها بحايك أبيض، وقد غطت رأسها بوشاح لا يظهر منه سوى وجهها الرقيق، المستدير كالقمر، بعينيها السوداوين الواسعتين. كانت المرأة تحمل صينية عليها كسرة وزبدة الماعز، وإبريق شاي معطر بالنعناع، شعرت صفية بشيء من القلق يساورها، فألقت المرأة التحية قائلة:

— صباح الخير.

— صباح الخير، ردت صفية بنبرة هادئة يشوبها التعب والعي، وهي تستعين بيديها للنهوض.

— هل أساعدك؟ سألت المرأة بلطف وهي تقترب منها.

كان الإرهاق قد نال من صفية، ومشاعرها المضطرمة والمضطربة تتقاذفها بين قلقها على بناتها، والألم الجسدي الذي لم يكن ليبرحها، زد على ذلك الأرق الذي ألم بها طيلة الليل، والسفر الشاق على ظهر البغل الذي نال من قواها. ومع ذلك، فقد كانت زوجة الشيخ التي تبتسم بثقة، وتعاملها بلطف تمدها

بالراحة والطمأنينة وتبعث الأمل في نفسها، فقد كانت امرأة - رغم تقدمها في السن- تنبض حيوية، تمسك بسبحتها وتقلبها بين أناملها، وتسعى في خدمتها.

— بإذن الله، سيكون كل شيء على ما يرام، همست المضيفة بطمأنينة.

غادرت المرأة القاعة، وما هي إلا لحظات حتى دخل دحان، ليطمئن على زوجته:

— هل نمت جيدا؟ هل لا تزالين تشعرين بالألم؟

— أشعر بتحسن عن البارحة، وأشعر بالامتنان لأنني جئت إلى هنا، أجابته وهي تحاول رسم ابتسامة.

كان دحان دائما يحتفظ بنبرته الجادة، وبمسافة ما بينه وبين صفية، على الرغم من كلماته الحانية، أخبرها أن بوترعة قد ذبح العنزة وفقا للتقاليد، ثم أردف قائلا:

— سترين، ستتحسن الأمور بإذن الله، كما تحققت أمنيات الكثيرين قبلنا في هذا المكان المبارك ستتحقق أمنيتنا كذلك.

شعرت صفية برغبة شديدة في الخلوة، فقد سحرها هذا الجو المفعم بالسكون والخشوع، وأحست بحاجتها الملحة للدعاء أكثر والتأمل، لكنها لم تكن في حالة تسمح لها بالسفر مجددا، إذ اشتد عليها التعب، فاضطروا لتمديد الإقامة يوما آخر.

بدت صفية في اليوم التالي أكثر ارتياحا، وقد ارتسمت على محياها ابتسامة خفيفة شعرت من خلالها دحان بالاطمئنان، فسألها:

— كيف تشعرين اليوم؟

— أفضل بكثير، أشكرك على كل ما فعلته من أجلي.

وبينما كانت صفية تتهيأ للمغادرة، سلم دحان الأمتعة إلى بوترعة، الذي قام بتحميلها على ظهر الدابة وجهزها بسرج أكثر راحة، ثم أخبره عن استعدادهما للمغادرة.

— نحن مستعدون للعودة.

— الدابتان نالتا قسطا وافرا من الراحة، حتى أنهما رعتا في البستان أيضا وتدللتا. رد عليه بوترعة ضاحكا.

قبل أن يغادروا، شكرت صفية بحرارة زوجة الشيخ التي همست في أذنها:

— قال زوجي إنك سترزقين بمولود ذكر، ببركة سيدي بلخير إن شاء الله.

— سأكون في منتهى السعادة بذلك، وسأسميه "بلخير"، ردت صفية بامتنان.

ظهر الشيخ في تلك اللحظة، وقد سمع ما دار بينهما من حوار، فأضاف:

— لا شك في ذلك، هذا ما أراده الله!

تمنت حرم الشيخ رحلة موفقة للزوجين، ونصحت صفية بالاعتناء بصحتها. ثم ساعدها دحان على ركوب الدابة، وتحركت القافلة الصغيرة في صمت. كان بوترعة يخطو بثقة على الأرض الوعرة التي يعرفها كما يعرف راحة يده؛ فهو من مربي المواشي الذين اعتادوا على تقلب الفصول، وبإمكانه أن يسير لساعات طوال عبر الأراضي الصخرية دون توقف، وكان دحان يعي جيدا أن صاحبه لم يكن ليهتم بوعورة التضاريس ولا لقساوة الطقس وتغيراته، بل كان محبا لتلك السهوب الواسعة التي عاش في رحابها. لم يتوقف الركب إلا مرة واحدة في منتصف الطريق، حيث ارتاحوا وارتووا من الماء. عندما وصلوا إلى محطة القطار، أخبرهم أحد عمال السكة أن القطار لن يصل قبل ساعتين من الآن. وتعرف أحد عمال السكة على دحان، فسلم عليه، ثم أخرج من جيبه ورقة وتبغا ولف سيجارة بمهارة فائقة وأشعلها، بدا من خلالها جليا أنه رجل جلد خبر الحياة جيدا، على الأقل ذاك ما كانت توحي به أصابعه النحيلة.

وأخيرا، دوى صفير القطار، ووصل يسير الهويني، كان قطارا قادما من بشار، مخصصا لشحن المؤن والوقود إلى الجنوب، وخاليا من الركاب، أشار قائد المحطة على المسافرين بالإسراع في الركوب، وساعد دحان زوجته على الصعود، بينما رفع بوترعة الأمتعة. شكر الزوجان الرجل بإيماءة، وفي اللحظة التي دوت فيها صافرة القطار مجددا كان ذلك إيذانا بالانطلاق اتجاه عين الصفراء، لوح لهما بوترعة مودعا:

— رحلة سعيدة!

أخرج دحان رأسه من النافذة بحذر، وشاهد الرصيف يبتعد تدريجيا، وظل قائد المحطة واقفا هناك في مكانه، يراقبهم بصمت.

غمرت السعادة قلب صفية عندما تخطت عتبة بيتها، وهي ترى بناتها وأهلها من جديد. وما إن حل المساء حتى التف جميع أفراد العائلة، والتم شملها بحضور أخواتها مصحوبات بأزواجهن، وحضور أهل دحان، وشرع هذا الأخير في سرد تفاصيل رحلتهما، وإقامتهما الممتعة في تلك القرية الصغيرة المدهشة، كما حدثهم عن بوترعة الذي أسدى لهما صنيعا لا يمكن نسيانه وقدم لهم الكثير من العون، كما تكلم بمحبة عن الشيخ القائم على ضريح سيدي بلخير، وزوجته الطيبة وكيف خصهم هؤلاء بكرم الضيافة وحسن الوفادة. كانت صفية أثناء حديث زوجها ممددة على سريرها، تسند ظهرها إلى وسادة كبيرة، صامتة معظم الوقت منذ عودتها، مكتفية بمتابعة الكلام بعينيها المشرقتين.

لقد كان بريق عينيها كافيا، لتدرك أخواتها أن الرحلة كانت ذات أثر عميق فيها؛ فبرغم التزامها الصمت وعدم خوضها للكلام، كان وجهها يفيض سعادة واطمئنانا. أجل، لقد كان السفر متعبا وشاقا بالنظر إلى حالتها الصحية، لكنه في جوهره كان مجديا لها من الناحية النفسية والمعنوية، إذ منحها فرصة لتجديد نفسها واستعادة طاقتها. وهذا ما لاحظته حماتها أيضا،

فقد عادت صفية من الزيارة وقد انتقلت من حالة الهم المتصل إلى الأمل المرجو، وتحولت على نحو غريب من ثقل الضغوط التي كانت تكبلها إلى براح الطمأنينة والرضا.

قالت لها إحدى أخواتها:

– تبدين في حال جيدة.

فأجابتها صفية بهدوء:

– لقد أتاح لي السفر فرصة التأمل والدعاء، وطلب بركة سيدي بلخير.

سألتها فاطمة، أختها الكبرى:

– وكيف جرت الزيارة؟

أجابتها:

– ما إن وطئت أقدامنا المكان حتى غمرتنا الراحة والهدوء النفسي، واستقبلنا أناس في منتهى الطيبة والكرم... أتمنى أن تتحقق أمانينا وننال بركة سيدي بلخير.

دخلت حينها أخت دحان إلى الغرفة قائلة:

– سأحضر لكم الطعام... طبق الكسكسي اللذيذ!

وبعد أن فرغ الجميع من تناول الكسكسي، أحضرت الأخت الشاي، بينما كان الأطفال قد خلدوا مبكرا إلى النوم.

في صباح اليوم التالي، وقبل طلوع الفجر، استقل دحان

القطار متجها إلى مقر عمله، نزل عند محطة قرية مغرار الصغيرة، التي تبعد ثمانية كيلومترات عن الورشة، فمضى يقطع ما تبقى من مسافة تفصله عنها مشيا على الأقدام، وكان سيل من ذكريات الماضي يتدفق في ذهنه، وتذكر سنوات هجرته إلى فرنسا؛ حيث عمل لمدة عامين بها وكان راتبه مغريا ودخله مجزيا، لكنه مع ذلك آثر العودة إلى وطنه ليعيش إلى جانب زوجته وبناته، وهو قرار لقي استحسان صهره الذي رأى فيه عين الصواب. ومنذ ذلك الحين لم يعد دحان مجددا إلى فرنسا، بل عمل في إحدى ورشات شركة الأشغال العمومية المختصة في الطرقات بمغرار. ومن مدخراته التي عاد بها من غربته، تمكن من شراء قطيع الماشية ذاك الذي عهد برعايته إلى صديقه بوترعة. وما فتئ أن تذكر يوم اصطحابه لأول مرة إلى ميناء وهران من قبل ابن عمه ليركب الباخرة متجها إلى فرنسا، كانت تلك أول خرجة له إلى مدينة حقيقية. كان معظم أفراد قبيلته، ولا سيما المهاجرين من عائلته، يقيمون في مدينة شامبيري (Chambéry) وضواحيها، وهنالك استقر به المقام وتنقل بين العديد من المهن لكسب قوته، آخرها ورشة لنقل الطرود حيث لمس رب عمله انضباطه وجديته وتفانيه.

ومع نهاية الحرب العالمية، كانت أوروبا، المثقلة بآثار الحرب والمرهقة من قنابل النازية التي دكت عروشها، تلتقط أنفاسها وتتنفس الصعداء عقب استسلام الرايخ الثالث، بينما فرنسا المنهكة اقتصاديا لم تكن لتقوم لها قائمة إلا باستغلال

مستعمراتها، واستقدام اليد العاملة منها. وكان المهاجرون الجزائريون القاصدون المتروبول، ودحان واحد منهم، يحلمون بجني المال الوفير في عقر دار المستعمر ذاته، الذي ينهب خيرات بلادهم وما برح يستغلها بعد أن نزل بجنوده الغاصبين أرضهم. لقد كانت آمال هؤلاء معقودة على قهر الفقر ودفع الذل والهوان الذي يعيشونه في بلادهم في ظل وجود المحتل، فبوساطة ابن عمه، بدأ دحان عمله في الورشة بنقل الطرود الثقيلة على متن الشاحنات إلى المستودعات. وكانت طبيعة هذا العمل تتطلب قوة بدنية استثنائية، مما أوقعه في منافسة مع عامل إفريقي ضخم يدعى مامادو الضخم، كان رجلا ذا بشرة سوداء يبلغ من الطول **1.90** مترا. كان هذا الأخير دائم التباهي باستعراض عضلاته وقوته، وصادف أن وعد رئيس العمال بمكافأة لمن كان أداؤه جيدا، ولم يكن ذلك إلا بدافع المرح وخلق أجواء الضحك والسخرية، فطلب حينذاك مامادو أن يضاعف حمله مما هو مفترض شحنه من قبله، فكان له ذلك، فتمكن بسهولة من إيصال حمله، واعتزم دحان الذي كان يراقب بمعية العمال الأمر أن يخوض غمار المنافسة ردا على وقاحة مامادو الضخم، الذي لم يتحمل الأمر فطلب بمضاعفة الحمل المضاعف أصلا إلى ضعف آخر، ليوصل حمله بكل ثقة، ثم رمق دحان بنظرة ازدراء واحتقار، فثارت حمية هذا الأخير لما أحسه من مساس بكرامته، فطلب أن يضاعف حمله إلى الضعفين لمجاراة منافسه، وأقسم أن يتجاوز ما حمله أضعافا مضاعفة، فاستعان بالله وبركة الأولياء الصالحين (لجدود)

وحمل الشحنة دون عناء وكأنه مصارع روماني، تحت أنظار مؤيديه وزملائه الذين كانوا يشجعونه بحماس منقطع النظير، ليكيد منافسه الذي استشاط غضبا، واحمرت عيناه وكانت تقدحان شرارا، فقد أحس بالإهانة الكبيرة، فيما كان دحان هادئا وكله ثقة بنفسه يحمل في ذاته عزيمة وإرادة قوية، لكسب الاحترام بما يليق ببلده العظيم في أرض المنفى.

لقد كان هذا التحدي بالنسبة لدحان تافها، لأنه لا يجسد سوى تحديا قائما على القوة الجسدية لا غير، ومع ذلك فقد قرر أن يذهب مع مامادو الضخم إلى أبعد حد ممكن ليثبت قدرته وعلو شأنه. مضى مامادو وحمل مرة أخرى ثلاثة طرود على ظهره، فيما حمل الطرد الرابع تحت ذراعه، فبدا عليه التعب والعناء في حمل الطرود الأربع والحفاظ على توازنه، كما وجد صعوبة في الخطو بقدميه، وبدأ يميل يمنة ويسرة مترنحا بشكل مثير للشفقة، ليفقد توازنه ويسقط على وجهه، ما أثار سخرية الجميع، ثم نهض بعدها منكسرا وقد ترك كبريائه مطروحا أرضا. جاء دور دحان الذي اقترب عندئذ من الشاحنة ماضيا في تحديه ومصرا على إثبات ذاته. وعلى مرأى من مامادو حمل دحان على عاتقيه طردين، فيما تذرع الطردين الآخرين واحدا تحت ذراعه الأيمن، والآخر تحت ذراعه الأيسر وأمسك بهما جيدا ،ثم سار محافظا على توازنه بخطى دقيقة ومتأنية نحو وجهته ليضع الحمولة بكل ثقة، يا للروعة لقد تم الأمر!! ونفض دحان الغبار عن يديه بصفقهما وعاد مجددا إلى عمله، لكن ليس دون أن

يرمق مامادو الضخم بنظرة حادة تحمل الكثير وتوحي أن العدو الحقيقي إنما هو عدو مشترك بينهما، وأنه آن لهم أن يعوا جيدا ما هم عليه وأن ينهضوا بكرامتهم التي مسحت بها الأرض، ويثبتوا لهؤلاء المستغلين القوة الداخلية الكامنة في ذواتهم والتي تحركهم جميعا. لم تكن تلك المنافسات في الحقيقة إلا منافسة يريدها الكولون تسلية بل سبيلا من سبل السخرية والاحتقار للشعوب المقهورة والمغلوب على أمرها، والتي ينتمي إليها الأنديجان البسطاء الذين يراقبون المشهد تحت الأنظار والتهديدات لرئيسهم. وبعد أيام، جلس دحان مع مامادو الضخم على فنجان قهوة، في إشارة إلى أن الخصومة بينهما لا محل لها، وأن العدو المشترك خارج حدودهم. بعد عامين، قرر دحان العودة إلى عين الصفراء ليأخذ زوجته وبناته إلى مدينة شامبيري الفرنسية، وقد وجد له عمه هناك، بفضل معارفه، سكنا ملائما قال له العم:

– هنا، يكفيك العمل والجد لتنجح، فالحقوق مصونة، ولا ظلم كما هو الحال في بلدنا.

وعندما عاد، سألته صفية عن تفاصيل حياته اليومية في فرنسا، فقص عليها كيف شيد رب العمل مساكن مهيأة للعمال قرب الورشة، وكيف كان يقاوم الحنين بزيارة مقهى يملكه صديق عمه جوزيف، اليهودي المنحدر من عين الصفراء. لكنه، برغم الراحة النسبية، وجد العيش بعيدا عن الأهل أمرا قاسيا فقاطعته صفية قائلة إن والدها متحفظ على فكرة انتقالها وبناتها إلى

فرنسا، وهي نفسها لا ترتاح لهذه المغامرة. ومع إصرارها، صرف دحان النظر عن الفكرة، وعاد تدريجيا إلى حياة القصر والعمل في الحقول ورعاية المواشي، قبل أن يلتحق مجددا بورشة الأشغال العمومية، ويتدرج حتى صار مسؤولا على مجموعة من العمال والذين يأتمرون بأمر فريق تقني فرنسي في شق الطرقات، مستخدما المتفجرات لشدة صلابة أرض مغرار.

لم يطل الوقت حتى لفت دحان أنظار المسؤولين بمهارته المكتسبة في فرنسا. كان قليل الكلام، وحذرا، يدرك أن اختياره للعمل جاء لخبرته النادرة، إذ لم يكن عدد المتخصصين في تحضير المتفجرات، والسيطرة عليها كبيرا في عين الصفراء. في بداياته، واجه دحان صعوبة التأقلم، شأنه شأن أي عامل جديد تحت المراقبة المستمرة، لكن جديته وكفاءته أكسبتاه احترام من حوله.

كان العمل في الميدان محفوفا بالصعوبات، تبعا لطبيعة الأرض، فبعض المساحات كانت سهلة الحفر، وأخرى، في تلال مغرار الصخرية، تتطلب جهدا مضاعفا وكميات كبيرة من المتفجرات. ومع فترة الاستراحة، كان العمال يخرجون خبزهم وكسرتهم وما تيسر من الزاد، ليستعيدوا شيئا من طاقتهم قبل مواصلة المهمة. كان المشهد أشبه بمصارعين رومانيين يستعدون لنزالهم الأخير، خاصة حين منحهم المهندس أربعة أيام فقط لإنجاز العملية. وقد أنجز دحان ورفاقه مهمات مماثلة من قبل، فنال تقدير رئيس الورشة والمسؤول عن المشروع. ومع

ذلك، كان دحان يعي أن كل هذا الجهد، برغم أهميته، يصب في خدمة اقتصاد فرنسا الكولونيالية، على حساب حقوقهم المهدورة، وهو ما كان يدفعه إلى التفكير مرارا بأن هذا الوضع لا بد أن يتغير، حتى عقد العزم، في إجازة لاحقة، على تحمل مسؤولياته كاملة.

الفصل الثالث

الحرية ضد الاحتقار

بعد أشهر قليلة من زيارتها للضريح، بدأت صفية تشعر بثقل جديد في أحشائها، وتشكو آلاما متزايدة في جسدها على غير العادة، لقد أضحى هذا الحمل متعبا؛ حيث أنهك جسدها وخارت بسببه قواها، ما دعاها إلى لزوم الفراش والبقاء مستلقية على السرير يوميا لساعات طوال، بل وطيلة الأسبوع، كان ذاك ما أسرت به لأختها، لكنها لا تنفك تدعو أن يكون جنينها ذكرا متيمنة بزيارتها للقبة، وملتزمة بوعدها أن تسميه باسم الولي الصالح سيدي بلخير، فذاك عهد قطعته على نفسها، وستوفي نذورها بإخراج الصدقة كل سنة وترسلها إلى الشيخ القائم على الضريح كما جرت به العادات والتقاليد في المنطقة.

ذات يوم أدركت زهرة أخت دحان التي لزمت صفية في المرحلة الأخيرة من حملها، أن موعد ولادتها قد حان وأن فترة حملها قد اكتملت حينما شعرت بانقباضات وآلام في بطنها، لقد بات وضع مولودها الجديد وشيكا، لذا هرعت إلى خالتي فاطمة قابلة حي القصر، تطلب مساعدتها ومرافقتها، كانت خالتي فاطمة امرأة نحيفة الجسم لكنها صلبة وقوية، ذات عينين لامعتين ببريق يوحي بعمق التجربة والخبرة في الحياة، وتبدو أكبر من سنها بكثير، ربما يعود ذلك لما تمتهنه، كما أنها تعيش بمعية أولادها الثلاث فهي التي تعولهم، ولها علاقة وطيدة مع الأخوات البيض اللائي تزورهن بانتظام من حين لآخر لاكتساب بعض

المهارات في التمريض ومساعدة نساء المنطقة على الولادة. لفّت خالتي فاطمة رأسها بقطعة قماش قطني ثم ابتسمت في وجه زهرة، بعد أن قرأت ملامحها وأدركت على الفور سبب قدومها قالت بهدوء:

- صفية؟ فهمت... انتظريني، سأحضر أغراضي وألحق بك حالا.

وما هي إلا لحظات حتى زفت إليهم جميعا نبأ قدوم المولود الذكر، وانتشر الخبر سريعا بين الأهل والأقارب والجيران تبعا للعرف والتقاليد، وتوقعت الأسرة أن يعج البيت بالمهنئين من الأقارب في أي لحظة، أما دحان فلم تسعه الفرحة مذ بلغه خبر المولود المنتظر، كان يعيش سعادة غامرة لم يعرف لها مثيلا منذ دهر.

بعد مرور سبعة أيام من ميلاد الطفل، أقيم حفل السبوع كما تقضي به العادات، وتمت تسمية المولود باسم الولي الصالح بلخير، التزاما بالعهد وإنجازا للوعد، وعج البيت بالزوار، وامتلأ عن آخره بالمدعوين منهم والمتطفلين غير المدعوين، لتقديم التهاني ومشاركة الأسرة أفراحها، واتخذ كل واحد منهم مكانا له في الحجرة الكبيرة، والفناء والسلالم، وحتى الحجرة المصرية كان لها نصيب من الضيوف الذين اتخذوا فيها مجلسا، وتعالت الأصوات ممزوجة بالضحكات والقهقهات التي تنم عن الفرح من قبل بعض الحاضرين، ممن اختاروا تجاذب أطراف الحديث خارج البيت، أما دحان فقد كان يختال بينهم وابتسامته لا تشبه

ابتسامة أي يوم مضى، تغمره سعادة لا مثيل لها، ومن جهتها كانت صفية تعيش فرحة مضاعفة فقد تهلل وجهها وأشرق، لاسيما وهي ترى زوجها يصول ويجول متباهيا وتسمع ضحكاته المجلجلة، وترى بيتها قد ازداد بهاء وازدان فرحا وسرورا.

تعافت صفية بعد شهر من ولادتها، وازدادت نحافة وهزالا، غير أنها كانت تعيش أسعد لحظاتها في حضور زوجها الذي لا يزال يعيش فرحته بالمولود الذكر الثاني الذي يضاف إلى بناته، لكن إحساسا ما كان يعكر صفوه ويسلب راحته ويشعره بالقلق، أما هي فقد كانت تدرك أنها لن ترى زوجها في الأيام القليلة القادمة، فالأحوال كانت تزداد تدهورا خاصة عقب التحاق جل أصدقائه إلى صفوف الثورة بالجبال. حدس الزوجة جعل صفية تحس بقلق زوجها وعدم ارتياحه، كان الجو دافئا حينما سألته وهو يذكي الجمرات المتبقية في الموقد، ويضيف إليها بعض الأغصان والحطب، وينفخ فيها نفخا خفيفا بين الحين والآخر:

- تبدو قلقا للغاية!

- أنا؟؟

- أجل ! أنت، تبدو قلقا على غير عادتك!

- لا.. أنا أفكر فقط!

- لا هذا ليس مجرد تفكير، بل ثمة ما يشغل بالك.. أنا متأكدة من ذلك.

أعجب دحان بفطنة زوجته وذكائها، وكيف أنه كتاب مفتوح

أمامها، فمن ملامحه تستقرئ ما يجول بداخله.. أردفت قائلة:

هل تواجه مشاكل؟ سألته والقلق يتملكها

- في الحقيقة.. أجل.

- هل ثمة خطورة في الأمر؟

- قد يكون الأمر كذلك.

- ألا تريد أن تسر لي بما يشغل بالك ويقلق راحتك؟

- كلا، ليس الآن.

أطلقت صفية تنهيدة من أعماق قلبها تشي بالكثير، فهي التي تعرف زوجها جيدا، هو رجل كتوم ولا يتحدث كثيرا، لقد كانت على دراية تامة بانضمامه السري إلى صفوف الحركة الوطني، ولكن ماذا هناك غير ذلك، أسرت في نفسها؟

- هل يمكنني مساعدتك؟ أضافت صفية.

- لا لا يمكنك ذلك، رد عليها دحان، لكن لا داعي للقلق سأجد حلا حتما.

- كيف لي أن لا أقلق؟؟!

- لا تشغلي بالك، ليس هنالك ما يقلق.

ارتشف رشفة شاي ثم التفت إليها محاولا طمأنتها:

- أنصتي إلي جيدا، في الوقت الحالي لا يمكن أن أسر لك بشيء، فالأمر في غاية التعقيد على الأقل بالنسبة إليك، ولكن

تأكدي أن كل شيء سيكون على ما يرام.

في الزوال حضّر دحان نفسه لمقابلة صديقه عبد القادر الذي كان يعمل حدادا، وله محل بأحد الأزقة العتيقة بحي القصر، ألقى دحان التحية عليه، وما إن دخل حتى دار بينهما حوار مقتضب:

- هل لديك أخبار عن بغداد؟ هل لا يزال متواجدا هنا؟

- بالأمس كان هنا؟ ولكن أظنه سيعود اليوم، أخبره عبد القادر.

وما هي إلا لحظات حتى دخل عليهما بغداد فجأة، كان يرتدي سروالا أسودا وسترة رمادية، ويلف رأسه الأمرد بقطعة شاش، عانق دحان بغداد بحرارة.

- تبدو في أفضل حال حينما تعود إلى هنا قال بغدد. بالمناسبة كيف حال مولودك الجديد؟

- في حالة جيدة وأمه تكاد تطير فرحا به.

بعد الحديث الحميمي الذي دار بين الأصدقاء مروا إلى الأمور الجدية، وقرروا عقد لقاء عاجل هذا المساء لضبط ما يتعلق بالمهام الموكلة إليهم، والعمليات الهامة التي ينبغي أن يقوموا بتنفيذها، حسب ما أملته عليهم القيادة الخاصة بجيش التحرير الوطني. وهو يغادر المحل كان يخالج دحان إحساس ينبئه أن حياته ستنقلب رأسا على عقب، ولعل هذا الإحساس ازداد عمقا لما لاحظه من جدية وحزم غير مألوفين على صديقه بغداد.

غادر دحان محل الحدادة متجها صوب السوق، أين أقتنى فستانا لزوجته وكسوة للرضيع قبل أن يعود إلى البيت، وهو يخطو خطواته نحو بيته لم يكن يفكر سوى في المستقبل الغامض والمجهول الذي ينتظره، وما إن تخطى عتبته حتى أسرعت إليه بناته واستقبلنه بحفاوة، أما هو فقد امتدت يده بحنو لصفية وهو يقدم لها هديته التي ملأت قلبها سعادة، استشعرت من خلالها مدى الحب والمودة التي يكنها لها زوجها.

وفي وقت لاحق من ذلك المساء، التقى دحان بأصدقائه كما كان اتفاقهم، ووفقا لمخططهم المسبق، في البداية التقى ببغداد خارج المسجد؛ حيث خاطبه بنبرة تحمل الكثير من الجدية والقلق:

- دحان، لقد صدر قرار بالمرور فورا للعمليات العسكرية ،لقد انتهت مهمتك هنا، الجبهة بحاجة إليك في الجبال، وكذلك هو الأمر بالنسبة لي، هنالك سيشرحون لنا ما الذي ينبغي علينا القيام به، سنلتحق بالجماعة غدا عند حلول الفجر.

- جيد، علينا أن نجمع كل الأغراض في بيتك، ونحمّل بغلين، بغل عبد القادر وبغلي بالمؤونة لنقلها.. قال دحان.

حينما عاد إلى بيته اختلى دحان بزوجته وانعزل بها عن البقية ليكلمها في الموضوع، وبصوت خافت قال:

- كما تعلمين نحن في حالة حرب والوضع في عين الصفراء لم يعد مطمئنا كما كان إلى وقت قريب، لن يطول الأمر حتى يكشف

العدو أمري، ولم يعد ممكنا أن أتخفى تحت غطاء الدور المزدوج الذي لعبته لفترة طويلة، لذا عليّ أن التحق بإخواني في الجبال وبأسرع وقت ممكن، أظنك تدركين جيدا ما أقول.

عقدت الدهشة لسان صفية واستولت عليها الصدمة وأصيبت بالذهول، ولم تتمكن من التلفظ ولو بكلمة واحدة، وكانت عيناها الكبيرتان شاخصتان، ووحده بريقهما كان يعكس هول الأمر وحجم الذعر الذي انتابها، أشفق عليها دحان وكلمها بحنان محاولا التهدئة من روعها:

- لا تخافي هناك بالجبل سأكون بأمان وسط إخواني.

شعرت صفية برجفة تلتها قشعريرة سرت في جسدها، وتمكن منها الخوف وتملكها. واصل دحان كلامه وكأنه في جلسة اعتراف:

- أوصيك بالأبناء خيرا، أمي ستكون دائما إلى جانبك ووالدك حتما سيكون لك سندا... لا تخبري أحدا بما أسررت به لك، فالأمر في غاية الخطورة! أعتمد عليك، ولتعلمي أنك منخرطة أيضا في هذه القضية، وستساعدينني بشجاعتك ورباطة جأشك.. (ما غاديش ننساكم) سأتذكركم باستمرار ..

قضى دحان وزوجته تلك الليلة كأطول ما تكون عليه الليالي وسط ظلام حال، وصمت رهيب تقطعه أنفاسهما أو بعض التنهدات التي تحمل ألما وحسرة تعتصر قلبيهما، ولكن ما باليد حيلة فلقد سبق السيف العذل.

في الغد طرق بغداد الباب وغادر الصديقان على عجل، كانت صفية تراقبهما وقلبها يخفق بشدة، والعبرات تخنقها وبقيت كذلك حتى تواريا عن الأنظار. لطالما كانت الجبال معقلا للثوار والشجعان، لذلك تعتبر بشكل ما طريقة يثبت بها الرجل ذاته وقوته للآخر.

على مرتفعات جبل مكثر الذي يبعد ببعض الكيلومترات عن حي القصر، اتخذ المجاهدون لأنفسهم مخبأ وملجأ طبيعيا للاختباء فيه، وهو جالس على صخرة كبيرة بعرعار مركز المراقبة الأول الذي يبعد بساعتين عن حي القصر، كان دحان يفكر مليا في حاله ثم عاد بذاكرته للماضي في حنين لذاك الطفل الذي كان عليه وهو مراهق، كانت هذه العودة النوستالجية كافية لتسحب شريط ذكريات طفولته البائسة، فقد شب يتيما لا يتجاوز التسع سنوات من عمره حينما غادر والده مبكرا، تاركا تحت مسؤوليته أمه وثلاثة إخوة وأختا.. صارع فيها الحياة وأثبت ذاته وتحمل مسؤولياته رغم ثقلها..

- لقد صنعت نفسي بنفسي، فكر قائلا بحزن وبصوت مسموع.

فجأة تذكر كل الظلم الذي عاشه والمحن التي اجتازها قبل أن يهاجر مرغما إلى فرنسا ،لن ينسى الموقف الذي تعرض له على يد "قايد القصر" وأتباعه، في سنوات المجاعة والجفاف الذي عم عقب الحرب العالمية الثانية؛ حيث كانت الحياة جد صعبة، ولا يكاد المرء يجد ما يسد به رمقه، ومن حسن حظ دحان أنه

كان يمتلك (جنان) بستان ورثه أبا عن جد بمنطقة السوارق، فقرر أن يزرعه سرا بالبطاطا وأن لا يطلع على الأمر أحدا مخافة أن يكتشف القايد وأعوانه ذلك، وبعد مرور أربعة أشهر من الكد والعمل المتواصل ،أتت الأرض أكلها، واستوفى دحان محصوله من غلتها، وحمل أولى حبات البطاطا بفخر لزوجته قائلا:

- أنظري إلى ما جادت به أرضنا.. غدا سأحاول إخفاء الغلة حتى لا يراها من حولنا من الجيران، فينقلون الخبر إلى القايد الذي سيصادرها حتما كما صادر باقي الغلال.

- نعم، لا بد من الحرص والتكتم وإلا كانت العواقب وخيمة. عقبت صفية.

اجتهد دحان في اليوم الموالي في جمع المحصول، وعكف على إخفاء حبات البطاطا بعناية الواحدة تلو الأخرى في حفرة عميقة هنالك، حتى لا يراها أحد من اللصوص المحتملين أو عيون القايد المنتشرين بصفته ممثلا للسلطة الكولونيالية.. تساءلت صفية:

- أمتأكد من أن الغلة في مأمن داخل هذه الحفرة؟.. أرى أنه لا يمكن الاطمئنان عليها إلا إذا أخفيناها بالبيت. ثم راح دحان يحدث نفسه قائلا:

- هذه البطاطا منتج فاخر حقيقة، لا يمكن أن أغامر به أو أتهاون في إخفائه، خاصة في ظل المجاعة القائمة ،لقد أكل بعض الناس الجراد فقط ليبقوا أحياء، أما المحظوظون منهم

فيسجلون في قائمة من لهم حق الاستفادة من المؤونة، التي تمنح لهم من قبل القايد متى ما كان مزاجه رائقا! وإذا لم يكن نال منهم الجوع كالبقية إلى أن يستعيد ذاك الحقير مزاجه..

بعد أن فكر مليا هتف دحان قائلا:

- ربما أنت محقة، سأخفيها بفناء البيت، هناك.. ستكون بلا شك في مأمن.

اتفق الزوجان على ذلك، وفي الغد الموالي قام دحان بإخراج البطاطا من الحفرة الأولى وتحميلها داخل أكياس، ثم قام بطمرها في الفناء كما اتفق الزوجان مسبقا بوصفه حلا ذكيا، وقدرت الغلة بأربعة أكياس ممتلئة عن آخرها! إنها ثروة لا تقدر بثمن وكنز لا مثيل له! في ظل المجاعة وقلة المؤن. لا يزال دحان يتذكر صورة صفية التي بدأت بالحفر متعثرة، فتقدم إليها ونزع من يديها المجرفة قائلا:

- أحكمي إغلاق الباب! وشرع في الحفر والعرق يتصبب.

كانت صفية تسمع إيقاع أنفاس زوجها المنتظمة وهو يحفر في فناء البيت، وكان يتوقف من حين لآخر ليفرك يديه بعضها ببعض قبل أن يواصل الحفر.

- الأرض صلبة هنا والحفر صعب للغاية على عكس ما كنت أعتقد، كان عليه استخدام الفأس بدل المجرفة منذ البداية حتى تسهل العملية، قال دحان.

أخيرا أنهى الحفر وخرج من الحفرة وهو ينفض الغبار

المستقر على كتفيه.

- ليست الحفرة عميقة بما يكفي لكنها ستفي بالغرض.

تعاون الزوجان في إنزال أكياس البطاطا الأربع لتستقر في الحفرة، ثم أهال عليها دحان التراب والرمل باستخدام المجرفة حتى غطاها كلية تقريبا، لتأخذ صفية مكانه وتستكمل ما تبقى، فيما جلس هو غير بعيد ليرتاح قليلا، وحينما أنهت صفية تسمرت واقفة في مكانها والإعياء باد عليها، بعد أن غرست المجرفة على الرمل ثم خاطبت زوجها بارتياح قائلة:

- يبدو الردم تاما هكذا.

- نهض دحان من مكانه وبدأ يرفس الرمل بقدميه ليسوي الحفرة، بما لا يجلب الشك، وراح يزيل آثار الحفر ما أمكن حتى لا تلفت انتباه الزوار. لا يزال يتذكر الفرحة العارمة التي أحس بها بعد هذا الإنجاز، الذي يمكنه من الحفاظ على حياة عائلته.

- أنا في منتهى السعادة بل هذا أسعد يوم في حياتي، كم أنا مرتاح.. الآن فقط بإمكاني أن أنام قرير العين. قال دحان ذلك وكله رضا عن نفسه.

كانت الضحكات تتعالى من الغرفة المجاورة منبئة عن فرحة لا متناهية، والأطفال أشبعوا جوعهم وتأكد لدحان أنهم استمتعوا بأكلهم.

سأجلب لك الغداء قالت صفية التي عادت بعد لحظات ووضعت الطبق أمام دحان، الذي شرع في الأكل بلذة واضحة.

- ماذا يوجد في الحساء؟ إنه لذيذ جدا. قال دحان

- البطاطا

أكل الاثنان بصمت وكان دحان محبا للكسرة، أخبرته صفية أنها حضرتها بنفسها كالمعتاد وطهتها في الفرن التقليدي.

عاشت العائلة ثلاثة أيام من الرخاء وفي جو يعمه الهناء. وبالموازاة كان لدحان مشاريع كثيرة بخصوص هذا المحصول الوفير الذي سيضمن له قوت سنة كاملة، كما أنه سيأخذ جزء منه إلى السوق خفية لبيعه سرا. كان ذلك يشعره بأنه في أحسن حال، لكن هذه الفرحة لم تدم طويلا، إذ أنه في صباح اليوم الموالي سمع طرق قويا على الباب، ثم صياح من قبل أحدهم.

- افتحوا الباب! وإلا حطمته!

أسرع دحان نحو الباب وفتحه إنه القايد مرفقا برجلين من أتباعه.

- جئنا نبحث عن البطاطا.. قال أحد الرجلين بينما بقي القايد واقفا خلفهما متكئا على عكازه في كبر وأنفة.

- ليس لدي بطاطا.. القليل الذي كان بحوزتي استهلكناه.. قال دحان

سنتأكد من صحة كلامك قاطعه القايد

انطلق الرجلان وشرعا في تفتيش الحجرات الثلاث والفناء وحتى البئر، وفجأة لاحظ أحدهما آثارا بادية على التربة توحي بما

يشبه الحفر فنبه القايد إلى ذلك مشيرا عليه:

- سيدي سنحفر هنا!

أمر القايد دحان بالحفر، كانت ضربات خفيفة كافية لتبدي ما كان مخفيا، وسرعان ما انكشف السر وظهرت أكياس البطاطا المكومة.

- ألا تستحي من الكذب؟! ستدفع ثمن ما أقدمت عليه غاليا.. أنتما مشيرا إلى تابعيه، هيا، قوما بتحميل هذه الأكياس كلها وبسرعة،.. صاح القايد آمرا.

- ولكن هذه البطاطا هي قوت عائلتي حفظتها هنا من أجلهم.. لا أحد منهم يملك عملا.. قال دحان محتجا وبصوت منخفض.

- تعلم جيدا أن هناك ندرة كبيرة في المواد الغذائية وأنت تخفيها وتعمل عمل المهربين؟؟! واصل القايد متوعدا دحان، القانون يمنع ذلك وستتابع قضائيا وستعاقب!

كانت صفية زوجة دحان وأخته وبناته داخل المطبخ مذعورات يتابعن ما يحدث.

قام الرجلان بعملهما القذر وصادرا المنتوج، فلم يكونا لينصتا إلا لأوامر قائدهما، وأمام هذا الظلم وهذه الخيبة الكبيرة عم البيت صمت رهيب وحزن عميق.

تم شحن الغلة المصادرة بسرعة من قبل أعوان القايد على

ظهور البغال، ورحل الزوار غير المرغوب فيهم، وبقي دحان يراقب رحيلهم متحسرا على جهده الذي ذهب سدى، وقوت عياله الذي أخذ ظلما، راقبهم إلى أن اختفوا في آخر الزقاق كأن الزمن قد توقف به.

استولى اليأس الشديد على دحان وتملكه الحنق والغضب من الظلم الذي وقع عليه وعلى أسرته، حتى أنه أحجم عن الذهاب إلى البستان في اليوم الموالي للحادثة، ولم يتمكن أحد من إقناعه باستئناف نشاطه، إذ ما الجدوى من ذلك طالما أن ثمرة الجهد تحجز وتصادر بغير وجه حق، وما الفائدة من العمل أصلا في ظل الظلم. وما زاده قهرا هو أنه لا يستطيع فعل شيء حيال ذلك، وليس له الحق في متابعة القايد، أو حتى في تقديم طعن فيما أقدم عليه من سيقصد؟؟ ومن الذي سينصفه؟؟ لا أحد!!.. فكلهم على الشاكلة نفسها.. طغاة متجبرون! ولصوص رسميون! لم يكن يهمه من الأمر الآن سوى أن يجد سبيلا للهجرة بعيدا عن هذا المكان الخانق الذي استشرى فيه الظلم والعدوان. كان دحان قلقا إزاء حالة عائلته المادية، وضاقت به الدنيا بما رحبت، كيف له أن يكسب قوته وقوت عياله وأهله؟! لقد أضحى مفرغا من أي إحساس، لا يشعر سوى بالغضب العارم والحقد الشديد على من تسببوا بمأساته ومأساة الآخرين، لم يعد يهتم لأي شيء سوى أن يجد سبيلا للهجرة، ويتحين الفرصة يوما ما لينتقم من الأعداء.

يبدو أن سيل الذكريات المأساوية لن يتوقف، عاد دحان

مجددا بذاكرته ولكن هذه المرة إلى الفترة التي أعقبت عودته من فرنسا، حينما كان يتجول في أحد الأيام بـ (الفيلاج) المدينة فلمحه الباشاغا الذي اعتاد الجلوس على كرسي أمام باب مكتبه، وهو يرتدي أحسن الثياب وبدا بهندام نظيف، وتساءل في ذاته كيف لأحد سكان حي القصر الفقراء المعدمون أن يلبسوا مثل هذا اللباس، فما كان منه إلا أن أمر أعوانه لاستدعائه وتكليفه بجلب الماء من بئر عين السبتي الكائنة بالقرب من قبة سيدي عبد الله بحي القصر، وهي عين اشتهرت بعذوبة مائها وحلو مذاقه، وتبعد عن المكان بحوالي كيلومتر، فاقترب منه أحد الأعوان وأمره قائلا:

- أنت تعالى معي! اتبعني!

تبعه دحان دون أن يفهم شيئا مما يحدث، دخل العون إلى المخزن وسلمه قربة مدهونة بالقطران ذو الرائحة القوية النفاذة والفريدة من نوعها، وما فتئ أن دخل خلفهما رجلان آخران ينظران إليه شزرا كأنما ينتظران ردة فعله للتدخل ،سأله أحدهما ساخرا:

- ترتدي سروالا جميلا يا هذا؟!

تدخل صاحب المخزن وأمره بكل فظاظة:

- خذ املأ القربة ماء، وإلا سيغضب الباشاغا!

اندهش دحان من هذا الموقف المهين، وأراد أن يصرخ بملء فيه أنه لا يأتمر بأوامرهم، وليس تحت رحمتهم ولا تحت

تصرفهم، لكنه آثر التزام الصمت، لا يقوى على النطق بكلمة واحدة، فقد شلت قسوتهم حركته وعقدت لسانه.

سار دحان منكسرا ومقهورا مجبرا على جلب الماء، ولم ينتهي من ذاك التكليف القسري الشاق إلا عند وقت الزوال، حينما وضع آخر قربة ملفوفة بالخيش المبلل والتي ملأها بماء المنبع، كانت ثيابه متسخة تفوح منه رائحة العرق والقطران، وكان منهكا وجائعا ومهانا. فهم دحان آنذاك أنه لا ينبغي له ولأمثاله من سكان حي القصر وعامة الناس من الأنديجان البؤساء ارتداء الملابس النظيفة والذهاب بها إلى (الفيلاج) المدينة، وقرر أن لا يعيد الكرة أبدا طالما ظل الوضع قائما على ما هو عليه.

بعد تلك الحادثة عرض على دحان الانضمام سرا إلى صفوف الحركة الوطنية المناضلة ضد الاحتلال الكولونيالي القائم من قبل أحد أقاربه، فوافق على الفور، لقد كان همه كيف يقتنص الفرصة للانتقام من القايد عديم الرحمة والإنسانية، ومن الباشاغا المتغطرس ومن كل أعوانهما من الخونة الذين أمعنوا في إذلاله وإهانته، فكانت نار الانتقام والثأر لكرامته تتأجج في نفسه، وتزداد لهيبا تكاد تحرق قلبه من قوة الرغبة في ذاك الانتقام، الذي يبقى مؤجلا إلى حين، فما أقسى ما تعرض له الناس من ظلم وجور الباشاغا ذاك المتعجرف الذي لا يرحم أحدا، حتى أن البدو حين يسمعون الذئاب تعوي كانوا يحسدونها على اعتبار أنها الوحيدة التي تتمتع بالحرية في ظل جرم الباشاغا، فيرددون دائما مقولة أضحت مثلا "عوق يا الذيب غي انت اللي

راك حر من يد الباشاغا امّا حنا الله غالب علينا".

وما إن قدم بغداد حتى أخرج دحان من عالمه الخاص ليعيده إلى الواقع، ضم هذا الأخير صديقه ودعاه للجلوس، لينعم بدفء الجمر المحمر الذي وضع عليه إبريق الشاي. لقد عكف دحان ورفاقه في هذه الفترة لنقل الحنق والغضب والتمرد على المحتل وعصيانه إلى الشباب؛ لحملهم على الالتحاق بجيش التحرير الوطني ودعم الجبهة، فقد عانى هؤلاء جميعا من وضع بائس ومهين أجبرهم عليه الاحتلال الغاشم، لذا لبوا نداء الوطن دون تأخر، لأنهم اقتنعوا جميعا أن تغيير مصائرهم لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الثورة، فانضموا إلى إخوانهم المجاهدين في الجبال، وإزاء التجنيد المتزايد للشباب، جاءت ردة فعل عساكر جيش الاحتلال عنيفة، دفع ثمنها السكان الفقراء العزل، الذين تعرضوا للقمع بكل وحشية، ولم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة، وكانت حملة الاعتقالات في صفوفهم واسعة، وتم أسر العشرات منهم ودون أدنى تمييز، حتى أن النساء لم ينجين من حملتهم المسعورة.

عقب أسبوع من التحاق دحان بالمجاهدين بالجبل أتى ثلاثة جنود يجرون رجلا مقيدا وينزف فمه دما، طرقوا باب بيت دحان طرقا شديدا، ثم انبرى أحدهم مباشرة إلى دفعه وفتحه بالقوة، ثم أمر زميليه بتفتيش البيت، كانت صفية في هذه الأثناء تحضر الكسكس، وما إن دخل الجنود حتى نهضت مسرعة وحملت بلخير الذي شرع في البكاء دون توقف، وارتعبت البنات، سألها

الجندي.

أين زوجك؟

- إنه في العمل، ردت عليه.

- كاذبة؟؟!! بل التحق بالفلاقة وصعد إلى الجبل، تكلمي مع من ذهب ومتى؟؟ وماذا أخذه معه؟؟!!.. حتما أخذ كمية من متفجرات الورشة؟ تكلمي..

انتشر العساكر بعدها كالجراد في البيت ليرعبوا كل من بداخله من طريقة التفتيش العنيفة، والتكسير وتحطيم ما هو موجود، وإلقاء والمواد الغذائية التي كانت صفية تحرص على حفظها وادخارها لأيام المجاعة، وإزاء ذلك المشهد المرعب وما كان يحدث لم تجد صفية بدا غير البكاء والصراخ في وجوههم، شعر الضابط المسؤول عن عملية التفتيش بخيبة أمل كبرى حينما لم يعثر العساكر على شيء، فخرج متململا وهو في منتهى الغضب والحنق، فأمر معاونيه بإلصاق ملصقات على الأبواب تلزم السكان بالتبليغ عن الخارجين عن القانون، وراح العسكريان يثبتان الملصقات الترهيبية بكل عنف باستخدام المطارق وبالضرب على الأبواب كأنهم يقتلعونها، يحذرون فيها من التعاطف مع المتمردين، وقبل الانسحاب تم تكليف بعض العساكر بالحراسة وردع السكان، وتبليغ القيادة العسكرية بأي تجاوز محتمل.

في هذه الأثناء كان الطاهر ذو السادسة عشرة من عمره يراقب

من بعيد، ورأى العساكر متجهين إلى منزل دحان فأدرك الخطر المحدق، وجرى على جناح السرعة إلى الجانب الآخر من حي القصر ليخطر دحان الذي كان في مهمة تجنيد وتموين بالمنطقة، وبعدما بلغه الخبر لف المؤونة المحصلة وغادر المكان بأسرع ما يمكن باتجاه قاعدة جبل مكثر، وبعد أيام قليلة من الحادثة التحق الطاهر بصفوف المجاهدين هو الآخر.

الفصل الرابع

الهروب من الانتقام

بعد أن أغلقت جميع المنافذ المؤدية إلى ساحة "باب الكبير"، اقتحم رتل من العساكر المدججين بالسلاح الساحة، وحاصروا سكان حي القصر الذين أضحوا لا مفر لهم، وبدأت عمليات الاعتقال الجماعي بكل عنف ووحشية؛ حيث تم جمع الرجال على ركبهم وأجلسوهم أرضا وسط الساحة، فيما تم عزل الشباب الذين هم في سن حمل السلاح جانبا، وكان عمر واحدا منهم. كان السكان يعيشون أسوأ لحظاتهم يكتمون أنفاسهم، وفرائصهم ترتعد من شدة الخوف لما سيؤول إليه الأمر، فكل شيء متوقع مع هؤلاء الجبناء، فقد يتحول المشهد إلى صورة أكثر دموية وعنفا فهم لا يعرفون رحمة ولا شفقة.

ضمّت صفية رضيعها الى صدرها أما بناتها فكن إلى جانبها يرتجفن من رعب المشهد وهول المنظر، ولم تكن تقل عنهن خوفا وارتعابا، لأنها تدرك في أعماقها أن هذا المشهد سيتكرر كثيرا ولن يكون الأخير. كانت حماتها إلى جانبها تهمس بالدعاء المتواصل لابنها الذي التحق بالثورة، وتعلم في قرارة نفسها أن ابنها الآخر سيسير على خطاه، وأنه على وشك اللحاق به أيضا، وعلى الرغم من مصابها الجلل وحزنها العميق وخوفها مما هو آت، إلا أنها تماسكت بشجاعة وجلد، محافظة على كرامتها وما تبقى من صبرها.

اقتيد العديد من الرجال بعد ذلك إلى الثكنة، لاسيما الشباب منهم؛ حيث بدأ فرزهم، أما من تم الاشتباه بهم فيحولون مباشرة إلى مركز دزيرة للاستنطاق والتعذيب. في حين يقتاد الباقون مباشرة إلى الحدود لنصب الأعمدة على خطوط الأسلاك المكهربة.

بعد أيام قلائل من الحادثة، سمع طرق على باب بيت صفية. أسرعت ابنتها لترى من الطارق.

– أمي! إنه جارنا.. العم بوتخيل.

– أنا قادمة، أمهليني حتى أغطي رأسي ردت صفية.

كان العم بوتخيل، يعمل فلاحا، على غرار باقي سكان حي القصر، ويبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة فقط.

– سلام، كيف حالكم؟..

– بخير، شكرا، ردت صفية.

– يجب أن أكلمك في أمر خطير، قال الزائر بجدية.

– تفضل، قالت على عجل، ظنا منها أنه يحمل أخبارا عن زوجها.

قال بوتخيل بصوت منخفض لكنه جاد:

– علينا القيام بإجلائك وبنقلك إلى الحدود المغربية، هناك ستكونين في مأمن مع أطفالك، السلطات العسكرية تبحث عن دحان وتتهمه بسرقة مواد متفجرة، حتما لن يتركوك وشأنك،

وقد يكون رد فعلهم قاسيا جدا ووحشيا هذه المرة ولن يرحموك! خلافا للمرة السابقة. عليك أن تتهيئ سريعا للرحيل..

– وكيف سيكون الرحيل؟ ومتى؟ ردت صفية بارتباك.

قال لها بوتخيل بهدوء حازم:

– تغادرين غدا عند المساء؛ حيث سنلتحق بدحان بجبل مكثر، على بعد أربع ساعات مشيا على الأقدام.

ردت صفية بتردد وقلق كبيرين:

– لكنني غير مستعدة.. علي أن أجهز أغراضي التي لم أحضرها بعد، وأودع أهلي ووالدي وأخواتي، و..

أجابها بثبات:

– لا ضير من ذلك زوري أفراد عائلتك وودعيهم، ولكن احذري أن تثيري الشكوك، كوني طبيعية قدر الإمكان. ولتعلمي أن الإدارة الاستعمارية لا ترحم، وعملاؤها من الخونة في كل زاوية، إن لم يحط الأمر بسرية تامة، قد يجهض كليا، لذا ينبغي توخي الحيطة والحذر ما أمكن. أما بشأن الأمتعة، فاقتصري على ما هو ضروري، إذ لدينا بغلان فقط، مخصصان لك ولأبنائك وأغراضكم.

– نعم.. هو كذلك.. ردت صفية

تابع بوتخيل بنبرة أكثر جدية.

- يوجد بحي القصر مكانان ينبغي الحذر منهما دائما الأول يقع

عند مخرجه، أما الثاني فيتمثل في مركز مراقبة عسكري عند البوابة المؤدية إلى البساتين؛ حيث يكون التربص بحركة السكان وتفتيشهم بشكل مكثف. أما على الطريق المؤدي إلى دزيرة فهنالك نقطة تفتيش ثابتة، يكفي أن يذكر اسمها حتى تقشعر الأبدان؛ إنها مرادف لمركز التعذيب الدزيرة الذي يعرفه الجميع رجالا ونساء على السواء، وهو مخصص للتعذيب والتنكيل بكل من يقدمون الدعم لجبهة التحرير الوطني.

تغيّرت ملامح بوتخيل وهو يواصل.

- ما يحدث في هذا المعتقل لا يخطر على البال، ففيه تطلق الكلاب الهائجة على المعتقلين وهم عراة، وتضرم النار في شعورهم بعد رشها بالكحول. كما يتعرض الموقوفون لأبشع أساليب التعذيب وأكثرها وحشية على يد جلادين فقدوا الرحمة، بل وكل ما له صلة بالإنسانية. فلكل واحد منهم طريقته وهوسه الخاص في الإذلال والتعذيب، ما يفضي غالبا إلى الموت المحتوم. ففي الفترة ما بين **19** أوت و**21** سبتمبر **1960** لوحدها، مات ما لا يقل عن ستة عشر شخصا تحت تأثير التعذيب، ولم يعرف مكان دفنهم إلى يومنا هذا.

منذ أن تم بناء هذا المركز في ذاك الموقع الاستراتيجي تحديدا والمنتقى بعناية، أضحى تنقل المجاهدين والمسبلين بين جبل مكثر وحي القصر أمرا بالغ الخطورة، ومن الصعب اجتياز المنطقة المذكورة، كما أن دعم السكان، والمساعدات التي يتم إرسالها من قبل أفراد المنظمة المدنية، لا يصل منها إلا القليل،

وبالكاد يصل بعضها إلى المجاهدين في المنطقة الثامنة من الولاية الخامسة، نظرا لصعوبة الأمر وخطورته. بعد الاستقلال، جاء المهندس المعماري الفرنسي الشهير (Fernand Pouillon) فرناند بويون، وبنى فندقا جميلا هناك أسماه "فندق جبل مكثر"، يطل على حديقة ساحرة تمتد حتى الكثبان الرملية؛ حيث تعانق الجبال الرمال هناك على الطريق المؤدي إلى دزيرة.. كانت تلك محاولة لطمس ذاكرة المكان التي لا تنسى، وتغطية آثار أبشع الجرائم التي ارتكبت ضد الجزائريين في تلك المنطقة.

توقف بوتخيل بعد ذلك عن الحديث فجأة، خشية أن يزيد صفية قلقا على قلقها، فقد كان على يقين أن عبور الحدود في حد ذاته يعد ضربا من ضروب المقاومة، لما فيه من مشقة وتعب ومخاطر مجهولة، إذ قليلون هم من دخلوا مركز دزيرة وخرجوا منه أحياء. إنه باختصار مركز للإبادة بلا أدنى مبالغة، فقد أعدم فيه الكثيرون لمجرد أنهم قالوا "لا" للاستعمار. في هذه الأثناء راودت بوتخيل رغبة قوية في أن يحكي لها قصة نجمة وابنها الوحيد مروان، تلك المرأة الشجاعة، شجاعة ألف رجل والتي التحقت بالثورة، لكنها أسرت واقتيدت إلى سجن تحت الأرض، غير أنه تراجع عن الفكرة في اللحظة الأخيرة.

قال لها بهدوء:

– إنما أؤكد على ضرورة أن يظل هذا الأمر سرا مطلقا.. لذا أوصيك مجددا.. سأكون عندك غدا في حدود التاسعة مساء، أما الآن فأحضري أغراضك، سنضعها عند العم قويدر بالمصيف.

اعتقد بوتخيل لوهلة أنها ستجيبه، لكنها أحجمت عن الحديث واغرورقت عيناها بالدموع، فاستدارت فجأة حتى لا ينتبه لها ويراها تبكي، وانتهى حديثهما هنا، ولم يبقى أمام صفية سوى عشرين ساعة لتغادر المكان، واثنتا عشرة ساعة منها فقط للتفكير والتحضير. كان الوقت محسوبا بدقة ومحسوما في الآن نفسه، فسلامة الجميع وأمنهم تعتمد عليه. لقد بدد هذا الأمر مخاوفها بعض الشيء ووضعها أمام واقع الأمر من أنها ينبغي أن تتحمل مسؤولياتها على ثقلها. شعرت بعدها بالارتباك الذي تملكها بشدة، ولم تعد تدري ماذا تفعل ومن أين تبدأ؟ هل تشرع في تجهيز الأغطية؟ أم تحضر ملابس أطفالها؟ أم تبدأ بالمؤونة؟ أم تذهب مباشرة إلى أختها الكبرى التي كانت كثيرا ما تستشيرها في شؤونها الصغيرة منها والكبير؟

تغلبت عاطفتها على أولويات الترتيب، فقررت أن تخبر أختها أولا، ارتدت الحايك وخرجت مسرعة، حين وصلت وجدت أختها مع زوجها وأطفالهما ملتفون حول المائدة، التفتت أنظارهم جميعا إليها، وبدا على محيا الزوجين شيء من الحيرة لقدومها المفاجئ، فدعوها لتنضم إليهم ومشاركتهم الطعام، لكنها امتنعت بلطف، موضحة أنها في عجلة من أمرها وأن أبناءها بانتظارها. وحدها أختها التقطت إشارات القلق البادية على وجهها.

– سأغادر عين الصفراء.. إلى المنفى، أعلنت صفية بنبرة مختنقة.

– ماذا؟! كيف ذلك؟! ردت الأخت الكبرى بصوت مرتفع بعض الشيء.

– أخبرني المجاهدون أنه يتوجب علي الرحيل بأسرع وقت ممكن، وعبور الحدود.

– هل دحان هو من أرسلهم إليك بهذه الرسالة؟ سألها زوج أختها.

– نعم.. وأنا خائفة، خائفة جدا من الرحيل وحدي.

– وأطفالك؟ وأغراضك؟ لا بد من تحضير جيد لهذا النوع من السفر! قالت أختها.

كان والد صفية، الذي يعيش بمعية ابنته عائشة، ملتزما الصمت بشكل غريب، ولا يكاد يوجه بصره نحو أحد منهم، وعيناه شاخصتان تنظران نحو أفق بعيد. بدا وكأن تفكيره عالق في مكان آخر غير الذي هم فيه، وفي زمن آخر. فجأة، وبلا مقدمات، تدخل بصوت خافت لكنه حازم:

– عليك أن تتخذي قرارك بنفسك، موجها حديثه إلى صفية بنبرة سلطوية قاطعة.

– أي قرار يا أبي؟ تساءلت عائشة بدهشة.

– لقد فات الأوان لتأجيل هذا السفر، رد الأب.

ارتفعت حدة صوت عائشة وهي تحاول أن تقنعه بعدم فوات الأوان:

– لا، لم يفت الأوان! لم يفت الأوان بعد! لو كانت الإدارة الاستعمارية قد اشتبهت في شيء، لكانت قد أرسلت جنودها لاستجوابنا منذ مدة، أليس كذلك؟ لكن الأب قاطعها دون تردد:

– لا تجادلي، ينبغي ضبط الأمور واتخاذ القرار الأصوب.

أضافت عائشة، وقد استبد بها القلق:

– لكنها بحاجة إلى وقت لتحضر أغراضها وتجهز نفسها،.. وتنقل ما ينبغي نقله معها والوقت محدود وليس في صالحها.

رفع الأب رأسه وقال بحسم وحزم:

– لا يوجد سوى حل واحد أوحد لا غير، هو أن تغادر غدا دون تأخر كما تم الاتفاق مع المجاهدين.

خيم صمت ثقيل على المكان، وجلست صفية شاحبة انسحب الدم من وجهها، وأصابعها ترتجف، كأن الحياة غادرت ملامحها وبدت بلا روح. وضعت أختها يدها على فمها وبدأت تعض على أناملها في توتر وقلق كبير، ثم تبادلت صفية وعائشة نظرة صامتة تشوبها الدموع.

– سأكون وحدي هناك.. سأفتقدكم.. سأفتقدك أنت أيضا، يا أبي، همست صفية.

أجابها الأب بصوت خافت لا يخلو من الحنان:

– هناك، ستجدين من سبقك من الإخوان، بعض العائلات عبرت الحدود قبلك وهي الآن في أمان.

– سأترك معظم أغراضي هنا، فقد أوصاني بوتخيل ألا آخذ سوى الضروري.

– الأهم هو أن تلتحقي بزوجك، وتكتب لك النجاة أنت وأبناؤك من الاضطهاد. نحن في قلق دائم عليك منذ أن غادر دحان البيت والتحق بالثوار. العسكر لا يعرفون الرحمة حين ينتقمون.. يجب أن تغادري بسرعة.

– نعم، سأغادر.. وسأواجه هذه الحياة الجديدة.

اقترب الأب منها وربت على كتفها قائلا:

– أنت شجاعة يا ابنتي، مررت بما هو أسوأ، فاصبري. كوني حذرة، ولا تنسي أن تغطي أبناءك، فالجو بارد في المساء، وعندما تعبرين الحدود، ستشعرين بالطمأنينة.

أمسكت صفية بيد والدها وقبلتها، وقالت باختناق:

– أتساءل ما الذي كنت سأفعله بدونك يا أبي.. ودون تشجيعك ونصائحك.. شكرا يا أبي.

هز الوالد رأسه بحزن:

– أخشى ألا أستطيع مساعدتك في الأيام القليلة القادمة، لكنني سأدعو الله أن يكون معك، يا ابنتي.

تقدمت عائشة وقالت:

– سأحضر لك كمية من خبز الكسرة. ستحتاجينها أنت وأبناؤك في الطريق.

كان الوالد مرتبكا، ومن عادته أن يكفيه مقدار واحد (رفعة) من التبغ المسمى الشمة كي يتغلب على القلق ويصفو ذهنه، أما في هذه اللحظة، فقد بدا كمن هو مستعد لاستعمال العلبة بأكملها دون أن تحقق له المطلوب، ولا أن يجد فيها أدنى راحة.

هكذا ودعت صفية أهلها، كان أبوها يتأملها ويتابع خطواتها بعينيه الحزينتين متأثرا بشجاعتها، حتى بلغت الباب، وقبل أن تغادر، قال لها بنبرة مهيبة:

– أعلم أنك شجاعة يا ابنتي، اعتني بنفسك وبأبنائك.. قلوبنا ستظل دائما معك.. كان الله معك يا ابنتي.

كم بدت كلماته خارجة عن المألوف، غريبة تماما عن عادات المنطقة وتقاليدها، من كان ليتصور أن أبا من القصر -هذا المكان الذي تقدس فيه قيم الأسلاف وتوضع فوق كل اللوائح والقوانين-، سيشجع ابنته على السفر لوحدها؟!! لقد كان ذلك ضربا من الخيال إلى زمن قريب، لكن التغيرات العميقة التي عصفت بالمجتمع جعلت ما كان محرما أصبح ضرورة، خاصة حين يحدق الخطر ويوشك أن يودي بالحياة نفسها.

كانت تلك آخر الكلمات التي تلفظ بها الأب قبل أن يعود إلى صمته المعتاد.

عادت صفية إلى بيتها، وشرعت تمشي ذهابا وإيابا داخل حجرتها كأنها ممسوسة، تفتش بين أغراضها، تفتح وتغلق الحقائب الواحدة تلو الأخرى، وتقلب داخل الصندوق الخشبي

الذي كانت تخبئ فيه مقتنياتها الخاصة. وأخيرا، جمعت غطاء لكل واحد من أبنائها، وملابسهم، وبعض الأشياء الضرورية، ثم لفتها داخل كيس كبير. كان الأمر مؤلما بالنسبة إليها وهي تشاهد بعينها، أن كل ما بنته بجهدها وصبرها، وكل الطاقة التي كرستها لترتيب المنزل وتدبير المدخرات فيه، لم تثمر سوى خزانة ملابس، ومائدة خشبية، وبعض الأواني.. أشياء بسيطة، ومع ذلك، عليها أن تتركها الآن خلفها. ولا تعرف إن كانت ستعود يوما ما أم لا، لقد كلفها هذا الهروب حياة قد لا تقوى على تأسيسها مجددا في المنفى، أو حتى لملمة شتاتها الممزق.

تناولت صفية مع عمر وبناتها سريعا ما تبقى من الكسكسي، ثم أدركت فجأة بمضي الوقت أن الليل قد حل، فقفزت مذعورة، وألقت نظرة سريعة على الشارع تستكشف ما فيه، ثم عادت لتجلس بالقرب من أبنائها، مستسلمة لانتظار ثقيل ومرهق، أثار أعصابها وسبب لها الكثير من القلق. لم تكن تتخيل أبدا أن الهروب سيكون بهذه الشكل، وكأنها سارقة.. بالإضافة إلى أنها كانت تجهل تماما ما ينتظرها في بلاد المنفى.

كانت صفية تدرك تماما أن عبورها للحدود سيجعلها، في صف المطاردين، ستكون واحدة من الذين التحقوا بالثورة، وممن يلاحقهم الجيش الفرنسي بلا هوادة. أصبح مصيرها من الآن فصاعدا، مرتبطا بمصير زوجها وبالمجاهدين، أولئك الرجال الذين حملوا السلاح في وجه العدو. ربما كان والدها يشعر بالفخر في قرارة نفسه، لأنها البنت الوحيدة التي تصرفت كما تتصرف

المجاهدات الحقيقيات في مواجهة السلطة الاستعمارية، فقد رفضت هي الأخرى الاستسلام للاضطهاد، وتغلبت على مخاوفها هي الأخرى، واتخذت قرارها عن وعي كامل بالمسؤولية تجاه وطنها حينما آمنت بقرار زوجها، معتبرة أن هذا الكفاح ليس مجرد خيار، بل واجب عليها أن تؤديه. ومع ذلك، وفي لحظات الانتظار المحموم، وما يتخلله من الحيرة والقلق، لم تعد تدري ما الذي تفعله، كانت حالتها النفسية مضطربة إلى حد أنها فقدت إدراكها الواضح للأشياء.

في صباح اليوم التالي باكرا، شرع عمر في تجهيز البغل المحمل بالأغطية والألبسة المرتبة بعناية في الليلة السابقة، وقد تم تمويهها بطبقة من روث الدواب، لخداع الجنود المتمركزين عند الباب الثاني المؤدي إلى البساتين، فهناك تم وضع الحمولة، ثم عاد ليجلب حمولة أخرى.

في تلك اللحظات، كانت صفية تتهيأ للرحيل وبدأت تستعد للمغادرة، ومن الغريب أن القطتان اللتان كانتا تعيشان معها في البيت. بدأتا تموآن بشكل غريب، وكأنهما شعرتا أن صاحبتهما على وشك الرحيل وستتركهما وحيدتين بانتظار المجهول. في تمام الساعة الرابعة مساء، غادرت صفية وهي تحمل رضيعها رفقة بناتها ليلتحقوا جميعا بعمر، متجهين في سرية تامة إلى بيت عائلة قويدر، كان مجرد استقبالهم مخاطرة كبيرة، ومع ذلك، فتحت لهم تلك العائلة أبوابها بلا تردد، مدفوعة بالإيمان بالقضية. ومع حلول الساعة التاسعة مساء، كما هو متفق عليه،

كان الرجال الثلاثة يقفون أمام باب مصيف. طرق أحدهم الباب، ففتح قويدر.

– مساء الخير، أتمنى أن كل شيء على ما يرام.. إذا.. هل الجميع مستعد؟

– نعم، على أتم الاستعداد وكل شيء مرتب وجاهز، رد قويدر.

– سلمني الأغطية، وإن أمكن، حقيبة أو قفة أضعها على ظهر البغل. يجب أن نسرع.

– حسنا، ها هي الأمتعة، قال مشيرا إلى الأغطية والوسادتين والكيسين الكبيرين.

أخذ بوتخيل الأغطية الملفوفة والكيسين، وربط الوسادتين على ظهر أحد البغال، متجنبا عرقلة حركة الدابتين. ثم قام بتكديس بعض الأدوات المنتشرة داخل كيس وأغلقه بإحكام. وخصص البغل الثاني للبنتين، واحدة على كل جانب. أما صفية، فركبت البغل الثالث وهي تضم ابنها الرضيع بين ذراعيها، وقد لفته بعناية. وانضم عمر إلى الرجال الثلاثة المكلفين بمرافقتهم.

وبتأثر بالغ، التفتت صفية لتلقي نظرة أخيرة على حماتها وأخت زوجها زهرة، اللتين كانتا واقفتين لتوديعها.

– حظا موفقا! حفظكم الله! قالتا ذلك والدموع تملأ مآقيهما.

– إلى اللقاء.. وشكرا لكما على كل شيء، ردت صفية وهي تمسح دموعها..

الفصل الخامس

النفي القسري إلى المغرب

ألقى بوتخيل نظرة أخيرة على الدابتين والحمولة وتأكد مع مرافقيه سالم وبوستة من أن كل شيء على ما يرام، فالأغطية مرتبة جيدا، والكيسان مثبتان، والحمولة موزعة بدقة. ثم رفع يده بإشارة خفيفة، معلنا عن بداية الرحلة، كانت صفية في هذه الأثناء هادئة بشكل ملفت، وتبدو أكثر شجاعة وحزما من ذي قبل، كأنها لم تعد تخشى شيئا، أو على الأقل، لم تكن تسمح لخوفها أن يكون عائقا.

قال بوتخيل، وقد شد لجام الدابة:

- نلتقي عند الجانب الشرقي من العرق.. على بعد كيلومترين تقريبا.. كل ما أوصيكم به هو توخي الحذر، والحفاظ على مسافة بينكم حتى لا تثيروا حفيظة العدو وشكوكه.

انطلقت القافلة الصغيرة، وغادر الرجال الثلاث مع عائلة دحان المكان المسمى بلمصيف ومضوا يسوقون دوابهم عبر الدرب المتجه صوب بساتين السوارق التي تمتد نحو العرق، يرافقهم في ذلك صمت الليل وهزيز الرياح، سارت الدابة المحملة بالأغطية والكيسين في مؤخرة الركب وكانت تتأرجح بحذر، فيما كانت صفية لا تنفك تنظر إلى الخلف، حيث تنام ابنتاها فوق ظهر الدابة، تتفقدهن بين الحين والآخر، وحينما استشعر بوتخيل قلقها حاول أن يطمئنها بصوت خافت:

- لا تقلقي.. البنات بخير.. هن مرتاحات على تلك الدابة لن يصيبهن مكروه، سيزول الخطر حالما نعبر مركز دزيرة ونتجاوزه.

سار الركب لفترة طويلة بتواطؤ مع الصمت المهيمن، حيث قطع المسافرون الكثبان الرملية قبل أن ينحدروا على طول الوادي، متجاوزين بذلك مركز دزيرة العسكري بمسافة بعيدة ثم مروا قرب الحاجز المكهرب، وحدود حقل الألغام بمنطقة اللحيا والذي يمتد على مساحة مئة هكتار تقريبا، يحده من الشمال ذاك الطريق المؤدي إلى المركز، فيما تحده من جهة الجنوب الكثبان الرملية، ومن الغرب بساتين الدزيرة، ثم صعدوا المنحدر وكانوا يلتفتون خلفهم بين الفينة والأخرى. ومع كل خطوة يخطوها الركب، كانت صفية تزداد صلابة، وبجانب كل التفاتة إلى الوراء، وداع خفي لحياتها السابقة، لتدنو من قدرها المجهول.

في نهاية المسار وصل الركب إلى مركز عرعار، وهنالك لمحوا رجلا يقف من بعيد، بدا كأنه بانتظارهم، لكن لم يتبينوا من يكون حتى اقتربوا أكثر، وإذا به دحان. صاح بوتخيل فجأة:

- إنه دحان! لقد عرفته!

اقترب الجميع، لكن دحان لم يتحرك، كان يتأمل صفية كما لو أنه يراها للمرة الأولى.. وتساءل في قرارة نفسه من أين لها بكل هذه الشجاعة؟! لقد عبرت الجبال والوديان، وخاضت غمار الخطر، فقط لتصل إليه. أراد أن يبدي إعجابه بشجاعتها، لكنه اكتفى بسؤال المتفقد ولبس قناع التماسك، متجنبا الكشف عن

مشاعره والإفصاح عنها وقال:

- سلام. استغرقتم وقتا طويلا لمغادرة حي القصر.. كيف حال الأبناء؟ هل أتعبهم السفر؟

- هم بخير.. فعلوا ما بوسعهم، صحيح أن حمولة الأمتعة والأطفال أخرتنا بعض الشيء، لكنهم مع ذلك تحلوا بالشجاعة، رغم صغر سنهم، وهذا أمر يحسب لهم حتما.

- على كل حال، كانت تجربة صعبة.

توجهت الجماعة نحو مركز بوجرانة، الذي لم يكن بعيدا، وهنالك أمضوا يوما كاملا بجبل بوجرانة، حيث خيموا بين الإخوة، (الخاوة) وتقاسموا معهم ما توفر من مؤونة وأكل، وتحلقوا حول الشاي الساخن، وكان الرجال يتجاذبون أطراف الحديث، بينما جلست صفية هي وبناتها في ركن هادئ ومنعزل، تحضن صغيرها بلخير، وترضعه بحنو حتى غفا على صدرها.

في اليوم التالي، انتقلوا إلى جبل مكثر، وعايشوا ذات الظروف وكأن اليوم يشبه ما سبقه، وفي صباح اليوم الذي يليه، تحركت الجماعة مع دحان نحو بني سمير؛ حيث وصلوا إلى قاعدة للمجاهدين أين قضوا ليلتهم هناك. وحين لاح ضوء الفجر، انطلقت القافلة من جديد باتجاه قرية إيش المغربية. غير أن دحان لم يرافقهم هذه المرة، فقد تم تكليفه بمهمة أخرى، في حين تم استدعاء عمر إلى صفوف المجاهدين بقطاع بوجرانة، وفرح كثيرا بلقاء العديد من أصدقائه، وشعر بسعادة كبيرة، لكنه

كان سعيدا أكثر بفرصة إثبات رجولته، أراد أن يثبت للجميع أنه لم يعد طفلا، فقد غدا شابا اشتد عوده ورجل يدرك معنى المسؤولية.

تولى بوستة زمام الرحلة الآن؛ كان رجلا طويل القامة في الثلاثين من عمره، شعره أسود، ووجهه تعلوه بعض التجاعيد ربما من قسوة الحياة، ذو شارب كثيف، .. وكان مكلفا بإيصالهم إلى وجهتهم سالمين بعد كل ما تخطوه من صعاب واجتازوه من مخاطر، أخبرهم أنه لم يسجل أي تحرك في المنطقة منذ ثلاثة أيام، لكن هذا لا يعني عدم الإسراع في المشي وأردف قائلا:

- سوف نصل بعد حوالي ساعة ونصف إلى مركز نمكث فيه طيلة اليوم، ثم نستأنف السير بحلول الظلام وجنوح الليل، حتى لا تتمكن الطائرات الحربية من رصدنا، لنتابع المشي قدر المستطاع، إلى أن نجد مكانا آمنا.

كان بوستة يعرف المنطقة جيدا، كما تعرف الأم ملامح طفلها، وأضاف بنبرة حازمة:

- علينا أن نصل إلى جبل أم الأرباح، فهو المكان الوحيد الذي يمكننا الاختباء فيه نهارا تجنبا للطائرات الاستطلاعية والدوريات العسكرية المحتملة. بدت صفية حائرة للحظة، واصل بوستة كلامه كمن يروي قصة محفورة في الذاكرة:

- قبل شهرين من اليوم فجر المجاهدون جسر السكة الحديدية بين ميكاليس وتبركونت، و أسفرت العملية عن تعطيل

حركة المرور نحو الجنوب لمدة شهرين متتاليين، ما أثار سخط الكولونيل ڤوجون (Goujen) وأفقده صوابه، فانتقم بإعدام خمسة من أسرى جيش التحرير الوطني في المكان نفسه، ولم يتوقف عند ذلك فحسب، بل سحب عشرة مدنيين من الخيم المجاورة وقتلهم رميا بالرصاص لمجرد أنهم كانوا قريبين من المكان.

ثم صمت بوستة قليلا، كأن ذاكرته مثقلة ولا تأبى النسيان، دوت السماء بالطائرات الحربية المقنبلة التي لم تبقي ولم تذر، ولم تكن لتفرق بين إنسان وحيوان، ومضت تصب وابلا من القنابل والرصاص على كل ما يتحرك على الأرض دون أدنى رحمة أو شفقة، ففي عرفها حتى البغال والبعير تعد أهدافا محتملة، لكونها تنقل الطعام والسلاح.. لفائدة المجاهدين.

كان التعب قد نال من صفية على غرار البقية غير أنها لم تكن لتبدي ذلك لرفقاء رحلتها، كان طفلها لا يزال مستقرا بين ذراعيها تحمله دون أن تئن، فهي مدركة لحجم الخطر المحدق بها، خطر مجهول قد يداهمها في أي لحظة وتراه قريبا، لذا لا ينبغي لها أن تستسلم. لقد اتضح لها أنها بدأت تخط صفحات جديدة في تاريخ حياتها منذ أن وطئت قدماها خارج القصر؛ حيث تغلبت على خوفها وتفوقت على نفسها لتسلم بقدرها الذي ساقه ورسم مساره قدر الثورة، إنها تعزي كل مصائبها لعدو واحد مشترك بين كل الجزائريين أمعن في إذلالهم ظلما وعدوانا.

اقترب العابرون من مغارة منسية، فدخل بوستة أولا

لاستطلاع المكان، والتأكد من خلوه مما قد يشكل خطرا عليهم، ثم أشار لهم بالدخول، كان المكان مظلما وشديد البرودة، حينذاك بسطت صفية فراشا على الأرض، وأجلس الرفقاء البنات عليه بعناية، فيما خلع بوتخيل جلابته، وغطى بها إحداهن حينما رآها ترتجف بردا، أما بلخير، ذاك الرضيع فقد التصق بأمه كأنه يريد أن يختبئ داخلها من قسوة العالم، في حين لم تتوقف البنات الأصغر سنا عن البكاء من شدة البرد، فقد كن مذعورات من هذا المكان الموحش والمظلم، كما أن الرحلة كانت شاقة بالنسبة لهن.

حاول بوستة مواساتهن وطمأنتهن قائلا:

الحمد لله لقد اجتزنا المنطقة الأكثر خطورة دزيرة على خير، ولم يبقى لنا سوى المرحلة الثانية من هذه الرحلة التي سنستكملها دون مخاطر على ما يبدو.

جلس سالم على صخرة، يراقب محيط المخبأ قبل ان يلتحق برفيقيه بوستة وبوتخيل الذين تمركزا غير بعيد عنه، طفقت صفية تعتني ببناتها وتهتم بهن، وهي تعيش حالة من الخوف، القلق، والترقب بين الفزع من الموت والأمل في الخلاص، لقد باتت الآن في مفترق الطرق وحرمت الأمان الذي تستحقه فلا بيت يأويها، فقط مغارة باردة وموحشة، وأطفالها من حولها في مكان بعيد ومجهول. اقتربت من بوتخيل الجالس على صخرة، فناولته تمرات، وكسرة من الخبز تقاسمها بدوره مع سالم وبوستة. تلك اللقمة البسيطة كانت أكثر من طعام، هي

صداقة واحترام متبادل، وعهد صامت بينهم يشعرهم بالاتحاد والتضامن من أجل المثل الأعلى الذي يجمعهم، ألا وهو الإيمان بقيم الثورة واحترام مبادئها والسعي لتحقيقها.

كان سالم يلقي ببصره بعيدا ويحدق في الأفق، كمن ينظر في اتجاه ربما لم يكن يراه سواه، يرنو إلى حلم بعيد يستحيل تحقيقه أو الوصول إليه، كان مثقلا بوجع غامض يترجمه صمته الذي حمله بمنأى عن الزمان والمكان.

- أنا على يقين أنك تفتقد زوجتك وأبناءك وأهلك، بادره بوتخيل، للأسف هذا حال كل من التحق بالثورة من الخاوة، الثورة ليست فسحة بل قرار حاسم لا رجعة فيه.

رد عليه بوستة متسائلا:

- هل ثمة أمل فعلي لتحقيق نصر نهائي؟

- نحن على درب النصر لا محالة، لا تنسى أننا نكافح من أجل تحقيق ذلك، إنه مبتغانا الذي لن نحيد عنه أبدا، وما وجودنا هنا إلى دليل على مواصلة السير في طريق التضحية لانتزاع حريتنا وهذا هو الأهم.

تابع بوتخيل بنبرة حزينة مفعمة بالحنين:

- نعم لقد تركنا كل شيء خلفنا ولم نتردد ولو للحظة في الالتحاق بالثورة، واجتياز الحدود وعبورها عندما اقتضى الأمر ذلك، إنه قدرنا جميعا.. فدوي الثورة وصداها يمتد عبر كل الجبال والقرى والمداشر والمدن، لأن العدو في كل مكان.

كانت صفية تسمع تحاورهما لكنها لم تكن تفهم ما يقولانه، إنها على يقين أنهما جاءا يطلبان الشهادة كغيرهم في بلد يحصي شهداءه كل يوم، فهما بطلان حتما وربما يستشهدان من يدري، لم يكن هذا الأمر يعنيها بقدر ما كانت معنية بكونها امرأة دفعت إلى المنفى القسري في خضم سير الأحداث وتطورها.

جلس بوتخيل إلى جانب سالم وقال له:

- بإمكانك الاستلقاء هنا والنوم قليلا لأخذ قسط من الراحة، وحينما أشعر بالتعب سأوقظك.

- لا لست بحاجة إلى ذلك رد عليه سالم، على أية حال لا يمكنني النوم الآن.

- بإمكاني أن أبقى مستيقظا لوقت أطول مع بوستة، ألح عليه بوتخيل، على أحدنا أن يبقى مستيقظا ومنتبها.

- ليس في مقدوري أن أنام الآن، فالنوم يجافي عيوني بسبب ذكرى أليمة عادت إلى مخيلتي حين عبرنا وادي البرايج صبيحة اليوم وما تنفك تؤرقني وتقلب مواجعي.

سأله بوتخيل مستفسرا عن هذه الفاجعة التي جعلت النوم يهجره، أغمض سالم عينيه فجأة ثم فتحهما، كما لو كان يريد محو صورة لا تزال عالقة بذهنه ولا يقوى على إزاحتها.. لكم هو مؤلم على المرء أن يروي مأساته ويسرد ما لا يطيق.. وأطلق تنهيدة عميقة.

- لابد من أن الأمر فظيع.. قال بوتخيل.

- للأسف هو كذلك، رد سالم بحزن.

نظر بوتخيل إلى صديقه مليا ثم قال له: تخفف من الحمل يا صديقي، تحدث عن الأمر لعل ذلك يريحك.

ساد صمت ثقيل بينهما للحظات، لا يقطعه سوى طقطقة نار خافتة، وحفيف أوراق الأشجار الجافة التي كانت تعبث بها الرياح، وكأنها تتأهب هي الأخرى لتنصت لهذا الاعتراف الذي تهيب سالم من الإفصاح عنه، وفي لحظة أشاح سالم بنظره بعيدا، وشرع في الحديث:

- كنا عائلتين متجاورتين تعيشان بسلام تقومان باستصلاح قطعة أرض سويا، غير أن الباشاغا ذلك الظالم المتغطرس صادرها وسلبها منا وجعل منها مرتعا لأغنامه.

- يا للظلم!! عقب بوتخيل.

- لم يعد هنالك ما يستحق البقاء في ذلك المكان، فانفصلت العائلتان وتفرقت بنا السبل، قررت عائلتنا الذهاب إلى الشمال صوب مدينة عين الصفراء للاستقرار هنالك، فيما اختارت العائلة الثانية نصب خيمتها وسط وادي جاف غير بعيد عن المكان.

- يا إلهي!!

- لقد عشت في تلك الفترة أسعد أيام حياتي، سعادة حقيقية بكل نقائها وصفائها، أحببت ابنة جيراننا شابة في مقتبل العمر، آية في الجمال البدوي الساحر ،بشعرها الطويل المنسدل على

كتفيها، وعيناها اللتان تشعان ببريق أخاذ، كنا كثيرا ما نلتقي عند الغسق بعد سقي أغنامنا، همنا ببعضنا حبا في حضور صمت الكثبان وتواطؤ النجوم الشاهدة على لحظات الدفء والحب التي كانت تجمعنا وتحتضن أحلامنا، كانت تنبض بالحياة، والابتسامة لا تفارق محياها الجميل.. كانت كل شيء بالنسبة لي وبدونها لا شيء.

- ولماذا لم تتزوجها؟

- أظن أن الشجاعة هي ما كان ينقصني يومذاك.. كانت جميلة كاملة متكاملة.. لكنني فقدتها..

- ما الذي حدث هل تخلت عنك؟

- لا، لقد أدركت أن عليها الانتظار، كنت أشعر بالخزي والعار لأنني تسببت في تعاستها ،بدلا من أكون مصدر سعادتها.

- يا لها من خسارة.

- فعلا، كانت خسارة فادحة، لقد تلاشى الحلم وانكسر على عتبة الخذلان تماما كما تنكسر المرآة، ثم أن الطبيعة استعادت ما كان في الأصل لها.

- ماذا تقصد؟

- لا شك أنك سمعت عن فيضان الوادي النائم، لقد كان ذاك الوادي في سبات لفترة طويلة من الزمن، لكنه استفاق فجأة ودون سابق إنذار، فكانت الكارثة التي لم يكن ينتظرها أحد، لقد

كان طوفانا جرف كل شيء في بضع ثوان، الرجال والنساء والأطفال والمواشي، والخيام بما فيها الخيمة التي كانت تحتضن حلمي.

- إنه مشهد يعكس ذات الصورة التي تخلخل العادات المتوارثة وتزلزل أركانها.

- أجل، فالوادي كالثورة يجرف كل شيء.

- في النهاية، كان ذلك مقدرا إنه المكتوب، قال سالم ذلك مسلما بالأمر..

بعد فترة قصيرة هبت عاصفة هوجاء، وبدأت الرياح تعصف بكل ما في طريقها، وتجرد الأرض الجدباء مما عليها فتعريها أكثر فأكثر، ولا تسمع إلا صفيرها يملأ الأرجاء.

وبعد زوال ذلك اليوم استأنف الجميع السير ولم يتوقفوا إلا عند منتصف الليل تقريبا. ومع حلول الظلام، تراكمت الغيوم الكثيفة مؤذنة بقدوم عاصفة مجددا.

- ستمطر قريبا قال بوستة.

توقف الركب لمدة ساعتين قصد الراحة ثم ليستكملوا طريقهم، وبنهاية مسارهم أدركوا سفح التل، ثم انعطفوا باتجاه منطقة صخرية مليئة بالشجيرات تمتد حتى القمة، كان عليهم صعود التل لبلوغ ما يشبه المغارة، وهنالك نزلوا لأخذ قسط من الراحة، ومن هذا المرتفع كان بإمكانهم رؤية الوادي الذي اجتازوه والمنحدر الذي تسلقوه بشكل مذهل.

حاولت صفية جاهدة نسيان آلامها لتركز تفكيرها فقط على المرحلة المقبلة، كما كان يلزمها وقت طويل حتى تعتاد هي وبناتها على هذا التمايل الذي تفرضه الخطوات الإيقاعية في المشي للدابتين، فقد أربكتهن التغيرات في الاتجاهات وشوشت تركيزهن، ناهيك عن الصعود والهبوط مرارا وتكرارا، ومع ذلك فلم تكن صفية تفكر سوى في كيفية تجنب الحواجز المنصبة على طول الدروب وكيفية اجتيازها بسلام. كانت تقاوم التعب وترفض الاستسلام له، وتبقي عينيها مغمضتين للحظات فقط لتتجاوز الألم وتقهره كلما تغيرت وتيرة التحرك، لقد كانت بداخلها قوة أعظم تدفع عنها ذاك التعب وتدفع بها قدما نحو الأمام. كانت الدواب الثلاث تمشي مطأطئة الرؤوس، متدلية الآذان بحركة بطيئة وإيقاع متواتر، حسب طبيعة كل درب يمرون به. وبعد فترة من الزمن تمكنوا من عبور الممر، وأدرك بوستة أن طلوع النهار وشيك، فراح يبحث عن مكان مناسب للتخييم، ليستقر بعد ثلاث منعطفات أسفل الطريق على أرضية تطل على الوادي.

- لنتوقف هنا، أمر بوستة، فمن هذا المكان يمكننا أن نرصد كل حركة، ومن الصعب على العدو أن يرانا.

ساعد سالم الأطفال حينها على النزول، فيما تكفل بوستة بالدواب؛ حيث أنزل الكيسين والأغطية أرضا ثم راح يسوق البغال الثلاثة إلى مكان غير بعيد قليلا، وقام بتقييدها حتى لا تتوه ثم قدم لها بعض الماء والأعشاب التي كان قد التقطها من

مكان قريبا هناك بين الشجيرات. كانت الدواب المنهكة والمنهمكة في الأكل تشكل من بعيد بخيالها كتلة ضخمة، جلست صفية جنب أبنائها وفتحت الكيس الذي يحوي الزاد.

تناول العابرون بسرعة قطع الكسرة التي حضرتها عائشة والقليل من التمر، ثم تسلم كل واحد منهم لحافه ولف به جسده متكوما في مكانه، وخلدوا جميعا للنوم في لحظات قصيرة من شدة التعب.

عند الظهيرة لفت شيء ما يشبه طنينا أو أزيزا انتباه بوستة الذي كان قائما بالحراسة، فنظر إلى السماء وأرهف السمع لذلك الصوت الغامض، وأدرك أن ثمة أمر، فأسرع وأيقظ صاحبيه محذرا:

- لا تتحركا ! فقط انصتا لهذا الصوت!

- كأنها طائرة، قال سالم.

- إنها مروحية، انظر ها هي هناك!

أدار سالم رأسه نحو الاتجاه المشار إليه فلمح على بعد عدة كيلومترات من الجهة اليمنى شكل الطائرة المرعب. وانتاب الخوف الجميع.

- الأطفال والدواب يبقون هنا، أمر بوستة، أما أنتما فاذهبا واختبئا خلف تلك الشجيرات الكثيفة التي تريانها هناك، فإذا جاءت هذه المروحية باتجاهنا فلا يجب القيام بأدنى حركة، إذ لا تستطيع رصدنا طالما بقينا ثابتين في أماكننا لا نتحرك.

نزل الرجلان زحفا ووصلا إلى الشجيرات التي رصدها سالم، وكان بوستة يتابعهما وقلبه يخفق معجبا بخفتهما، ولاحظ أن المروحية تابعت طيرانها وابتعدت عدة كيلومترات لتنعطف، ثم قفلت راجعة باتباع خط مواز لمسارها الأول تماما كما فعلت من قبل.

- بعد ذهابين وإيابين آخرين ستغادر، قال بوستة لصفية مطمئنا إياها.

بعد أن زال الخطر عاد الجميع إلى ما كانوا عليه، واستأنف الركب السير بعد انقضاء فترة ما بعد الظهر تقريبا. كان التعب باديا على البغال المنهكة من السفر الشاق، فقد خارت قواها من طول المسافة وثقل الحمولة وتنوع التضاريس، ناهيك عن نقص الماء وقلة العلف. ألقى بوستة نظرة وتهلل وجهه فقد أدرك أنهم على وشك الوصول سالمين ولم يتبق الكثير، أشار لسالم إلى مسار درب آخر أعلى بقليل من مجرى الوادي. أحس سالم بانشراح صدره وبالطمأنينة والرضا، وبفرح غامر حرره من قلقه.

حينما أرخى الليل سدوله، وألقى ستاره كانت أعينهم قد اعتادت أخيرا على الظلام، إذ باتوا الآن يعرفون المنحدرات ومطبات الأرض التي كانوا يمشون عليها وأضحوا ضليعين في تجنبها.

- كم بقي أمامنا؟ سألت صفية.

- ليس كثيرا، فقد أصبحت طريقنا الآن أسهل.. قريبا سنصل

إلى أول قرية مغربية.

- لم أكن أتوقع أنكن ستصلن في النهاية، وتنجحن في تجاوز كل تلك المخاطر، قلة من نساء المدينة يستطعن القيام بذلك ويحققن مثل هذا الإنجاز، اعترف بوستة بإعجاب.

في الواقع كانت صفية لا تختلف عن أطفالها تشعر بالضعف تماما مثلهم، لكنها تمعن في الصبر لاستكمال رحلتهم. عاش الركب في اليوم الثالث جميع أنواع العواصف والرياح العاتية، لكنهم الآن كلما اقتربوا كانوا يسمعون أصوات الماشية. كانت صفية سعيدة لكونها لم تتعرض وأبناءها لأي مكروه في هذه الرحلة، نعم كانت تشعر بالانكسار ولكنها الآن حرة، لقد كانت أسوأ السيناريوهات تدور في رأسها وترتعب خوفا من التعذيب والإهانة المحتملة ومن الموت، حتى وإن كان القلق مازال يسكنها، فإن الخطر الداهم قد زال، والخوف الذي يسكنها قد زال، لقد أصبحت امرأة أخرى أكثر قوة وعزما، كانت تفكر في الحيوانات، تلك الكائنات البريئة التي كثيرا ما كانت تتمتع بتأهب غريزي يجعلها على استعداد تام للهروب عند أدنى حركة تسمعها، وكانت تتساءل بينها وبين نفسها هل تملك نفس الميزة التي تجعلها مستعدة لمثل هذه التقلبات المستمرة والمتعبة والمتأرجحة بين الخوف والارتياح.

- لماذا تسافر في الليل وترتاح في النهار؟ ينبغي لها أن تعتاد على الخوف مثلما تعودت على الألم، قالت في نفسها متسائلة. لقد تغيرت صفية وصقلت الأحداث شخصيتها وجعلتها أكثر قوة وتحملا!

الفصل السادس

إيش القرية المغربية

ها قد وصل الركب إلى إيش تلك القرية المغربية الصغيرة الواقعة بريف بني ملال بمنطقة تادلة أزيلال. أين سارعت المجموعة عبور الشارع متحرية السرية التامة، كان شارعا خاليا في تلك اللحظة تصطف على جانبيه منازل أرضية تخلو من الطوابق، كان بوستة المرشد يقود المجموعة عبر منطقة يعرفها جيدا، كيف لا وهو المولود في أحضانها ليتوقف عند أحد البيوت ثم طرق على أهله.

- ربيحة لدينا ضيوف! قال وهو يزف الخبر لزوجته.

- مرحبا بهم! هتفت قائلة.

كانت ربيحة امرأة في الثلاثين من عمرها متوسطة القامة، تبدو أصغر من عمرها وأكثر شبابا وهي ترتدي وشاحها.

ساعد الرجال صفية والأبناء على النزول من على ظهر الدابتين، وتقدموا للدخول وسلمت المرأتان على بعضهما البعض كما لو كان بينهما سابق معرفة من قبل.

- سعيدة بلقائك، قالت ربيحة وهي تبتسم، قبل أن تدخلها المنزل الذي كان يحتوى على أربع غرف منفصلة.

- هذه حجرتك، أشارت ربيحة لضيفتها.

شعرت صفية فجأة بالارتياح كما لو أنها أزاحت حملا ثقيلا

من على ظهرها وتخلصت من العبء الذي أثقل كاهلها منذ أن طلب منها بوتخيل الرحيل ومغادرة عين الصفراء، فيا له من هم كان يجثم على أنفاسها!

قامت ربيحة بعد ذلك بمساعدة صفية وبناتها على دخول الحجرة التي سيقمن فيها، كما ساعدتهن في وضع الأغراض، وبنظرة بانورامية سريعة مسحت ببصرها كل الحجرة التي كانت واسعة بما يكفي، نظيفة ومضيئة؛ حيث تتخللها أشعة الشمس الدافئة عبر نافذة وحيدة تطل على الفناء، وعلى الرغم من أنها لا تحتوي على الكثير من الأثاث، إلا من حصير واحد يغطي أرضيتها ومائدة خشبية متواضعة تتوسطها، إلا أنها تتوفر على أهم شيء وهو الأمان الذي كانت تفتقده وبناتها. كان البيت يحتوي على بئر عند طرفه، أما المراحيض الجماعية فقد بنيت في الجزء الخلفي من الفناء.

- أزمة عابرة "شدة وتزول" ستتجاوزينها بالتأكيد، أسرت لها ربيحة.

كانت تلك الكلمات كافية لتبعث الارتياح في نفس صفية، التي كانت من قبل متخوفة من أسوأ الشرور.

- ضعي أمتعتك هنا، ستجدين كل الراحة معنا. ابتسمت صفية تعبيرا عن الشكر.

استقرت صفية مع أبنائها في حجرتها الجديدة، اما ربيحة فقد غادرت للحظات قبل أن تعود إليهم ثانية وهي تحمل صينية

عليها طبق حساء الحريرة الحار وكسرة وشاي، أكل الجميع في صمت ثم تناولت صفية كأسا من الشاي.

- قدمتم من عين الصفراء؟ سألت ربيحة، هل كانت الرحلة صعبة؟

- نعم، أتينا من عين الصفراء، ردت عليها صفية بافتخار، أما رحلتنا فقد كانت جد شاقة!

وبعد محاورة بسيطة ومقتضبة بين الاثنتين استشعرت كلتاهما ألفة ومودة منذ الوهلة الأولى.

بعد قضاء ليلة مريحة في كنف العائلة المضيفة، قام بوستة في اليوم الموالي بذبح كبش وفقا لما تقتضيه عادات كرم الضيافة، وسرعان ما توطدت الثقة بين الجميع من ضيوف وأهل البيت، وأضحى التعامل بينهم كأنهم عائلة واحدة.. لم تمر اثنا عشرة يوما على مجيء عائلة دحان حتى توافدت عائلات أخرى من عين الصفراء إلى المنطقة، تاركة خلفها كل شيء بسبب اضطهاد جيش الاحتلال الفرنسي لها. وقد أثار هذا النزوح الكبير قلقا شديدا لدى سكان إيش، فلم يعد بالإمكان إيواء عشرات العائلات الوافدة مع أطفالها، خاصة وأن هذا الاضطراب لن يتوقف عن خلق نازحين وتعساء آخرين، وعلى الرغم من الهلع الذي عم مما لا يمكن تحمله، انتهى بوستة إلى جمع الوافدين من المهاجرين الجدد في منزلين مجاورين.

كانت دحلابة أرملة معروفة بنشاطها الدؤوب على رأس

المجموعة الأولى من اللاجئين، وهي امرأة تملك من الحنكة والحكمة ما جعلها تقودها، تضع على رأسها وشاحا باليا ،وهي ذات بنية قوية وجسم ممتلئ، وتناهز الأربعين من عمرها، غير أنها كانت تبدو أكبر من سنها؛ لكثرة ما واجهته من محن وكروب وأحداث مأساوية، وهي نتيجة حتمية وحتمية للقدر. وهي إلى جانب ذلك تمتاز بكونها صريحة ولها مهارة في التنظيم، ما جعلها محبوبة لدى الجميع، وعلى الرغم من مصائبها العديدة إلا أنها لا تزال تحافظ دائما على أسلوب المرح لخفة ظلها وروحها اللطيفة، كانت شخصية تشع هيبة وثقة كبيرتين.

تعرفت صفية سريعا على دحلابة، فقد كانت جارتها في حي القصر وفرحت كثيرا لرؤيتها، تعانقت المرأتان مطولا بفيض من المحبة والاشتياق.

- أنا سعيدة برؤيتك، قالت لها صفية مبتسمة.

ثم قادتها دحلابة إلى داخل المنزل، الذي كان يتكون من حجرات ثلاث منفصلة عن بعضها البعض؛ حيث كانت تتزاحم داخلها عائلات هربت من جحيم الحرب والاستعمار.

صفية لقد كنت أول من فتح لنا هذا الطريق وشجعنا على خوض المغامرة، أسرت لها دحلابة.

كانت صفية سعيدة بملاقاة أهل منطقتها الذين كانوا تحت وطأة ذات المأساة، ويعيشون حالة النفي والضيق والعسر.. ثم دعتها دحلابة للدخول إلى حجرة أخرى تم شغلها للتو من قبل

امرأة مع أبنائها الثلاثة.

كان صوت دحلابة أكثر انخفاضا مما كان عليه في السابق، فتعب السنين باد عليها والغلظة تطبع ملامح وجهها، ولم يكن هذا التغير يخفى على صفية التي كانت تعرفها امرأة تتقد حيوية ونشاطا، ومع ذلك كانت تلك الكلمات كفيلة أن تشعرها بالراحة والاطمئنان.

- ضعي أمتعتك في هذه الحجرة، أمرت دحلابة زانا زوجة الطيب التي قدمت للتو من وادي الناموس.

سعدت صفية بملاقاة أفراد منطقتها لذا بقيت تلك الليلة معهم. فجمعت أبنائها وحملت كيسا الأغطية والألبسة لتستقر معهم، كانت زانا ما تزال جالسة هناك غارقة في صمتها متعبة؛ ويظهر ذلك جليا من عينيها المحمرتين والمنتفختين، وعلى الرغم من التعب البادي على وجهها، كانت تتكلف في رسم ابتسامة ذابلة على شفتيها، بدت امرأة شابة من خصلات شعرها البادية تحت وشاحها، فقد كانت قاتمة السواد غير أن الهم الذي تحمله كان كبيرا وانعكس بشكل واضح على ملامحها.

- وصلنا قبل البارحة، قالت زانا، سنتجه إلى تندرارة التي تبعد عن هنا خمسين كيلومترا، سنرحل في الوقت تتوفر وسيلة النقل.

- الأوضاع هنالك أفضل، واصلت زانا حديثها، يمكنني الاعتناء بعلاج أبنائي الذين يعانون جدا من المرض، أخبرونا أن المدينة تتوفر على مركز للرعاية الطبية.

استأذنت صفية من زانا لتطمئن على أطفالها الثلاث، وما إن رأتهم حتى تفاجأت بحالتهم؛ لقد كانوا نحافا جدا، وشاحبي الوجوه ومحمومي الأجساد، لا يقوون حتى على فتح أعينهم، يا لهم من أطفال مساكين!

- مما يعانون؟ سألت صفية

فردت عليها المرأة دون تردد:

- قبل هذا كان أبنائي أصحاء، لا يعانون من شيء، لا يشكون علة ولا يعرف المرض طريقا إليهم حتى حل ذلك اليوم المشؤوم، حين وقع انفجار كيميائي رهيب هز وادي الناموس هزا، بينما كنت مع زوجي في زيارة إلى قرية بني ونيف، على بعد سبعين كيلومترا. وما إن ابتعدنا قليلا حتى اخترق سكون الصحراء دوي الانفجارات المتوالية، والذي سبب الكارثة التي لم نكن نعلم عنها آنذاك شيء.

لم يمر وقت طويل حتى بدأت الأعراض تظهر على أطفالي؛ سعال متواصل يكاد يخنقهم، أعقبه نوبة من العطس الذي لا يتوقف، ثم قيء متكرر أرهق أجسادهم الصغيرة وتسبب لهم في الوهن الشديد، ثم سرعان ما اشتعلت الحمى في أجسادهم، وظهرت عليهم حروق وكدمات وحكة عنيفة لا تنقطع تمزق جلودهم، يليها برد شديد يكاد يجمد أطرافهم. لقد كنا عاجزين تماما عن فعل أي شيء إزاء ما حل بهم، لا دواء ولا تفسير لما يحدث، نتألم ضعف ألمهم لأننا لا ندري مما يعانون بالضبط،

ولا السبيل إلى التخفيف عنهم.

لم تمر فترة حتى انكشف المستور، وبان ما كان يخفيه العدو، منذ الخمسينات أقام الجيش الفرنسي في وادي الناموس، مركزا عسكريا سريا على هضبة كلسية، جعل منه قاعدة عسكرية سرية ومسرحا لتجاربه النووية وأسلحته الكيماوية والبيولوجية. كان ذلك المركز القابع على الحدود المغربية مختبرا لإجراء التجارب في ظل السباق المحموم لإثبات فرنسا لنفسها، وزيادة قوتها في خضم الحرب الباردة. وللتمويه وضعت بعض الخيام في المكان حتى لا يشتبه في ذلك النشاط المشبوه، لم تكن الإشعاعات المتسربة لترحم أحدا؛ لا السكان المحليين الذين كانوا حقل تجارب دون أن يدركوا ذلك، ولا حتى الجنود الفرنسيين الاحتياطيين الذين لم يسلموا من الأمر، فلقد بلغ التلوث مبلغه، والخطورة أوجها، لكن الحقيقة طمست وبقيت طي الكتمان والسرية التامة.

اغرورقت عينا المرأة بالدموع وهي تروي بحسرة مأساتها، وشعرت صفية بالمرارة والأسى، وبغصة في حلقها تكاد تخنقها، وألم يسري في صدرها من شدة الأسف على ما حدث لهذه المرأة المسكينة، لقد استقرأت ملامحها وعلمت أن هذا الحزن العميق ليس وليد اللحظة، بل هو حزن متجذر منذ شهور. بحثت صفية عن كلمات تواسي بها جارتها فلم تجد ما يفي بذلك وخانها لسانها، فما كان منها إلا أن أوصتها برفق أن تحرص على تدفئة أبناءها، وأن وتسقيهم قليلا من الماء عل ذلك يخفف عنهم.

لقد كان الحديث الدائر في تلك الفترة، حول مواد حارقة أو عوامل حيوية جديدة تم تطويرها بوصفها أسلحة مختلفة، إذ لم تكن تهدف إلى القتل الفوري، بل حمل العدو وإجباره على الانسحاب. كان التركيز منصبا على تجريب المواد المهيجة، يتقدمها الغاز المسيل للدموع، الذي يخلف استعماله الحروق والحكة والعطاس، والسعال والغثيان والتقيؤ. وعلى الرغم من أنه لا يقتل مباشرة، إلا أن له أثرا فظيعا ينهك الجسد والعقل، ويشل قدرة الجنود على القتال. بل إن بعض هذه الأسلحة كانت معبأة بمواد عقارية موجهة للتأثير المباشر على الأعصاب، مما يسبب اضطرابات عقلية وانهيارات عصبية، وهلوسات ودوارا لا يمكن تحمله.

أما أبناء المسكينة زانا، فقد استبد بهم الضعف والوهن، وفقدت بشرتهم صفاءها وشحب لونها وتغير، أما شعورهم فقد بدى لونها الأسود باهتا كأنها لم تغسل منذ فترة؛ أكبرهم كان طفلا في الثانية عشرة من عمره، أما ابنتاها فتبلغ إحداهما العاشرة، في حين لم تتجاوز الأخرى السادسة. كان الثلاثة ملفوفين تحت غطاء سميك، يرتجفون ويصرخون بلا انقطاع. وفي غياب الدواء لم تجد الأم سوى أن تسقيهم شاي الزعتر عله يخفف بعضا من آلامهم.

كان الصغار يتنفسون بصعوبة شديدة، وحين وضعت صفية كفها على جباههم المحمومة، شعرت أن رؤوسهم كالجمر تشتعل من شدة الحمى.

- ماذا تنوين أن تعطيهم؟ سألتها بقلق.

- شاي الزعتر فقط، عله يخفف عنهم الحمى ولو لبعض الوقت، أجابت دحلابة بصوت متعب.

لكن زانا بدت قلقة جدا بشأنهم ولم تخف جزعها:

- لقد ساءت حالتهم كثيرا.

خنقت المرأة شهقتها، ثم آثرت الصمت لتواجه الحقيقة القاسية بكل ما تحمله من أهوال. ترددت قليلا، ثم قالت بصوت مخنوق بالدموع:

-كان الأطفال يشتكون في البداية من آلام حادة في حلوقهم، ثم سرعان ما لاحظت تحولا في أصواتهم، فقد أضحت أصواتا خشنة أجشة ومبحوحة، وما فتئت أن ظهرت بقع على أجسادهم، ثم دخلوا في نوبات سعال شديدة، تتخللها تشنجات تكاد تخنقهم وتحبس أنفاسهم.

توقفت زانا عن الحكي لتبتلع دموعها، ثم تابعت بحزن يثقل ملامحها:

- لقد بدا كل شيء عاديا للوهلة الأولى حين عدنا إلى وادي الناموس، غير أنني لمحت حركة غير مألوفة حول المركز، شاحنات تجوب المكان وعربات مصطفة هنا وهناك، وآلات غريبة لم أر مثلها من قبل قرب المركز، ورجال ملثمون يرتدون أقنعة داخل سيارات، .. لكنني لم أهتم بالأمر خاصة حينما تأكدت أن أطفالي بخير داخل الخيمة، وما لبثنا أن سمعنا

أصوات محركات ومركبات تغادر المكان، وغرقت المنطقة في ظلام دامس إذ حل الليل وانتشر الظلام سريعا، فاستسلمت للنوم من تعب السفر ولم أستيقظ إلا في صباح اليوم الموالي باكرا لأعد القهوة.

ثم عادت المسكينة إلى صمتها المثقل بالأسى، وكأن الكلمات استنزفت ما تبقى من قوتها.

ومع حلول المساء، كانت صفية مستلقية في حجرتها محاطة ببناتها الصغيرات كانت قد أطفأت الشموع، فغرق المكان في الظلام، حاولت النوم غير أنه جافاها وخاصمها.

فراحت تسترجع شريط الأحداث منذ فجر اليومين الماضيين بدء بزيارة المجاهدين لهم، ثم عادت إلى الوراء واستذكرت الرحلة التي قادتها إلى قرية إيش بما اعتراها، وبدا كأن كل شيء مر بسرعة رهيبة لم تترك المجال لأحد حتى يستشعر خطورة ما يحدث، وحقيقة ما آل إليه الوضع. ثم فكرت في ذاتها وما أقدمت عليه وأدركت بقرارها الهروب، كانت قد وضعت نفسها خارج القانون بل وفي مواجهته، متحدية بذلك سلطة الاحتلال، لقد أصبحت تدرك جيدا أن طريقا طويلا بانتظارها.. وتساءلت في نفسها:

- ما الذي يمكنها فعله؟ وكيف يتوجب علها أن تتصرف؟

وهي تتأمل ما أصبحت عليه، عاهدت نفسها بالصبر والقوة في الأيام القادمة، رغم ما تعانيه من وحدة وقلق، ليس فقط

لغياب زوجها، بل لأنها وجدت نفسها وحيدة تماما في خضم هذه الرحلة الخطيرة. تزاحمت الأفكار في رأسها وتدافعت جملة واحدة بلا انتظام، بلا قدرة على فهمها أو دفعها بعيدا. وما فتئت أن أغمضت عينيها وسط عتمة الحجرة، لكن النعاس استعصى عليها، فقد كانت مشاهد جثث الحيوانات المحترقة والمتفحمة تطاردها. وحين استسلمت أخيرا للنوم، لم تكن صور الرحلة هي ما يؤرقها ويشكل كوابيسها، بل الصعاب التي لا تزال بانتظارها لمواصلة هذا الهروب.

في صباح اليوم التالي، سمعت صفية طقطقة تنبئ بصوت باب يفتح ليغلق مرة أخرى. لم تلق بالا وخمنت ربما تكون دحلابة قد استقبلت زوارا آخرين. وقفزت إلى ذهنها فجأة صور والدها وأخواتها، وهي تعد القهوة في المطبخ، بعد أن ملأت الإبريق ووضعته على النار، لقد اشتاقت كثيرا إليهم، فجأة اخترق السكون صراخ مفزع، ودفع باب المطبخ بعنف، وإذا بزانا تدخل، تلطم وتصرخ تضرب رأسها بيديها وتصرخ:

– ابنتي! ابنتي ماتت! يا رب ارحمني!

تركت صفية الإبريق وهرعت إلى الحجرة، فارتعدت فرائسها وارتعش جسمها، واصفر وجهها وكاد قلبها يتوقف وهي ترى بأم عينها الطفلة جثة هامدة الأمر.

– صرخت بأعلى صوتها.. لا.. هذا غير ممكن! صرخت.

وارتمت زانا على الجسد الهامد، وهي تبكي وتندب حظها

وترثي صغيرتها

– آاااه.. يا ابنتي المسكينة! آه يا إلهي! يا للمصيبة التي حطت على رأسي!

فشهقت صفية، وقد غلبها البكاء:

– آه يا إلهي.. يا إلهي!..

لم تستطع زانا كبح دموعها التي انهمرت بغزارة، بينما كانت صفية تراقبها في صمت وقلبها يعتصره الألم، وظلت الأم المفجوعة في ابنتها تردد بصوت يائس:

– آه يا ابنتي المسكينة.. اختطفك الموت وأنت بعد طفلة صغيرة! لماذا؟ لماذا يحدث معي كل هذا يا إلهي؟

أسرعت صفية لتستدعي دحلابة التي كانت في تلك الأثناء خارج المنزل، وحين عادت إلى الحجرة فوجئت بما كان كفيلا أن يجمد الدم في عروقها، لقد لحقت البنت الثانية بأختها ولاقت المصير نفسه، كان وقع الخبر أشبه بصاعقة على زانا وزوجها، ولم يطل الوقت حتى التحق الطفل الثالث بأختيه.

أطلقت زانا صرخة مبحوحة زعزعت ما حولها، حين رأت أبناءها الثلاثة مسجين بلا حراك، كان صوتها مقهورا ويائسا أشبه بحشرجة، أما زوجها فقد كان بجوارها يبكي في صمت، وقلبه ينزف ألما لا يطاق. وقفت دحلابة وصفية لكأنهما مشلولتين من هول المصاب، عاجزتين حتى عن مواساتها، فكل الكلمات لا تكفي ولا تفي، فيما اصطفت الجارات اللواتي جئن للتعزية وهن

يراقبن المشهد بذهول وصمت يترجم كل شيء، فقد كن غير قادرات على النطق حتى بكلمة عزاء.

للحظة كأن الزمن قد توقف ساد وجوم ثقيل، والجميع واقف في مكانه، عاجز عن فعل أي شيء، ثم امتزج نحيب زانا ببكاء بنات صفية اللواتي لم يكن يستوعبن ما يحدث. فهل ثمة ما يشبه هذه المأساة؟ غمرت الدموع وجه زانا، فهزّت رأسها بيأس، ثم نهضت بصعوبة، بالكاد قادرة على الوقوف، عيناها مثبتتان على أجساد أطفالها، قبل أن تخفي وجهها وتطلق نحيبا وعويلا يزلزل القلوب.

- يا لفظاعة ما حدث همست قائلة، أبنائي يا إلهي.. يا لمصيبتي !كانت دحلابة امرأة متمرسة وكيسة تعرف طبائع الناس في المنطقة، وتدرك كيف تكون ردود أفعالهم بحسب المواقف، وتقرأ ما في عيونهم من غضب أو حيرة أو غيره، وتترجمه وتتفاعل معهم وفقه، وتعلمت كيف تواسيهم بما في وسعها، لكنها وجدت نفسها هذه المرة عاجزة، محطمة، لا تجد ما تقول ولا ما تفعل. لقد زعزع كيانها موت أولئك الأطفال وهزها هزا لم تعهده من قبل، لقد كانت مصيبة تفوق التصور، كسرت قلبها وارتج لها كيانها. ساد صمت كئيب في الأرجاء، وألقى هذا الحدث المأساوي بظلاله السوداء على أجواء من الحزن الذي خيم على المكان بلا سابق إنذار، وأضاف إلى ما كان يعيشه اللاجئون من بؤس ما أثقل قلوبهم وزادها حزنا وأسى يضاف إلى ثقل المنفى.

أما صفية، فقد جلست تبكي بصمت، تحيط بها بناتها المذعورات أمام مشهد الموت القاسي. اشتاق قلبها إلى أهلها البعيدين، وتساءلت كيف لها أن تحتمل سنوات الغربة في هذا المنفى وحيدة، وبعيدة عن عائلتها. كان حزن الفقد يضاعف من مأساتها، وحزنها الذي زاده موت هؤلاء الأطفال مرارة وغضبا، خاصة وأنه كان فعلا شنيعا ارتكب مع سبق الترصد.

بدت أجواء المنزل خانقة وضاق بأهله من شدة الحزن، حتى تمنت صفية لو أنها استطاعت مغادرته. في الخارج، كان الجيران قد أخذوا يتجمعون في مكانهم المعهود، وتزاحم الفضوليون في جماعات متفرقة يتبادلون الأحاديث بشأن هذه الفاجعة الأليمة، يصحبهم في ذلك الأطفال الذين اقتربوا بجرأة ممن حولهم، ويرغبون في اكتشاف ما يحدث. وكان الحي يعرف حركة لا تهدأ، غدو ورواح ومجيء، وأصوات تختلط لتتحول إلى ضوضاء خانقة.

خرجت دحلابة من المنزل، وتبعتها صفية بخطى حثيثة سارتا بضع خطوات، ثم لمحتا ثلاثة رجال يتحدثون بصوت عال، على مسافة غير بعيدة عنهما، فالتقطت صفية شذرات من حديثهم، وأدركت على الفور أنه إمام القرية. وقبالته كان يقف رجل وقور، ذو ملامح جادة تبين أنه مجاهد كان طويل القامة، عريض المنكبين، على وجهه بعض التجاعيد بالكاد ترى، وعيناه تلمعان من شدة سوادهما، وشعره الكثيف شابته خصلات من الشيب الحديث العهد. علمت المرأتان فيما بعد أنه موكل

بمسؤولية تنظيم ما تبقى من رحلة الهروب إلى تاندرارة.

وما هي إلا لحظات قليلة حتى اقترب منهما رجل في الأربعين، ذو شارب كث، وأخبرهما أنهم مستعدون لدفن الأطفال. ومن بعيد كان ترتيل آي القرآن الكريم يسمع ويتردد صداه في الفضاء.

وفيما كانت بعض الجارات يتأهبن للخروج، كانت كل الأنظار متجهة نحو الرجال الثلاثة الذين قدموا، دعت دحلابة الزوار إلى الدخول، وقادتهم نحو الحجرة التي كانت تقبع فيها المسكينة زانا وزوجها. وما فتئ الإمام وهو رجل ستيني يرتدي جلابة تخفي جسمه النحيل، يقترب بهدوء من الجثث الثلاث الصغيرة المسجاة على الأرض داخل الحجرة، وهي ملفوفة في أغطية بالية، تأملهم في صمت وترحم على أرواحهم الملائكية الطاهرة.

- رحم الله أرواحهم، قال في دعاء مشوب بالأسى.

ثم سأل الزوجين، هل لاحظتما شيئا ملفتا أو غير عادي؟

وعلى الرغم من أن السؤال كان بسيطا، إلا أن الأب المكلوم لم يقو على الإجابة فورا، وبالكاد استطاع أن يأخذ أنفاسه ويستجمع بعض قواه. وقال بصوت منخفض ومكسور:

- لا، لا شيء على الإطلاق، كانت الجثث سليمة، أجاب ببساطة.

عندما كان يتحدث، بدا وكأنه يجد صعوبة حتى في اختيار كلماته، لقد كان في منتهى الإرهاق والصدمة المختلطة بالدهشة حد اللاوعي وواصل:

- لم تظهر عليهم أي علامات إصابة، تابع، لقد توفوا نتيجة حمى شديدة ناجمة عن استنشاق غاز في وادي الناموس.. واسترسل في الحديث كأنما يسترجع ما حدث بالتفصيل ،بدأ كل شيء عندما كنا في بني ونيف، لبيع ثلاث عنزات وبعض صوف الأغنام في سوق الأحد، أين سمع دوي انفجار قوي، فتراءت لنا من بعيد سحب سوداء كثيفة، أضحت معها السماء بأكملها دخانا لا يرى منه شيء، وعندما عدنا من بني ونيف إلى خيمتنا، وجدنا الأغنام والكلاب، وحتى البغل، في حالة وجوم وسكون تام، بالكاد كانوا قادرين على الحركة، في اليوم التالي، هلكت جميع ماشيتنا وحيواناتنا وفقدنا كل ما كان بحوزتنا، ولم نعد نمتلك شيئا. في تلك الأثناء بدت زوجته متهالكة وملامحها شاحبة، ترتسم تحت عينيها هالات سوداء من كثرة الدموع وفرط التعب.

ما قاله زوج زانا للتو كان الاستنتاج الأرجح للتشخيص، وبدا الإمام مقتنعا، في الواقع كان الجميع على علم مسبق بهذا المركز الغريب الواقع بين البلدين، والذي بدا أنه مركز سري ارتكبت فيه جريمة شنيعة ضد الإنسانية، ليتأكد الأمر بكل العواقب الناجمة عن التلوث كنتيجة للاختبار البكتيري والكيميائي الأول الذي أجراه الجيش الاستعماري، وهو ما لم يجرؤ أحد على الخوض فيه أو الحديث عنه، وما زال إلى يومنا هذا طي الكتمان، ودون أدنى محاسبة أو عقاب.

عقب ذاك الحوار المقتضب الذي دار بين الإمام، وزوج زانا،

قادت دحلابة الرجال إلى غرفة مجهزة بالبطانيات والملابس، جال الإمام في أرجاء تلك الغرفة المتواضعة، وتوقف عند صورة من الصور الفوتوغرافية التي لفتت انتباهه، والتي كانت مصفوفة على طاولة صغيرة قديمة مركونة في الزاوية، فتأملها طويلا، بعد لحظات عادت دحلابة ومعها صينية قهوة، فرأته يتمعن في تلك الصورة فبادرته:

- لقد كانا الرجلان الوحيدان في حياتي، ولكن الاستعمار حرمني منهما، وقتلهما.. أوضحت دحلابة ذلك دون أن تبدي أدنى انفعال.

- ما يقوم به جنود الاحتلال رهيب ومرعب! كيف قتلا؟.. سأل الإمام.

كان ابني البكر البالغ من العمر خمسة وعشرين عاما، حسم أمره وقرر الالتحاق بالثورة، لكنه لم يعد قط وقضى شهيدا، فوجدت نفسي وحيدة مع أخيه، ثم ما لبث أن أخذ قسرا لإقامة الأوتاد على طول الحدود، فانفجر لغم في وجهه أثناء العملية، فكانت صدمة كبيرة لي وأمرا مروعا لن أنساه ما حييت..

وبينما كانت تتحدث بتلك الشجاعة، كان الرجال الثلاثة يراقبونها، وانبهر الإمام ومن معه بجلدها وقوة صبرها وهدوئها واتزانها، وبدت أنها تجاوزت الأمر لتكرس نفسها لخدمة الآخرين والوقوف إلى جانبهم.

وهي تروي لهم تلك المأساة قال في نفسه: لا شك أن في كل

بيت جزائري شخصا مثل دحلابة، يروي قصة مشابهة لهذه المأساة بنفس الهدوء والإيمان الراسخ.

كيف كانت فرنسا الاستدمارية تفكر!!!!، كيف لها في اندفاعها المحموم ذاك أن تجري مثل هذه التجارب التي أجرتها في وادي الناموس؟؟؟، كيف لها أن تضحي بجنودها وتعرضهم لخطر كيميائي بكتريولوجي دون حماية؟؟؟، إذا كان هذا ما فعلته بأبنائها فكيف تشفق على غيرهم ممن احتلت أرضهم واستباحت عرضهم، لقد كانت فرنسا المتغطرسة تسعى للحفاظ على صورتها رغم انها صورة بشعة دنست الأرض وقتلت الأبرياء بلا ذنب، وأخفت جريمتها الشنعاء حفاظا على صورتها، صرح أحد المجاهدين، الذي بدا أنه على دراية واسعة بالأحداث وقال أن اختيار وادي الناموس لم يكن جزافا إنما لموقعه الاستراتيجي؛ فقد كان معزولا في طريق مسدود، لذا اختير لإجراء مثل هذا النوع من التجارب. والمفارقة في الواقع تكمن في أن هذا المكان المروع يقع على ما يقرب من مائتي كيلومتر من عين الصفراء.

شرب المعزون قهوتهم، وبعد لحظات اتجهوا إلى المقبرة لدفن الجثث الثلاثة على عجل وكأنما يسعون إلى دفن المأساة ومحوها من الذاكرة لعظمها، على الرغم من أنها لا تمحي، وأدى الإمام الصلاة عليها وخطبة الجنازة.

خارج المقبرة، تبادل الناس نظرات الحزن والأسى في صمت، وتلا الشيوخ آيات من القرآن الكريم، وكانت حبات المسبحة تنزلق بين أيديهم.

بعد ساعتين، توقفت حافلة أمام المنازل. كان الجميع في عجلة من أمرهم للمغادرة. سيطرت عليهم الرغبة الجامعة في الرحيل لدرجة أنهم نسوا للحظات مصيبة المرأة وزوجها، اللذين كانا يبكيان بصمت وهما منعزلين عن البقية.

دخلت دحلابة بخطوات حثيثة ومسرعة إلى المنزل لتعلم الجميع بوصول الحافلة:

- لقد وصلت الحافلة، تجهزوا للصعود سننطلق في رحلتنا صوب تندرارة..

وبدأت في مساعدة الجميع بكل ما أوتيت من قوة للانطلاق في هذا الرحلة. وقبل أن تغادر حرصت صفية على شكر عائلة بوستة وزوجته التي لم تقصر في خدمتهم وأثنت على استقبالها وكرم الضيافة وحسن الوفادة، ثم طلبت من بناتها الاستعداد للرحلة وحزم حقائبهن، دون أن ينسين الحقيبة الكبيرة ولف البطانيات، استعدادا للصعود في الحافلة فيما كانت تحمل صغيرها بلخير بين ذراعيها.

صعد جميع الركاب إلى الحافلة المهترئة بسرعة، وعلى الرغم من الألم الذي عاشوه مع عائلة زانا والطيب بفقدان أطفالهما، إلا أنهم كانوا سعداء بمغادرة ييش ويتوقون للوصول إلى تندرارة بأسرع ما يمكن.

وبمجرد أن استقر الجميع على مقاعدهم، تهيأ السائق لتدوير المحرك للانطلاق، لكنه بمجرد أن ضغط على الدواسة أصدر

المحرك ما يشبه السعال إيذانا بتعثر نهوضه، وأعاد الكرة مرارا وبدأ الجميع بالتململ خوفا من أن تكون الحافلة معطلة، ثم توقف بعد عدة محاولات فاشلة.. ضغط السائق على الخانق مرة أخرى، فعاد المحرك للسعال قبل أن يتوقف.

- الجو بارد، ما يؤثر سلبا على المحرك قال السائق وكأنه يطمئن الركاب.

لكن الأمر نجح نسبيا في البداية ومنذ المحاولة الأولى، طفق أحدهم شارحا يمنّي نفسه ومن معه أن المحرك سيعمل لا محالة.

- لكن أصبح الجو أكثر برودة الآن، تابع آخر.

- لننتظر قليلا، سيعمل المحرك حتما.

بينما كان الجميع يتحدثون كل يدلي بدلوه بشأن الحافلة وبرودة الطقس، ضغط السائق على دواسة الوقود مرة أخرى وإذا بالمحرك بدأ يعمل، ثم كاد أن يتوقف كما بدا من خلال صوته المبحوح، لكنه عاد للعمل مجددا وإن كان يبدو ضعيفا إلاّ أن ضغطة واحدة من السائق على الدواسة مرة أخرى كانت كفيلة باستجابة المحرك، لتنطلق الحافلة أخيرا بركابها.

- أتمنى لكم رحلة سعيدة .. تمنى لهم الإمام.

انطلقت الحافلة وهي تسير ببطء وكأن السائق يهادنها حتى لا تتوقف، وسار بها على طريق ترابي غير معبد يؤدي مباشرة إلى الطريق الرئيسية ذات الاتجاه إلى تندرارة. كانت صفية تحضن

ابنها بلخير بين ذراعيها، وتساعد في الوقت نفسه المكلومة زانا التي أعانتها على الاستلقاء كانت المسكينة تواجه صعوبة في الحركة، لقد خارت قواها وفقدت القدرة حتى على أبسط حركة، وبدت تترنح بشدة لأنها فقدت توازنها من شدة ما ألم بها، كيف لا وهي مصيبة تنهد لها الجبال وتتفتت منها الصخور، لقد ارتسمت على وجهها كل ملامح اليأس والاكتئاب والغضب، كل تلك الأحاسيس اجتمعت على وجه امرأة مزق الألم أحشاءها، .. جلست المرأتان مع بعضهما البعض والصمت يهيمن عليهما على طول الرحلة، لقد كان الألم أكبر من كل الكلمات وأقوى من كل الألفاظ، ويفوق قوة أي إنسان يتسم بالصبر والجلد، لقد هوت زانا بهذا الحزن في بئر عميقة بلا قرار ولا يمكن انتشالها.

وأخيرا سمع صوتها، بعد أن وضعت المسكينة يدها على رأسها وقالت بصوت خافت، لا يمكن لصفية أن تنسى نبرته:

- آه رأسي يكاد ينفجر.. آه! يا صغاري المساكين! لن أراهم مرة أخرى!

لم تتمكن صفية من التعقيب ولو بكلمة واحدة، كان الألم أكبر من أن تتحدث عنه أو تجيب؛ لقد كان الغضب يتملكها بشدة، ما الذي فعلته هذه المسكينة حتى تبتلى في صغارها بهذا الشكل الفظيع، ما أقسى العدو الذي لم يرقب في الناس إلا ولا ذمة، .. حدقت بعيدا، وبدت وكأنها منفصلة تماما عن الواقع المحيط بها.

بمجرد وصول الحافلة إلى تندرارة توقفت بعد أن جابت القرية بأكملها، وصولا إلى مجموعة من المنازل، ألقى المسافرون نظرة وإذا بأحياء فقيرة بائسة منتشرة شكلت ملجأ للاجئين، تحمل في ثناياها كل مظاهر البؤس الذي خلق، وبدت وجوه أولئك البؤساء من اللاجئين لا تقو على تقديم شيء غير بؤسها اللافت ورسالة عن وضعها المزري.

الفصل السابع

بين القمع والمقاومة

لم تمر ثلاثة أيام على مغادرة صفية وأبنائها عين الصفراء، وهروبهم من بطش المحتل، حتى قامت الفرق الإدارية المتخصصة (SAS) باستدعاء كل أفراد العائلة لاستجوابهم والتحقيق معهم، وكان ذاك الأمر متوقعا، فبعد الأحداث والتطورات التي عرفتها المنطقة التحق معظم الرجال بالثورة، أما من بقى منهم فقد كانوا حريصين على دفع الاشتراكات سرا وبانتظام لدعم جبهة التحرير الوطني، وتم فرض حصار على حي القصر وضرب طوق أمني كبير عليه، حتى أن السكان ممن يخدمون أراضيهم، ملزمون بالمرور من الباب الثاني فقط أين تمت مضاعفة الإجراءات الأمنية في المركز العسكري للمراقبة، وباتت الحراسة مشددة، ولم يعد يسمح لأحد بالدخول أو الخروج من حي القصر، إلا بترخيص عبر هذا المعبر الوحيد، وزيادة على ذلك فإن المارين يخضعون إلى تفتيش دقيق قبل السماح لهم بالدخول.

تم تضييق الخناق خلال هذه الفترة على حي القصر وتطويقه بالكامل، بواسطة خط مكهرب متعامد مع خط موريس الذي يمر على بعد أمتار فقط، كما تم تعزيز الجهاز الأمني بإنشاء مركزين آخرين للحراسة، فأضحت بذلك حركة الإمدادات صعبة للغاية، وكانت تلك ضربة قوية قصمت ظهر المسبلين الملزمين بإيصال المساعدات والمؤن للمجاهدين.

لقد بات حي القصر المقاوم خال على عروشه، غادره الرجال الذين التفوا حول الثورة، ولم يكونوا الوحيدين في ذلك، فأغلب قبائل عين الصفراء لم تتأخر عن تشجيع، وتحريض أحسن رجالها وأقواهم للالتحاق بالجبال على غرار عروش أولاد عليات وأولاد عامر من الصوالة، أولاد شحمي، أولاد عبد الله، المذابيح، لمرينات، أولاد سيدي أحمد مجدوب، أولاد قطيب والعديد من القبائل الأخرى التي لم تتوانى ولو للحظة عن دعم معاقل الثورة بأفضل رجالاتها.. لقد أسدى هؤلاء الرجال الأشاوس صنيعا كبيرا للثورة باعتبارهم من أبناء المنطقة، وذلك بفضل معرفتهم الدقيقة بها وأسهموا في تسهيل عمليات التحركات والتنقلات الآمنة بعيدا عن أعين العدو، وذلك عبر ممرات ومسالك ودروب لا يعرفها سواهم، ناهيك عن أن بيوتهم كانت على الدوام مأوى للمجاهدين الفارين، والمبحوث عنهم من السلطات الأمنية للمحتل. ولم يتخلف سكان القصور بدورهم في أن يكونوا سندا للثورة ودعما لها، سواء بأبنائهم من الرجال أو بالمؤن والإمدادات، على الرغم مما يعيشونه من قلة ذات اليد وفقر وعوز.

تم اقتياد والدة دحان وأخته إلى المكتب للمساءلة والاستجواب، وكانتا خائفتين حد الارتعاب، لأن من يدخل ذاك المكتب يتعرض لأقسى وأبشع أنواع التعذيب، وبشتى الوسائل لانتزاع المعلومات منه عنوة وبالقوة، وهما تلجان المكان مرتا بردهة، وهنا قابلهما مشهد مرعب فزعتا منه كثيرا وارتعبتا، رجال

مستلقون على الأرض نصف عراة وهم يئنون، وكذا شبان وعجزة يتلوون من شدة الألم، وآثار التعذيب بادية على ظهورهم ما ينبئ عن مدى وحشية جلاديهم من المستجوبين والمحققين.

شرع الضابط بحزم في مساءلة العجوز وهو لا يشيح ببصره عنها، فسألها عن ابنها الثاني الذي التحق بالثورة هل ذهب إلى قاعدة وجدة، وهو بلا شك يعلم الإجابة.

- لا أعلم، ردت عليه بتثاقل، لم أر ابني منذ وقت طويل.

انتظر لحظة قبل أن يسألها سؤالا كانت تتوقعه.

- أخبريني بما لديك من معلومات، من هم الأشخاص الذين قادوا زوجة ابنك إلى الحدود؟

- لا أعرف ردت عليه من جديد دون أن تضيف كلمة أخرى..

وهي تستقبل زوارها الجدد من اللاجئين كانت القرية المغربية تندرارة الواقعة بالمنطقة الشرقية بقاطنيها من رحالة بني غيل، تشهد سقوطا غزيرا للأمطار، وهي التي عرفت بقساوة مناخها خاصة في فصل الشتاء. فبعد أن توقفت الحافلة بهذه القرية الصغيرة، نزل المسافرون وقادهم المرشد إلى طرف مجمع سكني بأحد الأحياء، يحده صف من النخيل وهناك كان بانتظارهم ثلاثة من الرجال الذين بادروا بالترحيب بهم، وفتحوا لهم باب أحد المنازل.

- أدخلوا، مرحبا بكم! قال أحدهم.

قبل وصول الوافدين إلى المكان الذي سيستقرون به ولو مؤقتا، كانت هنالك امرأتان مع أطفالهما تشغلان البيت من قبل، وبدخولهم بدأ الجميع يتوزعون هنا وهناك لحجز أماكن لهم، وبدأ كل منهم يبحث عن حجرة ليشغلها، وازدحمت السلالم المؤدية إلى الطابق العلوي بالقادمين المتعبين، وفي هذه الأثناء علا صوت المؤذن معلنا دخول وقت الصلاة بين أرجاء الحي مثيرا سربا من العصافير، التي حلقت حول صومعة المسجد.

بالقاعة الكبرى كان هنالك أربعة رجال يشغلون ركنا فيها، اقتربت دحلابة منهم وشرعت في محادثتهم، فلاحظت منذ البداية أن الجميع يعرفون بعضهم بعضا، باستثناء الرجل الذي تولى عملية الوساطة، وهذا ما ترجمته بهجة اللقاء وفرحته التي عكستها المشاعر الدافئة، التي ظهرت عبر العناق والمحادثات هنا وهنالك، والأصوات المتعالية والضحكات، كانت فرحة لم شملهم في هذا المكان الآمن لا تضاهى لقد شعر اللاجئون أخيرا باستعادة أمنهم وأمن أبنائهم.

بدأت ملامح صفية تنفرج وأساريرها تتهلل بعض الشيء موحية بفرحة خفية، وبدا بريق من الأمل يتألق في عينيها، لقد كانت تتوق للقاء زوجها الذي اشتاقت إليه وكلها رغبة في أن تسرد له قصة رحلتها، وتحكي له كيف عبرت مع أبنائها الحدود واجتازتها بعد رحلة طويلة، ولكنها قررت بينها وبين نفسها أنها لن تخبره عن معاناتهم من قساوة الطقس والبرودة الشديدة

وكيف تحملوها، لن تروي له ما واجهته وأبناءها من محن وصعاب حتى أن الجوع كاد يهلكهم، كانت تشفق عليه وتقول في نفسها: ما الجدوى من إدخال الحزن إلى نفسه؟

باتت صفية ليلتها تتقلب في فراشها دون أن تأخذها سنة من نوم، وإذا غفت أقضت الكوابيس مضجعها.

كانت دحلابة الوحيدة التي تشع حنوا على كل من عمّر المكان من اللاجئين، ترتسم على محياها ابتسامة عريضة كلها ثقة وهي تتجول في هذا المنزل الذي بدأت تكتشفه للتو، في الواقع لم يكن الوعي الذي تتسم به دحلابة والرصانة التي تميز شخصيتها وليدة اللحظة، بل كانت نتاج خبرات وظروف عاشتها لسنين طوال، لتجد نفسها الآن في قلب الأحداث وهي امرأة ناضجة بما يكفي لتتعامل مع الأوضاع، وتتفاعل مع كل من حولها وتتقاسم مع الجميع آلامهم وآمالهم، ومحنهم ومعاناتهم وحتى أفراحهم، لاسيما فرحة الوصول إلى مدينة تندرارة، التي لم تكن لتمحو آثار القلق من المجهول على وجوه أولئك اللاجئين المهمومين الفارين من الاضطهاد.

وعلى الرغم من أن ظروف المعيشة كانت قاسية، إلا أنهم كانوا على الأقل في مأمن من ملاحقة العدو لهم.

مرت بضع أسابيع ،حتى علمت دحلابة من أحد المجاهدين أن دحان وآخرين من الذين تتواجد عائلاتهم بتندرارة، قد غادروا جبل بني سمير وحولوا إلى قاعدة وجدة التي أطلق عليها اسم

الشهيد البطل العربي بن مهيدي، وهي قاعدة تكتسي أهمية استراتيجية للثورة ومستقبلها، وكانت تضم مقر قيادة أركان الثورة، ناهيك عن أنها قاعدة لتدريب المجندين الجدد في صفوف جيش التحرير الوطني، وملجأ آمن في حالة الانسحاب، كما أنها تحتوي على عيادة لإسعاف الجرحى، والأهم من كل هذا وذاك أنها مركز هام لإمداد أفراد جيش التحرير الوطني بالأسلحة والذخيرة.

كانت مهمة دحلابة قائمة على تنظيم السفر إلى وجدة، بعد أن تتهيأ الظروف وتسمح بذلك، وإلى ذلك الحين كان اللاجئون قد استقروا بذاك المنزل بتندرارة، التي لم تكن تتوفر على الغاز والكهرباء، وتعرف ندرة في متطلبات الحياة التي تكاد تنعدم، ولأن معظم سكان المنطقة من البدو الرحل من مربي المواشي والأغنام من قبيلة بني غيل، فقد كانوا يكتفون بإشعال الشموع أو استعمال المصباح الزيتي للإضاءة أحيانا.

أنشئت مدينة تندرارة في منطقة صحراوية مقفرة تابعة لمقاطعة بوعرفة، وكان تسييرها على يد خليفة كان له صلاحية إدارية أيضا. وقد سهلت السلطات المغربية إقامة القواعد الخلفية للثورة على أراضيها، وكان الجزائريون آنذاك يتمتعون بشعبية كبيرة بين أوساط الشعب المغربي، هكذا كانت الانتفاضة الجزائرية بمثابة المحفز المواتي لنيل الكثير من دول المغرب الكبير استقلالها، ولا شك أنه لم يكن شيء ليتغير في بلدان الجوار لولا الثورة الجزائرية وتضحيات المجاهدين.

لقد كان لجوء العديد من الجزائريين إلى الأراضي المجاورة، إنما هروبا قسريا من جور الاحتلال وقمعه، لذا وجد هؤلاء أنفسهم في خضم حياة جديدة، وظروف وصعوبات أملتها هذه الحياة بنمطها، ما دفع بالكثير منهم لاسيما الآباء للعمل في أراضي الحلفاء لضمان قوت عيالهم، كان العمل شاقا حيث يتعين عليهم مقابل بعض الكيلوغرامات من السكر، أن يقتلعوا الحلفاء، ويجمعوها بعد ذلك، ثم يتولون لفها في شكل حزم، ليتم نقلها بعد ذلك على ظهور الحمير إلى المستودعات، قبل أن تحول إلى فرنسا.

كانت صفية تشغل جناحا خاصا بها وبأبنائها وسط مركز تاندرارة؛ حيث كانت دار اللاجئين تمتد بمبانيها ذات الطابع العمراني القديم ذو الجدران المتينة، وفي ظل تقسيم المبنى بالتساوي كان لكل عائلة الجناح الذي يخصها، وسرعان ما تولدت بينها أجواء من الألفة الاجتماعية الحميمية الدافئة.

وبما أن البنات لم يكن مسجلات بالمدرسة، فقد كن يساعدن صفية بالمطبخ والقيام بالأعمال المنزلية الأخرى. وكان يشغل الحجرة المجاورة أهل ميلود الذي لم يكن في مقدور والده المصاب بإعاقة في جسده أن يلتحق بصفوف المجاهدين، فبقى هناك ماكثا بالبيت ومرافقا للجد. وإلى الخلف من الجانب الآخر كان يقيم الزوجان الطيب وزانا اللذان قدما من وادي الناموس، وقد أضحيا وحيدين بعد أن فجعا بفقدان أبنائهما بشكل مأساوي. وأخيرا في ركن آخر من الدار تمت تهيئته، كانت

تقطن امرأة مع والد زوجها بينما التحق هو الآخر بصفوف المجاهدين.

أوشك فصل الصيف على الانقضاء، وراح اللاجئون يسجلون أبناءهم للعام الدراسي **1957-1958** بالمدرسة الابتدائية لتندرارة القريبة من مركز اللاجئين.

كان ميلود ابن الجار الجنب محظوظا، إذ تم قبوله في السنة الثانية بحكم دراسته مسبقا للغة الفرنسية بعين الصفراء. وبحلول فصل الشتاء، كانت ظروف العيش تزداد صعوبة بسبب تقلبات الجو، ولم يكن على اللاجئين سوى التحمل والتأقلم مع تلك الأجواء المناخية القاسية لهذا الفصل.

يذكر أن جبهة التحرير الوطني كانت تتكفل بالأطفال الجزائريين بأرض المنفى وتنظم لفائدتهم العديد من النشاطات كأداء الأناشيد الوطنية، بالإضافة إلى عدد من البرامج ذات الطابع الثقافي والتربوي..

في أحد الأيام حضرت صفية مرفوقة بأبنائها حصة يشرف عليها أحد المعلمين اللاجئين ممن درسوا بوجدة، وصادف أنه كان يعلم للإخوة الآخرين بمركز اللاجئين نشيد الثورة المشهور:

"أشنقوني أشنقوني، فلست أخشى حبالا واصلبوني، فلست أخشى حديدا أنا إن مت، فالجزائر تحيا حرة مستقلة، لن تبيدا..".

كان هذا النشيد يقدم بوصفه حكاية عن مجاهد أو مجاهدة،

بحسب الفئة المعنية من الجمهور رجالا كانوا أو نساء، اعتقلته أو اعتقلتها السلطات العسكرية بهدف انتزاع المعلومات تحت وطأة التعذيب، ليرفع عندئذ المناضل رأسه شامخا مرددا عاليا هذا النشيد. وكان المعلم يذكر لتلاميذه أن هذه الأبيات نظمت في حق البطل العربي بن مهيدي إن كانوا ذكورا، وفي حق جميلة بوحيرد إن كن إناثا. كانت مثل هذه الدروس تهدف إلى زرع الحس الوطني لدى الرجال والنساء والأطفال، وتعريفهم بأبطالهم الذين ضحوا بأنفسهم من أجل استقلال بلدهم.

كانت هذه المدارس تستقبل الأطفال الذين لم تتح لهم الفرصة للالتحاق بمقاعد الدراسة لأسباب مختلفة، أما الذين تجاوزوا سن الثالثة عشرة فكانوا يتابعون فضلا عن برامج التعليم العام، دروسا في الرعاية الصحية والإسعافات الأولية، ويتعلمون تقنيات القتال وحتى كيفية استعمال السلاح؛ أي كل الأعمال الخاصة بالتجنيد التي يقوم بها المجاهدون. وأما نتائجها الإيجابية فلم تكن على المستوى التربوي فحسب، وإنما على المستوى المعنوي أيضا، الذي كان له وقع كبير على المقبلين على الانخراط في صفوف الثورة.

ومن جهتها كانت جبهة التحرير الوطني تقيم حفلات خاصة باستذكار أيام بعينها، توجه فيها الدعوة للتلاميذ لقراءة خطابات مرتجلة بالمناسبة. وكانت تلك طريقة فعالة بلا أدنى شك لتحضير رجال الغد.

- كم أنت محظوظ يا ميلود! هتفت إحدى الجارات بفرح،

لست إلا في سن الثالثة عشرة وتم اختيارك للصعود إلى المنصة!

- لابد أن يكون والداك فخورين بك، وبكل ما تتمتع به من مهارات... حتما ستصبح مسؤولا كبيرا في المستقبل! أضافت أخرى.

- أحسنت يا ميلود، أنت مثل أعلى لزملائك! قالت جارة ثالثة.

وفي اليوم الذي حضر فيه رجال جبهة التحرير الوطني لإحياء يوم من أيام للثورة التحريرية الخالدة، اعتلى ميلود المنصة ووقف أمام الحضور الذين غصت بهم القاعة، تتصدرهم شخصيات قيادية في الحزب، وأمام فخامة المجلس ورهبة الحضور النوعي انعقد لسان الفتى لدرجة أنه نسي موضوع المناسبة الخاصة بالاحتفال، الذي كان يتعين عليه تقديمه.

- إنها قوة المشاعر شابها الارتباك، قال أحد المسؤولين ليرفع الحرج عن الفتى.

- دعوه يستعيد أنفاسه، تدخل آخر.

في وقت لاحق كان للميلود وابنة صفية الحظ في الاستفادة من عطايا سنة **1958** لفائدة أطفال اللاجئين والتي تبرعت بها الأميرة لالة عائشة ابنة الملك محمد الخامس، دخلت الجارة الحجرة وأعلنت عن الأمر المفرح ثم سألت جارة أخرى:

- أنا سعيدة لأن ابنتك هاجر وميلود ضمن قائمة المستفيدين من الإقامة في المنتجع الساحلي بالسعيدية.

- هل صحيح أن مخيم العطلة الصيفية هذا مخصص لخمسين جزائريا أتوا من منطقة فقيق، وبوعرفة، وتندرارة، برغنت ووجدة؟ سألت اخرى.

- نعم بالضبط..

يا لها من فرصة جيدة لهؤلاء الأطفال المساكين، أخيرا سيكتشفون زرقة البحر ونسيمه اللطيف!

- وليتجولوا أيضا في غابة المعمورة وبمدينة المحمدية ويشموا شذا الزهور، ويستمتعوا برؤية الحيوانات أضافت.

لم تسمح صفية للأسف لابنتها هاجر بالالتحاق بالمجموعة، فقد كانت تريد أن تحفظ بناتها من كل مغريات الحياة ورفاهيتها وعذاباتها.

ذات يوم من شهر جوان من عام **1958** وتحديدا يوم السوق الأسبوعية المحلية التي كان يتردد عليها الكثير من أولياء تلاميذ المنطقة وعلى غير عادته، عاد ميلود مبكرا من المدرسة رفقة عدد من زملائه، وكانت صفية وقتها مع بلخير وبناتها، وفجأة رأت منزل ميلود وقد حاصره جماعة من المدنيين المسلحين، فأسرعت هي وجارتها مع أبنائها باتجاه مكتب جبهة التحرير الوطني أين وجدتا حشدا من الأشخاص، .. لم يكلف أحد منهم نفسه عناء توضيح ما يحدث أو يشرح لهما ما يجري، واكتفى الجميع فقط بالتربيت بلطف على أكتاف الطفلين الصغيرين على سبيل المواساة كما كان ظاهرا لهما!

لم تفهم صفية شيئا وعادت أدراجها رفقة أبنائها بسرعة إلى بيت ميلود؛ حيث لم يجدوا سوى الجدان يبكيان بحرقة ويلعنان المعتدين الذين اقتحموا بيتهم واختطفوا ابنهم.. والد ميلود المقعد، والرجلين الآخرين اللذين كانا حاضرين، ثم اقتادوهم بقوة إلى سجن مغربي، كان ذلك مصيرا محزنا ينتظر للأسف العديد من اللاجئين.

جلس ميلود وابن عمه بالقرب من الجد ليسمعا روايته للوقائع. لم يستسلم الرجال الثلاثة للوضع بل ذكروا نظراءهم بحسن الاستقبال ومعاهدات الصداقة.. ولكن دون جدوى.

كان زعيم حزب الاستقلال علال الفاسي قد أسس حركة المقاومة المغربية في فترة **1957-1958**، وكان هذا الحزب آنذاك يرى أن جزء معتبرا من بلاد الجزائر وموريتانيا ومالي جزء من التراب المغربي، بحيث تمتد الرقعة الجغرافية التي يعتبرها هؤلاء ملكا للمغرب في الجزائر -حسب زعم هذه الحركة- جنوب مدينة سعيدة لتمتد إلى غاية الحدود مع مالي وموريتانيا.

لم يدخر مناضلو هذه الحركة المغربية جهدا في استعمال كل الطرق لإجبار اللاجئين الجزائريين على التجنس بالجنسية المغربية، ودفعهم إلى الإعلان صراحة عن انتمائهم إلى النظام المغربي الملكي. وأطلق على هذه العملية (التشنقيط والتزوكيت) في وصف أولئك الذين خضعوا للضغط وأذعنوا فسموا بالشناقطة والمزوكتين بينما تعامل للاجئون الآخرون مع الأمر بالحيلة، حتى يحموا أنفسهم بالرد بذكاء قائلين: في الوقت الحالي

نحن كلنا تحت هيمنة عدو مشترك، فرنسا الكولونيالية، أما فيما يخص اختيار الجنسية فسيتم البت فيه لاحقا.

لم يكن والد ميلود والرجلان الآخران اللذان يواجهان معه المصير ذاته يطلبون الكثير، عدا أن تتم معاملتهم معاملة لائقة، وأن ينصت إليهم على الأقل، غير أن أولئك الرجال المغاربة كانوا لا يستمعون إلا لصوتهم وأمعنوا في الضغط عليهم من أجل القبول بالتجنيس، وكأنه لا خيار لهم. وإزاء تمسك ميلود ومن معه بجزائريتهم، وعدم الانصياع للضغوطات الممارسة عليهم، تم اتهامهم بالتحريض على الشغب قبل زجهم بمركز تديره هذه الحركة بتندرارة، ليتم نقلهم على متن سيارات بعد ذلك إلى بلدة بوعزة قبل أن يتم اقتيادهم إلى جنوب المغرب بأرفود والريصاني بنواحي تافيلات، أين تم إخضاعهم لشتى أنواع التعذيب وويلاته لمدة أربعة أشهر لكي يستسلموا للأمر الواقع، فقد كان المغاربة يريدون تجنيس هؤلاء بأي ثمن كان، غير أن الرجال الثلاثة ظلوا ثابتين على موقفهم، مخلصين لوطنهم وفخورين بخدمة الثورة ولم يكونوا ليخونوا أبدا العهد الذي أخذوه على أنفسهم تجاه تضحيات الشهداء.

كان حزب الاستقلال يعمل على قدم وساق لتجنيد الجماهير للتظاهر، منتهزا بذلك مختلف المناسبات والاحتفالات الوطنية المغربية لرفع شعارات تنادي في مجملها بإلحاق الصحراء إلى التراب المغربي، وانتظمت الكثير من التجمعات خاصة بالمنطقة الجنوبية الشرقية من المغرب، حيث ترأسها زعيم الحزب علال

الفاسي، أين ألقى فيها خطابات جد حماسية لاسيما بتندرارة، وكان الكل ينشد بصوت واحد: لنا المغرب وقريبا الصحراء، يحيا الوطن، شرقا وغربا! يحيا الملك! يحيا علال الفاسي!

وعلى الرغم من كل تلك الأحداث التي جرت هنا وهناك، والاعتقالات والمحاولات الخاصة بالتجنيس، إلا أنها لم تكن لتؤثر على عمق العلاقات الأخوية بين المملكة المغربية والثورة الجزائرية، فكل الخلافات العالقة بين الطرفين، كانت الحكمة سبيلا إلى حلها، مما أفسد كل النوايا الخبيثة والمحاولات الدائبة لتعكير صفو التقارب بين الشعبين الجزائري والمغربي، وجمعت محادثات على أعلى المستويات بين جبهة التحرير الوطني والقوات الملكية المسلحة، أسفرت عن إطلاق سراح المعتقلين وتسليمهم إلى الجبهة بمدينة فقيق جنوب شرق المملكة، كان فيها موقف جبهة التحرير الوطني مشرفا وعلى قدر كبير من الاتزان والحكمة في معالجة قضية التجنيس، وما انجر عنها من تبعات بذكاء، أخذوا فيها بعين الاعتبار احترام قوانين البلد المضيف المغرب؛ الذي كان بمثابة القاعدة الخلفية للثورة، وله الفضل في استقبال اللاجئين وتوفير المأوى لهم، وبذلك تجنبت الجبهة كل ما من شأنه أن يسيء إلى عمق العلاقات بين الشعبين محافظة على الرباط الأخوي بينهما.

لم تكن جبهة التحرير الوطني تضطلع بالكفاح المسلح فحسب، بل كانت حريصة على التعليم ونشر الوعي بين الجزائريين، وكان أثير الإذاعة وسيلة هامة من وسائل التوعية

والتعبئة الجماهيرية؛ حيث كان الجميع يلتفون حول المذياع باهتمام، يتابعون بشغف بطولات المجاهدين التي يسردها بكل فخر عيسى مسعودي، بصوته القوي وموهبته الاستثنائية ونبرته المتفردة، فيلهب حماسهم وحماس كل الوطنيين الجزائريين.

لقد زرع الصوت الثائر لعيسى مسعودي الروح الوطنية والحماس الثوري في نفس التلميذ ميلود وزملائه في المدرسة، وكبر هؤلاء على حب الثورة والاستعداد منذ الصغر للالتحاق بها، إيمانا بعدالتها وعظمتها. لقد أحب الصغار والكبار صوت عيسى مسعودي وهو يصدح عبر إذاعة صوت العرب: "هنا صوت الجزائر الحرة"، هكذا كانت اللازمة التي يبدأ بها المذيع مفتتحا ليسترسل مواصلا نداءه بنفس الحماس: "الصوت الذي يناديكم، الصوت الذي يكلمكم من قلب الجزائر "... كان صوته صوتا مجلجلا يحيي القلوب الميتة! صوت ينقل بصدق ذاك الحماس المتقد كما في قلوب الثوار للشعب الجزائري الذين هم من رحمه، حتى أضحى هذا الشعب رمزا للكفاح والنضال.

بعد فترة من اللجوء إلى تندرارة ،استقرت صفية ومن معها بالمنطقة، وأصبحت تتنقل مع جاراتها فيذهبن من حين إلى آخر إلى السوق الأسبوعية الحبلى بالاحتفالات، والتي كانت قبلة الشعراء المحليين أو ما يعرف بالمداحين الذين يقبلون على هذا الموعد الأسبوعي دوريا، يصورون بقصائدهم الملاحم البطولية للثوار، ويسردون عن المعارك الكبرى التي قادها الرسول ﷺ وأصحابه ضد المشركين، وكل الحكايا والقصص التي تعبر عن

الظلم بأشكاله. كان الشعراء المغاربة منهم والجزائريون يصنعون الحدث بهذه الأجواء التي تزيد من بهجة الزوار وفرحتهم.

ولم يكن سوق تندرارة الأسبوعي يقتصر على ذلك فقط، بل كان البيع والشراء يسير بالموازاة مع احتفالية المداحين، إذ يصطف حشد من الباعة المستقرين، والباعة المتجولين، ويعلو صياحهم ترويجا لسلعهم دون أن ننسى ممارسي الطب التقليدي، وبائعي الأعشاب الذين يتنافسون في بيع هذه السلع وغيرها، ويصيحون بملء أصواتهم لبيع بضائعهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد حلقات من جموع المواطنين حول الخدع والألعاب السحرية التي تستهوي أغلب مرتادي السوق؛ حيث يتفنن اللاعبون في استعراض مهاراتهم وتلك القدرات الخارقة التي يتمتعون بها على غرار تحويل الحلوى إلى بيض، أو إخراج الحمام أو حتى الأوراق النقدية بحيلة من تحت قطعة قماش. بينما يقوم آخرون بعرض مهاراتهم التي تدعوا إلى التعجب والخوف في الوقت نفسه، كأن يبتلعوا سلسلة من الشفرات الحادة، أو يطعنون أنفسهم بخنجر دون أن تسيل من أجسامهم قطرة دم واحدة، أو ما يستعرضه سحرة الثعابين من مهارة في التحكم بها، أو أولئك العارضين الحفاة ،الذين يسيرون على زجاج مكسور وحاد دون أن يتعرضوا لأدنى أذى، تحت انظار المتسوقين الذين يتعجبون مما يرون من استعمال السكاكين الحادة أو المشي على الجمر، أو ثقب الخدود بالإبر إلى غير ذلك من العروض الأخرى، التي تغري بمتابعتها رغم ما تثيره من

خوف، لتستمر المتعة مع مروضي القردة...كان هؤلاء جميعا بحيلهم المتنوعة وعروضهم الشيقة يقاومون للبقاء في عالم بائس، ويسعون إلى كسب قوت يومهم.

الفصل الثامن

معركة مزي

بعد التحاقه بمعاقل الثوار والمجاهدين ،تنوعت النشاطات الحربية والمواجهات العسكرية التي شارك فيها دحان من بينها المعارك والاشتباكات التي كانت على مستوى جبال بوجرانة، وعرعار، ومكثر، وبني سمير ليتم تحويله بعد ذلك إلى مقر قيادة جيش التحرير الوطني في وجدة على الحدود المغربية. ومع بداية **1960** صدرت قرارات هامة من طرف قيادة الجيش، تقضي بإرسال مجاهدين مدربين تدريبا جيدا ومجهزين بأسلحة حديثة لتعزيز الجبهة الداخلية، والمشاركة في المواجهات العسكرية، والإسهام في دعم الجهود التي يقوم بها المجاهدون داخل الولايات، وخوض حرب العصابات التي كانت تشنها وحدات جيش التحرير الوطني ضد القوات الفرنسية.

كانت المهمة التي قررت القيادة تنفيذها، تقضي بتجنب مواجهة الجيش الفرنسي على الحدود، ومحاولة عبور المجاهدين خط موريس المكهرب، والتسلل إلى داخل التراب الوطني محملين بالأسلحة والذخيرة، وبالإمدادات والدعم للمقاومة المسلحة. ولم تكن تلك المهمة سهلة؛ لأن الأمر كان يشكل مخاطرة كبرى تتطلب تجاوز الخط المكهرب الذي أقامه الجيش الفرنسي على طول الحدود، ومن ثمة فمواجهة العدو احتمال وارد لا محالة ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال استبعاده، لاسيما وأنه كان على علم تام بأدنى تحركات جيش

التحرير على الحدود من كلا الجانبين وعلى طول خط موريس.

لم يتم الخوض في فكرة مهاجمة القوات الفرنسية أو خلق حالة من الاستنزاف أو زعزعة الاستقرار القائم بالمنطقة؛ لأن الوقت لم يكن مواتيا تماما لمثل هذه العملية، لكن الذي كان يشغل بال القيادة حينها هو فقط التمكن من عبور الخط المكهرب مهما كلف الأمر.

ولهذا الغرض تم تجنيد قوة تقدر بثلاثة فيالق، يضم كل فيلق منها أربع كتائب مجهزة بالأسلحة الفردية والجماعية، ومدافع الهاون، والعتاد الخاص بقطع الأسلاك الشائكة في خط موريس. كانت تشكيلة الفيالق متكونة بالأساس من الشباب الذين جندوا من أبناء العائلات الجزائرية التي فرت من بطش الاستعمار الفرنسي، ومن أولئك اللاجئين في الأراضي المغربية لاسيما (وجدة، بركم، تندرارة، بوعرفة)، كما كانت تضم أيضا جزائريين آخرين قدموا من مناطق أوروبا، بدافع الوطنية للذود عن حمى بلادهم المستباحة.

تم اختيار بلدة أو قرية سوف اقصر الواقعة على الحدود المغربية والمتاخمة لمنطقة عين الصفراء، لتكون ميدان التدريبات والتحضيرات، وقد اختارت القيادة هذا المكان لأنه كان متواريا عن الأنظار بسبب وجود العديد من المغارات المحمية التي يمكن استغلالها للتمويه، والاختباء، كما يمكن اتخاذها مراكز عسكرية لإدارة العمليات بعيدا عن أنظار العدو، وتجنبا لمتابعة المخبرين من الخونة وغيرهم. وقد أشرف قائد

المنطقة الثامنة بنفسه على التحضيرات لهذه المعركة غير المتوقعة والخطيرة لمدة شهرين كاملين.

قامت التدريبات في المعسكر أساسا على تعلم مختلف الطرق التي تمكن المجاهدين من عبور الخط المكهرب، وكيفية فتح الممرات أمامهم، وقد تدرب المقاتلون على كيفية استعمال سلاح البنغالور المناسب لفتح الثغرات في الأسلاك الشائكة المكهربة لخط موريس، وهو عبارة عن أنبوب يتم حشوه بالمتفجرات، ويوضع داخله فتيل لإشعال النار، وعند انفجاره يدمر كل الألغام، والتجهيزات الموجودة على مستوى خط موريس ضمن مساحة معينة، مما يساعد المجاهدين على العبور بكل سهولة وسلامة.

لقد كان الجيش الفرنسي يتبع استراتيجية عسكرية مدروسة من خلال بناء خطي شال وموريس، تهدف إلى عزل الجزائر عن جيرانها في الحدود الشرقية منها والغربية من جهة، والإمعان في تضييق الخناق على المقاومة المسلحة في الداخل من جهة أخرى، قصد قطع الإمدادات، والدعم اللوجيستي.

تتكون منظومة خط موريس من ثلاثة خطوط متوازية من الأسلاك الشائكة، المكهربة التي تشكل حاجزا حقيقيا على مستوى الحدود الغربية لمنع دخول المجاهدين من جهة المغرب وحماية خط السكة الحديدية من التخريب، وبالموازاة أقيمت بالقرب من خطوط تلك الأسلاك الشائكة شبكة إنذار، تقوم بإصدار الإنذار التلقائي كلما اقترب المجاهدون منها.

وباعتباره ابن المنطقة ويعرف جيدا كل دروبها وطرقها المختصرة وتضاريسها، تم اختيار دحان ضمن النخبة المكلفين بفتح ثغرات في خط موريس، ولم يكن اختياره اعتباطيا، فزيادة على أنه ابن المنطقة فقد عمل سابقا في صناعة المتفجرات لدى شركة بناء الجسور والأرصفة، ومن ثمة فقد سبق له وأن تعامل مع المواد المتفجرة المستخدمة في شق الطرقات بالمناطق الصخرية والجبلية، على غرار تلك الموجودة بمغرار.

وبانتهاء التدريب تم تجهيز المجاهدين بكل الأسلحة والمعدات لخوض المعركة الضرورية لإنجاح المهمة. فقد كان يجب على هذه العملية أن تحبط يقظة القوات العسكرية الفرنسية، حتى لو كانت أجهزة رقابتهم وحراستهم المقامة ليل نهار، على مدار اليوم والليلة تجعل المهمة مستحيلة بل تكاد تكون انتحارية. كما أن عزم المجاهدين وإيمانهم بقضيتهم زرعا فيهم إرادة قوية لخوض المعركة بلا تراجع، مهما كانت الظروف والنتائج، فبعد مواجهات عديدة ترك فيها هؤلاء إخوانهم وأصدقاءهم في السلاح في ساحات الوغى، تمكنوا بإصرارهم من تحقيق الأهداف المسطرة، حتى أن العدو نفسه أعجب بشجاعتهم الفريدة من نوعها، وما من شك أن عامل الخبرة كان له مكانته؛ فقد اكتسبوها من خلال التدريب المكثف والمستمر، والذي تبين في النهاية أنه أفضل المدارس.

حضر المجاهدون أنفسهم جيدا لهذه المهمة من الناحيتين البدنية والنفسية، وللمواجهة العسكرية التي باتت حتمية على

وجه الخصوص. وخلال التحضيرات أخذوا بعين الاعتبار كل الاحتمالات وبالتالي لم يتركوا أي شيء للصدفة، فكل النقاط تمت دراستها بالتدقيق، ذلك أنه لم يكن مسموحا تعريض حياة المقاتلين للخطر أمام عدو لا يرحم، خاصة وأنه قد تناهى إلى علم القوات العسكرية الفرنسية معلومات غير مؤكدة حول هذه العملية بجبل مزي، لكنها كانت تفتقر إلى الدقة فيما يخص التفاصيل التي قد تكون لصالحها لا سيما ما اتصل بالمكان الذي ستتم فيه محاولة الدخول.

وعلى هذا الأساس، فقد أعلنت قيادة العدو الفرنسي يوم **05** ماي **1960** عشية عبور خط موريس، عن حالة التأهب العام في صفوف قواتها بهدف أخذ زمام المبادرة.

ينتصب جبل مزي جنوب - غرب عين الصفراء ويرتفع علوه إلى أكثر من ألفي متر، ويأتي في المرتبة الثالثة من حيث بعده عن هذه المدينة، بعد جبل مكثر جنوبا وجبل مير لجبال غربا. كان البدو الرحل المقيمون في تلك النواحي يعرفون جيدا المناطق المجاورة، فكانوا أحسن من يقوم بدور المرشدين، والأدلة لفائدة عناصر جيش التحرير الوطني، إذ كان بإمكانهم أن يجدوا المنافذ السهلة، وأن يسلكوا الدروب والطرق المختصرة التي لا تثير شكوك العدو المتفوق في العدة والعتاد.

كانت التعليمات المقدمة للفيالق الثلاثة هي قطع الخط المكهرب في نفس التوقيت، قد يبدو للوهلة الأولى أنه عمل بسيط، غير أنه يكشف عن استراتيجية فعالة تنم عن تخطيط

محكم يهدف إلى تشتيت قوات العدو، لتتفرق في أماكن مختلفة فيصعب عليها التحكم في الوضع.

ولكن إذا جرت الأمور كما كان مخططا لها، فسيتم تنفيذ مخطط ثاني احتياطي بشكل تلقائي، والمتمثل في القضاء على كل الجنود المتمركزين بثكنة جنين بورزق التي كانت سنوات الأربعينيات تستخدم معتقلا للوطنيين.

كانت التعليمات واضحة وصارمة، فقد كان المطلوب من الفيلق الأول أن يدخل التراب الوطني من جهة الشمال ثم يتبع مساره عبر جبال الدوك، فرطاسة، العروية، مرغاد، عيسى، مرورا بجبل موقليس شمالي عين الصفراء. أما الفيلق الثاني فمساره باتجاه جبل مزي مرورا بشلالة، قلب الجمال، فورسفات العريشة، غربي جبل مزي، ثم يتمركز معسكره في اليوم الأول في المكان المسمى أولاد فطيم؛ حيث سيجد الجنود في المكان كل الأسلحة الضرورية عند جنوح الليل، ثم يصعد الفيلق إلى أعالي جبل مزي من ناحية الشمال وهناك يقضي اليوم كله، وعند الغروب ينزل المجاهدون المنحدر الشرقي من الجبل ليعبروا خط موريس ثم يسيرون باتجاه دوار أولاد طالب سعيد عند الفجر.

أما الفيلق الثالث فعليه أن ينتظر يوما كاملا ثم يسير على خطى الفيلق الثاني ليتجه إلى غرب جبل مزي نحو جبل مورورة، وإلى غرب تاشتوفت ثم زانين ليصل أخيرا إلى ريف ويدان العديس، ثم تلتحق به بعد ذلك البغال المحملة بالعتاد الحربي

الخاص بالفيلقين الثاني والثالث.

جاء أمر مغادرة معسكر التدريب للفيالق الثلاثة في بداية شهر ماي **1960** وفق برنامج معد سلفا، يلزم فيه كل فيلق الالتحاق بوجهته التي عينتها له القيادة. وكان دحان ضمن الفيلق الثاني الذي يعد رأس الحربة في التشكيل القتالي لاختراق الخط المكهرب، فبعد تنظيم الكتائب، والفصائل بإحكام، تقدم الرجال بخطى ثابتة والسلاح بأيديهم وكلهم عزم على الالتحاق بإخوانهم بالداخل، وكسر حالة الحصار المفروضة عليهم من قبل العدو. وبعد مرور فترة من الزمن، أمر القائد جنوده بالتوقف لاسترجاع الأنفاس والتشاور، ثم قاموا بتفتيش المكان، وأخذوا مواقعهم بعيدا عن أي هجوم محتمل ومفاجئ. تمدد دحان على الأرض متوسدا حجرا، وبسبب التعب أخذته سنة من النوم بعد أن سبح في ذكريات استيقظت فجأة داخله، ليرى رحلته المفعمة بالأمل وتنقلاته من ذهاب وإياب إلى المرابط سيدي بلخير، ثم تساءل بينه وبين نفسه: من يتكفل بعائلتي إذا مت في هذه المعركة! هل بإمكان صفية أن تتحمل عبء مسؤولية إعالة أبنائنا في مثل هذه الظروف الصعبة والبائسة؟ وابني عمر الذي هو الآن معي في نفس الفيلق، هل سيكون مصيره مثل مصيري؟ هل سيتمكن بلخير من بعدنا بالتكفل بوالدته وأخواته مثلما فعلت أنا مع عائلتي؟ متى تنتهي كل هذه المعاناة؟ كانت هذه الأسئلة تدور في رأسه قبل أن ينام، لكن رفيقه سعيد ذو الـ **25** عاما الذي يتسم بالنشاط المتقد، ذاك الأشعث الأغبر من أثر

السير، سحب دحان فجأة من عالمه وأعاده إلى الواقع قائلا:

- أراك غارقا في أفكارك، هل تفكر في عائلتك؟

- في عائلتي وفي كل العائلات المفزوعة والمطاردة والمشتتة من قبل المحتل الفرنسي. أجاب دحان، نعم أنا أحلم برؤية الجزائر حرة ومستقلة.. وأن أرى أبناءنا يذهبون كل صباح إلى المدرسة التي حرموا منها كما حرمنا منها نحن أيضا ظلما وجورا.

- قل لي؟ هل سنتحرر يوما ما أم أنني أهذي؟؟

- بالتأكيد، يا سعيد، ليس لدي أدنى شك في ذلك و..

غير أن الصوت الجهوري لقائد الفيلق أوقف حديثهما، الذي كان يأمر الجميع بمواصلة السير، وهو يوصيهم قائلا:

- لا تطلقوا النار على العدو إلا إذا رأيتموه يقترب منكم، تذكروا الاستراتيجية التي تدربتم عليها.

في الفترة ذاتها، كان الفيلق الأول قد استقر شمالي الجبل على بعد ستين كيلومترا بجبل كتاي، والقريب من قرية عول كاف والقرية الأخرى الواقعة على المنحدر الجنوبي - الغربي بوادي أقلامت الذي يبعد فقط بخمسة كيلومترات عن الفيلق الثاني.

لم يتأخر رفقاء دحان بوضع أمتعتهم وتجهيزاتهم على أرض المنحدر الشرقي لجبل مزي، بعدما تجاوزوه غربا طوال الليل، وأخذوا قسطا من الراحة لبضع ساعات. فلم تكن ليالي شهر ماي شديدة الظلام بسبب نور القمر، الأمر الذي لم يكن ليخدم أمن

المشاة. أما الفصيلة الرابعة من هذا الفيلق الذي كان ينتمي إليه عمر فقد أمرت بأن تبقى في الخلف لمحو وإزالة آثار الفصائل التي سبقتها حتى لا يكتشفها العدو.

فجأة تسارعت الأحداث وباتت المواجهة وشيكة، لقد بدأت بوادر المعركة في هذا القطاع، صباح يوم **06** ماي **1960** وفي حدود الساعة **5**سا و**45**د بالضبط، شوهدت أربع طائرات من نوع B**26** وT**6** تحلق فوق الجبل، وهي تفتح نيران رشاشاتها، وتطلق قنابلها على الحجرة المردوفة لمدة سبع ساعات، لتنسحب تاركة المجال للمروحيات السبع التي قامت بإنزال فرق عسكرية للبحث عن المجاهدين، غير أنها لم تعثر عليهم.

لقد أرسلت قيادة الجيش الفرنسي كل هذه القوات الكبيرة إلى المنحدر الشمالي والشرقي لجبل مزي، لتغطية كل جبال القصور فقط من أجل إجهاض عملية العبور، وتضييق الخناق على العابرين. وقد جرت أحداث هذا السيناريو تحت المراقبة اليقظة للمجاهدين، الذين ظلوا صامتين في كمين ينتظرون اللحظة الحاسمة للرد على العدو، إذ كانت المواقع التي اختاروها للتمركز جيدة، بحيث أنها منحتهم أفضلية استراتيجية، وسرعان ما تقدمت وحدة من حوالي مائة جندي فرنسي نحوهم مباشرة دون أن تدرك ما ينتظرها ،لقد كانت مكشوفة تماما وغير مبالية، ومن سوء حظها أن الفيلق الثاني كان قد تدرب جيدا على مثل هذه المواجهات المحتملة على أرض الواقع، أما بأولاد طالب على الجانب الجنوبي لجبل مزي باتجاه قرية جنين بورزق غربا

كان قوات العدو تتقدم بسرعة هناك.

تقدمت القوة الفرنسية إلى موقع الرصد حيث كان دحان وجنود آخرون يتربصون بها، بعد أن أعطيت لهم الأوامر بأن يبقوا مختبئين وأن لا يقوموا بأي حركة، وأما العساكر الفرنسيون المعتمدون على قوة أسلحتهم فقد كانوا يتقدمون شيئا فشيئا إلى أن اقتربوا منهم بنحو عشرين مترا فقط. ألح رشيد قائد فصيلة دحان هو الآخر على عناصره بعدم إطلاق النار قبل إشارته في لفتة ذكية منه ،كيف لا وهو من قدامى الجنود الذين شاركوا في حرب الهند الصينية المتمرسين، كما أنه كان أحد العناصر الفارة من الجيش الفرنسي بالبرواقية برتبة عريف أول ليلتحق بجيش التحرير الوطني، وانطلاقا من هذه المواصفات كلها، فقد كان يعرف جيدا تنظيم وتكتيك الجيش، زيادة على أنه شارك في العديد من عمليات التمشيط والكمائن.

بعدما باغتهم المجاهدون بوابل من الرصاص دام **20** دقيقة، بأمر من قائدهم رشيد، تم القضاء على كل عناصر القوة الفرنسية القريبة التي كانت تبدو واثقة من نفسها، في بضع دقائق. كان الكمين الذي نصب لهؤلاء العساكر من اللفيف الأجنبي نحو الساعة الواحدة ظهرا ضربة قوية وموفقة، ليتم بهذا الشكل تحييد هذه الكتيبة وإزاحتها بسرعة.

- انسحبوا، ابقوا محافظين على النظام والخطة المتفق عليها! أمر رشيد جنوده.

- إلى أين نتجه؟

- أتجهوا إلى الصخرة الكبيرة هناك، هيا أسرعوا!

عقب هذه الضربة الدامية اندفع جيش العدو الجريح في كرامته وكيانه بشراسة في مطاردة المجاهدين الذين خانتهم هذه المرة آثار أقدامهم، فقد كانت لا تزال ظاهرة. وجاء الرد فوريا وعنيفا، وتم إصدار أمر بمساندة جنود اللفيف الأجنبي الواقعين في كمين للقضاء على المجاهدين، ولكن الخطر على العدو كان لا يزال قائما لأن فضاء المعركة كان يخدمهم بشكل جيد، فكل حفرة أو صخرة أو شجيرة تشكل مخبأ للمجاهدين. تتسارع الأحداث ويزداد الضغط النفسي على كافة الجبهات؛ ففي الجهة الغربية من جبل مزي أرسلت القيادة الفرنسية فصيلة ثانية يقودها نقيب مزود بجهاز راديو إرسال، لا شك أنها أتت من مركز جنين بورزق عبر تاشتوفت، ولابد أن يكون جنود هذه الفصيلة قد تسلقوا جبل مزي ثم ساروا ليلا يتتبعون آثار المجاهدين إلى أن ألقوا بأنفسهم في فم الأفعى محاصرين بين الصخور دون أن يدركوا مصيرهم المحتوم، فكانت تلك فرصة ذهبية للمجاهدين الذين حضروا كمينهم بإحكام ! وأقدموا على تنفيذه باحترافية.

- إحذروا، فالعدو سيعود من المنحدر الشمالي من الجبل، أنا أعلم كيف تتم هذه العمليات القتالية على الميدان! قال رشيد مخاطبا جنوده.

تفرق الرجال بسرعة.

- الهجوم القادم وشيك!

- نبقى في حدود المنطقة المحددة، اقترح أحد الجنود.

- حذار، الطائرات تعود ! قال القائد رشيد.

كان عامل المفاجأة والذعر كافيا للقضاء على كل جنود كتيبة اللفيف الأجنبي، فقد كانت تلك فرصة غير مسبوقة استغلها المجاهدون جيدا، وأثناء ذلك توافدت التعزيزات من كل جهة، وأزيز الرصاص يدوي من الجانبين، تحديدا من معاقل الحجرة المردوفة، والسويريج بقمة جبل مزي. وبوصول الإمدادات، توسع إطلاق النار في ساحة الوغى التي ازدادت لهيبا. وفي غضون ذلك بدأ سلاح المدفعية من ثكنة جنين بورزق على بعد حوالي **10** كيلومترات من مركز درمال، يقصف ويرمي بقذائفه دون أدنى تدقيق، فيما كان المجاهدون المتمركزون جيدا والمموهون بين الصخور يلحقون خسائر جسيمة بالقوات العسكرية الفرنسية.

- هيا تحركوا.. أسرعوا، الطائرات قادمة! صاح القائد رشيد آمرا جنوده.

- الرجال مستعدون!

- الله أكبر!

عند وقت الزوال أدرك عساكر العدو أنهم تكبدوا خسائر فادحة، فصدرت إليهم الأوامر بالانسحاب، وقد تركوا المكان

لسلاح الجو الذي أرسل ست طائرات من نوع 26B وست أخرى من نوع 6T، أطلقت لنفسها العنان وراحت تلقي بقنابلها في ساحة المعركة إلى غاية غروب الشمس. كان القصف عشوائيا، أعمى ووحشيا مدمرا، فقد كان رد فعل العدو كالوحش الضاري الذي وقع في فخ فبات يتخبط بجراحه للرد خبط عشواء. وحينما توقف القصف بالقنابل، وانسحبت الطائرات، حاولت أعداد كثيرة من جنود المشاة تطويق جبل مزي؛ حيث كان العدو يحدد مواقع المجاهدين بشكل غير دقيق، ثم يبعث بفرقه لمباغتتهم من الجهة الشرقية من الجبل، لمنعهم بهذه الطريقة من التقدم نحو التراب الجزائري، ومن الجهة الغربية ليحولوا دون إمكانية انسحابهم من جهة الغرب نحو المغرب.

بعد تعليق الغارات لبعض الوقت، استأنفت الاشتباكات في حدود الساعة السابعة مساء ثم توقفت سريعا عقب ذلك بساعة، إذ كان العدو يطلق نيرانا مضللة محاولا تحديد مواقع المجاهدين حتى يتمكن من محاصرتهم في ظلمة الليل من جهة الغرب، والذي يعد المخرج الوحيد لانسحاب المجاهدين باتجاه المغرب.

انتظمت العساكر الفرنسية في شكل ثلاثة دوائر خلف بعضها البعض، لتشكل حاجزا ناريا حقيقيا، ولم يدرك المجاهدون ذلك إلا بعد فوات الأوان. استمر إطلاق النار طيلة الليل، بينما كانت قيادة الفيلق الثاني تجمع كتائبها الأربع وتأمرها بالانسحاب نحو الغرب كل منها على حدا، مع تحديد موعد لها للقاء بالحجرة

المردوفة. وهنا أصبحت مهمة مرشدي الطريق على قدر كبير من الأهمية، لأنه كان يتعين على هؤلاء قيادة المقاتلين في ظلمة الليل لإيصالهم سالمين إلى بر الأمان. وقد كانت فصيلة أخرى قد أوكلت لها مهمة حماية القادة والسهر على أمنهم وسلامتهم وأن ألا يسقطوا بين أيدي العدو، لأنهم كانوا يحوزون على وثائق هامة وخطيرة تخص الثورة. ثم تلقى المجاهدون الأمر بتخريب أسلحة الهاون؛ حتى لا يتركوها وراءهم غنيمة حرب بين أيدي العدو، الأمر الذي تم تنفيذه بسرعة.

تمركزت قيادة الجيش الفرنسي في قمة الجبل للحصول على رؤية أفضل لمراقبة سير المعركة، والقدرة على توجيه جنودها بالسويريج انطلاقا من عش النسر. فقد كان موقع السويريج بالذات حدا فاصلا لإطلاق النار بين جنود العدو والمجاهدين، الذين كانوا يحاولون شق طريقهم نحو القواعد الخلفية بالحدود الغربية تحت جنح الليل المظلم.

نجح المجاهدون في النهاية وبشجاعة كبيرة في إلحاق الضربات القاتلة لفصيلة عسكرية وتحييدها بالكامل، والتي كانت إضافة إلى ذلك، متمركزة جيدا وتمكنت حتى من تأمين المخرج إلى الغرب دون خسائر كبيرة. بالمقابل، وجد قائد الفيلق الذي تاه مع الأسف في ظلام الليل الحالك، نفسه وجها لوجه أمام قوات العدو الكثيرة العدد، فسقط بين أيديها أسيرا مع ممرض وجندي آخر كانا معه، بعد أن خاضوا معركة ضارية.

كانت طلقات النار والانفجارات في هذه الليلة من شهر ماي

تضيء السماء وكأننا في عز النهار، وتحت ضوئها كان نائب قائد الفيلق ينادي على رفقائه ويشجعهم ويشد أزرهم:

- تشجعوا يا الخاوة، العدو مفزوع!

- تحيا الجزائر ! الله أكبر!

كان الصمت يخيم على المنطقة، يكسره من حين إلى آخر دوي المدافع، وأصوات الجنود الصادحة "الله أكبر!" ثم تعود لتسمع هنا وهناك صدى تردده الجبال. كان المجاهدون يسرعون ليصلوا الأوائل إلى قمة الجبل قبل النزول سريعا عبر المنحدر الشمالي، حتى يستعيدوا طاقاتهم في حالة ما إذا ضعفت قواهم باللجوء إلى هذه الأماكن الآمنة، وكذلك كان يفعل الجنود الفرنسيون، لدرجة أن السباق نحو القمة أصبح مسألة حياة أو موت بين المتحاربين.

كان العدو على منحدر مكشوف وبالتالي من السهل الانقضاض عليه، لذا لم يتردد المجاهدون لحظة واحدة في التنفيذ، فأسرعوا بتصفيته لضمان خروجهم من الحصار دون عائق. استمرت المواجهات الضارية إلى غاية الغد دون أدنى توقف. وتمكن بعض المجاهدين من الوصول إلى القمة بصعوبة، كما نجحت بعض الفصائل من النزول عبر المنحدر الشمالي، لكن بعد اشتباك دام مع العدو بسفح الجبل.

عند فجر يوم **07** ماي، قام الجيش الفرنسي بتعزيز عملية الحصار الواسعة على المجاهدين؛ حيث لم تتوقف الإمدادات

التي كانت تصله بواسطة القطار والشاحنات، ثم توجه نحو ساحة المعركة تحت رقابة وتغطية بما يقرب الثلاثين مروحية. وبعد ذلك كان سلاح الجو يتدخل بغارات متتالية باستخدام نحو العشرات من الطائرات من نوع 26B و6T، في هذه العملية الضخمة والقادمة من مطارات بوفاريك ووهران، فكل الطائرات تقريبا كانت مزودة ببنادق رشاشة مثل الفرق العسكرية على الأرض، ترمي وابلها من الرصاص، ومن القنابل الثقيلة إلى غاية وقت العصر.

كانت أيام شهر ماي تخدم القوات الفرنسية لا سيما القوات الجوية منها، فمع الجو المشمس كان النهار يمتد إلى أربع عشرة ساعة، لم تنته المعركة إلا وكانت حصيلة الخسائر فيها معتبرة من كلا الجانبين، فقد قتل ضابط وعدد كثير من الجنود الفرنسيين، دون حساب الأعداد الكبيرة من الجرحى والمصابين.

ومن أجل السيطرة على الوضع، جند الجيش الفرنسي فرقا إضافية نقلت جوا، ولم يتدخل سلاح الجو إلا بعدما أصبحت الرؤية واضحة؛ حيث انتشرت الطائرات تغطي السماء مدعمة على أرض الميدان بسلاح المدفعية الثقيلة، ومعززة بفرق جيش المشاة. فكان الجنود يقتحمون ساحة المعركة كأسراب الجراد، رجال بعدتهم ينزلون من المروحيات يقدر عددهم بثلاثين، وآخرون أتوا بواسطة القطار والشاحنات، وأما الطائرات فقد كانت تتناوب في رمي القنابل وإطلاق النار على أي شيء يتحرك.

استمرت نيران المعركة تحت شمس حارقة، وكانت الجهود

المضنية المبذولة قد بدأت تلقي بظلال تأثيرها على المجاهدين، وعلى الرغم من العطش الشديد، إلا أنهم كانوا يجوبون الدروب والأحراش بين المنحدرات والأودية بكل خفة وحذر.

- هيا هيا! تحركوا! العدو في كل جهة! قال رشيد لرفقائه آمرا.

- إلى المخبأ يا الخاوة، صاح قائد الفصيلة.

- حافظوا على نظام التوزيع المتفق عليه، أضاف القائد رشيد الذي كان يواصل تشجيع الفرق.

- تحيا الجزائر!

كان دحان مثله مثل رفقائه مختبئا مترقبا خلف صخرة، ممسكا بسلاحه من نوع **7/12** وأصبعه على الزناد، وكان مركزا على الطائرات التي تحلق فوق رؤوسهم. ومثل ثعبان الكوبرا حينما تهاجم، اندفع من مخبئه كاشفا عن نفسه، وراح يطلق النار على طائرة فأسقطها، وظهرت مشتعلة باللهب تحت أنظار المجاهدين المعجبين، ودهشة الأعداء الذين لم يصدقوا أعينهم ولم يستوعبوا ما حدث.

كانت كلمة "الله أكبر" الصرخة المدوية التي يطلقها المجاهدون بأعلى أصواتهم عند القتال، ما يزيدهم قوة وشجاعة كانوا مزهوين بما حققوه، لقد كان ذلك العمل البطولي صدمة كبيرة بالنسبة للمعسكر الفرنسي، كيف أمكن لهؤلاء الحفاة العراة المعدمين إسقاط طائرة؟ والأدهى والأمر أن هذه الطائرة كانت تقل ضابطين مشرفين على العمليات العسكرية! فأمام هذه

الخسائر المعتبرة كان من الصعب جدا على الجنود الفرنسيين أن يصمدوا في أرض كهذه ذات تضاريس وعرة، مع أنهم كانوا مؤمنين من جهة خط موريس المكهرب.

أصيب دحان في ساقه بطلقات العدو عندما كان يرمي تلك الطائرة بالرصاص، ولم يعد قادرا على الحركة ولا حتى على المشي بجانب رفقائه الذين عليهم الآن مساعدته، زيادة على ذلك فقد كثيرا من الدم، وكان يشعر أن حالته تزداد سوء. ولما رأى أنه أصبح عبئا على رفقائه طلب منهم أن يتركوه في مخبأ آمن ويواصلوا القتال.

مع بزوغ الفجر، عند أول إشراقة النور، وجدوا له أخيرا مكانا مخفيا يمكن الاختباء فيه بأمان وواصلوا هم معركتهم إلى غاية الرابعة مساء، حيث تمكنوا من إسقاط طائرة ثانية من نوع موران (Morane) ثم أسقطوا بعدها طائرة مروحية، وأمام هذه الضربات المتتالية الموجعة شعر العدو أنه طعن في كبريائه باعتباره قوة عظمى، فجن جنونه وانطلق في غضبه مفزوعا يزيد في القصف، ويرمي بالمقذوفات في كل مكان، ويحرق بلا رحمة ولا شفقة كل شيء يجده في طريقه.

بعد انسحاب الطائرات، جاء دور المدفعية التي أطلقت قنابلها من جديد مطاردة بوحشية المجاهدين، حتى لا تتركهم يستعيدون أنفاسهم، وتم بالموازاة استدعاء فرق من المظليين من وهران والجزائر العاصمة، والذين نقلوا جوا إلى عين الصفراء، ومنها تنقلوا إلى ساحة المعركة على متن الطائرات المروحية،

وكذلك كان الأمر بالنسبة لمشاة البحرية المظليين من مدينة البيض تحت قيادة الرائد شايداور (Sheidauer).

تحدث أحد الضباط الفرنسيين مع قائد عسكري في جهاز الإرسال:

- قتل نقيب في المعركة، الفلاقة يسيطرون على قمة الجبل.. يتجاوز عددهم **200** رجلا.. إليكم الخط، سأتصل بكم لاحقا.

أرسل العقيد دو ساز (De Sèze) لأول مرة مركز قيادة كامل ومتنقل على متن طائرة مروحية، بمجموعة تتكون من عشرين جنديا، مزودين بأجهزة لاسلكية للاتصالات وأجهزة للرؤية البعيدة، وخرائط تساعد على رصد المواقع، بقيادة الرائد ميت (Met) رئيس أركان الفوج. لم يكن لهذا الرجل الأصلع، ذو البنية الجسدية الضخمة، سوى هدف واحد ألا وهو الوصول إلى القمة، التي يبلغ ارتفاعها ألفي متر للسيطرة على ميدان المعركة.

انطلق المجاهدون وهم يرمون الطلقات من رشاشاتهم، وبنادقهم بشجاعة كبيرة على العساكر الذين كانوا يهبطون من المروحيات كلما وطئت قدمي أحدهم الأرض، وتفاجأ الرائد ميت (Met) من هذا المشهد المروع وفزع، ثم راح مسرعا يخطر العقيد دو ساز عن طريق الراديو:

- سيدي الكولونيل العقيد، أنا في خضم المعركة ضد الفلاقة، إني أحاول أن أبقيهم على مسافة.. لكنني أواجه صعوبة كبيرة أمام الموقف..

وفي اللحظة نفسها قام العقيد بإخطار الضابط سيرفنت (Servent) بدوره، والمتمركز بالمكان المسمى ضايت الكرش، محذرا إياه من خطورة الوضع.

- الضابط ميت (Met) يواجه مشاكل كبيرة مع الفلاقة، الأمر متروك لك.. عليك التصرف.

تصل قوات أخرى منقولة جوا وتنزل من المروحيات، بشمال جبل مزي على بعد ثلاثة كيلومترات من الطوق الناري المفروض على جنود الرائد ميت (Met) بالمنحدر المقابل. لم يستثن المجاهدون هذه القوات التي نزلت للتو، حتى وإن كانت الطائرات **6T** تواصل غاراتها الجوية لعرقلة تقدم المجاهدين، الذين باتوا أقرب من القمة التي تشرف على أرض المغرب.

قرر إذا الجيش الفرنسي أمام هذه الهزيمة النكراء، اللجوء إلى سلاح النابالم المحرم دوليا؛ هذا السلاح الذي تلقي به الطائرات في شكل أكياس ضخمة مليئة بسائل سريع الالتهاب، يتحول فورا إلى كتل نارية ملتهبة عند احتكاكها بالأرض، وينتشر بسرعة، فيحرق كل شيء على نطاق واسع، وكل من يصيبه هذا السلاح يصاب بتقرحات جلدية مؤلمة جدا. أدهش استخدام النابالم في المعركة المجاهدين وحيرهم كثيرا، الأمر الذي أخرهم عن تسلق الجبل لأنهم كانوا مجبرين على البقاء في الكهوف، وخلف الصخور حتى لا يعرضوا أنفسهم لألسنة النيران الملتهبة.

بالفعل، فالذين أصيبوا بهذه المادة المميتة كانوا يجرون

بشكل غريب في كل الاتجاهات، في حالة هستيرية كبيرة من شدة الألم الذي لا يطاق، وحينها كشفوا عن أنفسهم ظاهرين للعيان وأصبحوا على مرمى الطائرات، فطفقت هذه الأخيرة تطلق عليهم النار مثل الأرانب البعيدة عن جحرها. في حين تشوهت وجوه الذين أصيبوا بالكامل، وبعضهم فقدوا أبصارهم.

أما المجاهدون الذين نجوا في هذه المعركة ومنهم دحان، فقد انسحبوا بسرعة متجهين نحو الحدود المغربية. لكن دحان أصبح الآن خارج المعركة بسبب جرحه، كان ممددا على الأرض يفحص حرجه العميق الذي كان يزداد ألمه مع مرور الوقت، لم يجد شيئا أمامه يعالج به نفسه، فقطع جزء من سترته، وربط به مكان الجرح لإيقاف النزيف، بعد أن وضع ساقه على صخرة، ثم لفها بقطعة قماش نزعها من بدلته العسكرية، ثم أحكم ربطها بقوة، وحين توقف النزيف شعر حينها بالراحة، وبقي ممددا على الأرض وعيناه متجهتان نحو السماء الزرقاء، يقاسي من الألم والصمت الرهيب، حتى العصافير نفسها توقفت عن التغريد والزقزقة، فقد فرت مذعورة من هذا المحيط الذي طغت عليه أصوات القنابل وطلقات الرصاص. شكر دحان الله الذي نجاه من لهيب النابالم وشظايا القذائف.

تواصلت المعركة في يومها الثالث **08** ماي، من خلال المناوشات بين العساكر القادمة والمجاهدين المنسحبين إلى مناطق مقسم، ولحم اللدغة، ومقسم بورزوق. وكانت القوات الفرنسية تنفذ عمليات تمشيط دقيقة على مستوى الأحراش

بحثا عن الناجين، وجثث قتلاهم التي كانوا ينقلونها على متن الطائرات المروحية.

انتاب دحان الفزع والخوف من اكتشاف أمره، طفق ينصت إلى الحديث الدائر بين العساكر الفرنسيين القريبين من مخبئه، ولم يشعر بالأمان إلا عند وقت العصر حينما عم الهدوء، واختفت الطائرات المروحية.

لقد سمع دحان أولئك العساكر وهم يسبون ويشتمون، ويتبادلون الحديث بلهجة غاضبة، متحسرين على كثرة الخسائر التي لحقت بصفوفهم، والتي قدرت بعدد **186** قتيلا، من بينهم مجموعة من الضباط بالإضافة إلى **45** جريحا. راودت دحان فكرة القضاء على أحد العساكر الذي كان يتكلم بغضب شديد، ويهدد بصب كل مخزن سلاحه من الرصاص على جثث الشهداء، لكنه تراجع بعد أن حكم عقله، وهدأ من روعه، لأن فرصته الوحيدة في الهروب والنجاة كانت تتوقف على عدم الحركة، والتزام الصمت داخل المخبأ.

عند جنوح الليل، تشجع دحان وخرج من المكان الذي كان مختبئا فيه، نزل من الجبل بصعوبة بالغة، وكانت أنفاسه متقطعة، يجر خطواته جرا، كانت ساقاه ترتجفان ماسكا بطنه بصعوبة بكلتا يديه ليخفف من ألمه الشديد، أحس بمغص شديد في بطنه، وغلبه القيئ من آثار النابالم. جلس فترة طويلة حتى توقفت آلام بطنه، كان يجتهد في حبس أنفاسه أطول مدة ممكنة، حتى لا يستنشق رائحة النابالم. وهو يدعو الله ويتضرع

اليه.

استجمع دحان قواه، وتوجه نحو شجرة أسند ظهره إليها وهو يكتم ألمه. نظر من حوله، فلم يشاهد أي حركة، فقد كان الجبل خال من كل حياة، وكان العرق يتصبب من جبهته، وبدأ جسمه يرتعش من أثر الحمى، فحص ساقه فوجد أن الجرح قد تعفن، أصابه الخوف وفكر أنه إن وصل إلى المستشفى سيقطعها له الأطباء.

في نهاية المعركة غير العادلة، بلغت الخسائر في صفوف المجاهدين **117** شهيدا من الفيلق الثاني، وأسر **42** مجاهدا و**10** أحرقوا بنيران النابالم؛ ونجحوا في إجلاء أعداد من المصابين إلى القواعد الخلفية في الحدود المغربية، وقد تم عرض بعض الذين شوهوا بسلاح النابالم على مندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر، والتحق الناجون سالمين بقواعدهم.

بينما كان الفيلق الثاني في مواجهة مع العدو الفرنسي المدجج بالأسلحة الفتاكة، من سلاح الجو، والمدفعية، والمظليين، كان الفيلقان الأول والثالث لا يزالان متمركزين في حالة تراجع في هذه المنطقة المغطاة بنبات الحلفاء، والأحراش، وقد تبين أن تراجعهما كان ضمن خطة استراتيجية، لأنهما لو تقدما وشاركا في المعركة، سيكون ذلك عملا انتحاريا لا يرجى منه شيء، بل سيعرض المجاهدين إلى خطر القضاء عليهم في هذه الأرض المكشوفة.

الفصل التاسع

ما وراء التضحية

عقب المعركة الضارية التي لم تكن القوى فيها متكافئة بين الجيش الفرنسي والفيلق الثاني لجيش التحرير الوطني الذي أثبت قوته وجدارته، دعا القائد العسكري لجيش التحرير الوطني في القاعدة الخلفية الكائنة قاعدته ببلدة سوف اقصر المتاخمة لعين الصفراء من الجانب الآخر من الحدود، إلى تجمع عاجل لتقديم الحصيلة النهائية لمعركة جبل مزي، كان القائد العقيد بوعلام رجلا قوي البنية ذو شارب كث، وملامح تنبئ عن جدية وصرامة كبيرة ونظرة متقدة، يرتدي جلابة فوق بدلته العسكرية، وبنبرة من الفخر والاعتزاز يشوبها حزن كبير، شرع في تقييم المعركة التي تبين من خلال الأرقام أن حصيلتها كانت ثقيلة، غير أن الأمر الذي يدعو إلى الاعتزاز والفخر هو عدم انسحاب المجاهدين على الرغم من إلقاء القبض على قائدهم وأسره، بل استمروا يخوضون غمار المعركة باستبسال منقطع النظير، وكبدوا العدو خسائر معتبرة، حتى أنهم أسقطوا طائرتين مقاتلتين وأخرى استطلاعية من نوع موزان. ثم ما لبث أن أخبر المجاهدون قائدهم عن حالة دحان المصاب إصابة بليغة في ساقه تحول دون تنقله ومشيه، ما اضطرهم إلى تركه خلفهم في ساحة المعركة وقالوا:

- بحثنا له عن مكان آمن في مخبأ على مستوى الجبل وتركناه هنالك.. لم يكن لدينا خيار أو حل آخر..

بعد سماعه ما قاله المجاهدون عن حالة دحان ومصيره المجهول، تشنج العقيد وتغيرت ملامحه فجأة، وغضب من الجنود الثلاثة وأمرهم بالعودة أدراجهم فورا إلى المكان الذي تركوا فيه زميلهم، مرفوقين بمسعف، وأن لا يعودوا إلا وهو معهم مهما كلفهم الأمر ،وعقابا لهم على خطئهم الجسيم جردهم من السلاح .لم يكن العقيد بوعلام متسامحا في مثل هذه الأمور، بل كان ذا سلطة وهيبة وحاسما في قراراته لذا لم يتوانى عن عقابهم.

أحس الجنود الثلاثة بالذنب وتأنيب الضمير تجاه زميلهم، ولم يتأخروا في تقديم اعتذارهم كما اعترفوا بخطئهم وندموا على ما أقدموا عليه، إذ كيف لهم أن يتركوا رفيقهم جريحا يواجه مصيره لوحده.

ودونما أدنى تأخير انطلق الرجال الأربعة في رحلتهم مجردين من السلاح كما قرر قائدهم، وعلى الرغم من التعب الذي نال منهم ساروا طيلة الليل، مسترشدين بالأخوة الصادقة التي تجمعهم، ومتسلحين بشجاعتهم وتماسكهم.

- آمل أن نجده حيا، قال أحدهم ذو بشرة سمراء ونحيل الجسم.

- آمل ذلك، .. لقد ارتكبنا خطأ لا يغتفر، رد كمال ذو البنية القوية والشارب الكثيف.

- لا أرغب أبدا في العودة إلى مثل هذه الأماكن الملعونة.

كان دريس متوترا جدا لإحساسه بالذنب: كيف طاوعتنا أنفسنا بتركه وحيدا،.. هذا أمر لا يغتفر.

في حين قال حسين الجندي الثالث الذي كان يبدو هادئا:

حينما كنت صغيرا، أخبرتني جدتي أن الجرحى يتم قتلهم حتى لا يقعوا بين أيدي العدو أحياء فينكل بهم.

- كم أنت ضليع في تبسيط الأمور، رد كمال متذمرا.

ساد الصمت لبعض الوقت لم يكن يسمع خلاله سوى عواء بنات أوى، الذي كان يملأ المكان ويصل إلى مسامع الجنود منبئا عن وقف إطلاق النار. تقدم الرجال بهدوء وحذر خشية أن يقعوا في كمين ما، وحينما وصلوا إلى المخبأ، حيث تركوا رفيقهم الجريح لم يعثروا عليه فاستولى عليهم الفزع خوفا من أن تكون الحيوانات المتوحشة التي تملأ المنطقة، قد فتكت به. ثم انطلقوا والخوف يسكنهم يبحثون مجددا في كل مكان عسى أن يعثروا عليه.

كان دحان قد غير مكانه وانتقل إلى مخبأ آخر حتى لا تصل إليه بنات آوى والحيوانات المتوحشة التي تنجذب إلى رائحة الدم، واهتدى إلى حيلة تبعدها عنه، إذ أفرغ القنابل اليدوية من البارود وقام بنثره حوله، كما وضع ما تبقى معه من تبغ وقام بذره بذات الطريقة، وكانت هاتان المادتان كفيلتان بإبعاد الحيوانات المفترسة من المحيط الذي يختبئ فيه.

حينما استلقى دحان على ظهره وخف عنه الألم بعض الشيء

استرسل في التفكير، وتذكر حديثه الأخير مع صديقه سعيد بشأن مستقبل البلد.

- أتعتقد أن الجزائر ستستقل يوما ما؟ وهل ستتحرر أخيرا وتنعتق من نير الاستعمار؟ هل سنتمكن من انتزاع حريتنا واسترجاع كرامتنا؟ كان يردد ذلك في نفسه.

عندما كان دحان في أرض المنفى بفرنسا كانت الأخبار تصله أولا بأول عن كل المستجدات والأحداث التي تخص بلده، وحتى عن المناضلين الجزائريين وما كانوا يقومون به من جهود في إطار الحركة الوطنية، .. فكر دحان قائلا في نفسه بمنتهى الحزن: لم يكن الجزائريون ليتركوا أرضهم ويهاجروا إلا مرغمين، بحثا عن لقمة العيش والعمل لإعالة أسرهم وعائلاتهم. لقد آن الأوان للأمور أن تتغير، وللشعب الجزائري أن يتحرر، لم يعد قادرا على التحمل أكثر لكل هذا الظلم والعدوان، والذل والهوان، .. فكر دحان للحظة أنه ربما هنالك في الوقت نفسه بالبلاد من يتساءل بشأنه وما آل إليه، دحان ذلك المجاهد البطل الذي التحق بصفوف جيش التحرير الوطني وبالجبال دفاعا عن وطنه. يتساءلون ترى ما مصيره الآن؟ هل لا يزال على قيد الحياة؟ ربما كان الكل يتمنى رؤيته بينهم من جديد، هذا البطل الذي هم حتما جد فخورين به وبشجاعته واستبساله! وفجأة أعاده سماع أصوات تقترب منه إلى الواقع وأخرجه من دائرة تفكيره وخياله.

- هل عادت الحيوانات المفترسة مجددا! قال في نفسه وهو يرهف السمع بعد أن حبس أنفاسه.

كان رفاق دحان من الجنود قد اقتربوا من المكان الذي يتواجد به، غير أنه لم يكن ليتبين ذلك الصوت جيدا، وما فتئ أن بدأ ذاك الصوت يقترب ويتضح شيئا فشيئا، وينجلي أكثر فأكثر، حينئذ حاول دحان النهوض بكل حذر للتسلل، وما لبث أن سمع رميا لخمس حصيات، وكانت تلك إشارة متفق عليها وكلمة سر بين المجاهدين، فرد دحان مباشرة برمي حصاة واحدة ثم خرج إليهم، واقترب منه رفاقه الذين فرحوا كثيرا بنجاته يتقدمهم الممرض الذي بادره بابتسامة عريضة:

- أنت محظوظ حتما لكونك لا تزال على قيد الحياة، رغم عمليات التمشيط المكثفة وإطلاق النار المتواصل من قبل طائرات العدو للمكان، دون احتساب خطر الحيوانات المفترسة! يا لشجاعتك أحسنت!

ثم اقترب الممرض من دحان وبدأ يتفحص جرحه الذي تبين له أنه متعفن. فبادر إلى تقديم الإسعافات الأولية له، ومعالجة جرحه بما توفر له من إمكانات، ثم ساعده رفاقه بوضعه على النقالة وتم حمله إلى مقر القيادة.

لقد شب دحان على الخوف منذ صغره ومن كثرة ما عاشه أضحى مروضا له، غير أن ما تعرض له في خضم معركة جبل مزي بدا مختلفا، فبعد أن نجا من الموت بأعجوبة لم يعد يعرف كيف يفسر ذاك الخوف الذي يساوره الآن، لاسيما وأن أغلب أفراد كتيبته استشهدوا، فمنذ ذلك الحين أصبحت فكرة الموت تستحوذ عليه والخوف يسكنه في كل لحظة، وأصبح فريسة لهذا

الذعر الذي لم يشعر به من قبل، كان يشعر بحاجة ماسة للحديث عن ما هو آت، وكذا عن عائلته التي عليها الآن الالتحاق بوجدة. لقد تم ترتيب الأمور بشكل جيد، والجنود على علم بشأن الخطة المحددة سلفا، والأدوار المنوطة بكل واحد منهم، ولم يبق الآن أمام دحان سوى الانتظار، غير أن مرور الوقت كان بطيئا للغاية ومؤلما ما كان يضعفه.

كانت الحمى قد استحوذت على دحان في هذه الأثناء، وبدت أفكاره مشوشة وعقله غير متزن، ولم يعد يتذكر شيئا حتى سبب وجوده في هذا المكان، ولا كيف جرح. وحينما وصل إلى القاعدة العسكرية لجبهة التحرير كان قد دخل في غيبوبة جزئية.

وبعد مضي يومين من المعركة، كلفت جبهة التحرير الوطني فريقا تابعا لها مرفوقا بمصورين لتوثيق الأحداث التاريخية، وتخليدها من خلال الصور. وبوصولهم إلى موقع المعركة، أدركوا وجود عدد من الجنود الفرنسيين يفتشون وسط الجثث ويبحثون في أرجائها، فاضطروا إلى تأجيل المهمة لاستكمالها لاحقا. ليتم تنظيم بعثة ثانية تدعمت بعناصر ثلاث من الفيلق الثاني، ممن شاركوا في معركة جبل امزي، وكان لهم فضل توجيه فريق المصورين إلى كل المناطق والمواقع التي عرفت مجرياتها.

أنجز فريق التصوير مهمته على أكمل وجه، بمسح شامل لوقائع معركة مزي الرهيبة، وتوثيق ما انجر عنها من تبعات بتصوير الأماكن، ومعاينة العناصر التي احترقت وشوهتها ألسنة اللهب بتأثير النابالم، أو نهشتها بنات آوى، وتم نقل الرفات

بعناية كبيرة وبشكل يليق بها، وكان لهذه الوثائق أهمية كبيرة استغلتها الدبلوماسية الجزائرية بمهارة، للتعريف بالقضية الوطنية على المستوى الدولي؛ حيث تم نشر وقائع المعركة وتبعاتها للرأي العام الدولي، لكشف وإدانة فرنسا بارتكابها جرائم حرب، والأدهى والأمر من ذلك أنها كانت تصف ممارساتها الإجرامية تلك بـ"تدابير التهدئة" أو بجرأة وأكثر وقاحة "تدابير حضارية ".

لقد ارتكبت فرنسا جرائم حرب فظيعة لا تغتفر، بإلقاء طائراتها الحربية كميات هائلة من مادة النابالم الحارقة، التي أتت على الأخضر واليابس، ولم يسلم منها أي كائن حي في هذه المنطقة الجميلة التي تدمرت بيئتها، ولم تفوت الحكومة الجزائرية بالمنفى الفرصة، فبعثت برسالة إلى الصليب الأحمر الذي أرسل بدوره وفدا ليعاين عن كثب التشوهات الجسدية التي أصيب بها الثوار ضد المحتل الغاشم.

على الرغم من أن الفيلق الثاني الذي واجه فرنسا بكل تحد تكبد خسائر فادحة، إلا أنه قاتل بكل استبسال إلى آخر نفس، وسقط الكثير من الشهداء في ميدان الشرف، فيما أسر آخرون، وحظي الجرحى من ضحايا النابالم بالعلاج في قاعدة جبل بني سمير، وهي قاعدة أقيمت بالمرتفعات الجبلية، بينما تم نقل الحالات الأكثر خطورة، أو تلك التي ازدادت سوء إلى القاعدة العسكرية العربي بن مهيدي بوجدة، فيما تم إجلاء الحالات القصوى إلى مستشفى ابن سينا بمدينة الرباط المغربية.

لقد اعتبرت معركة جبل مزي كارثة عظمى على الحكومة الفرنسية من وجهة نظر تاريخية، لاسيما على المستوى العسكري، أما على المستوى السياسي فقد كشفت النقاب عن الوجه الحقيقي البشع والقبيح لفرنسا الاستدمارية، وحظيت القضية الجزائرية بدعم دولي واسع، وتأييد كبير من عديد البلدان لهذا الشعب الأعزل، الذي كان في مواجهة العدو الفرنسي الغاشم، عدو سلبه كل حقوقه وأهانه على أرضه.

لقد كانت معركة جبل مزي على ما خلفته من مآسي فاتحة خير، فبعد مضي شهر ونصف من هذه المعركة أعلنت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) انضمامها إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المؤرخ في **10** ديسمبر **1948**، وكان ذلك بتاريخ **20** جوان **1960** تحديدا. لقد جاء وقوع معركة جبل مزي بعد مرور ست سنوات من اندلاع ثورة أول نوفمبر **1954**، مما يعكس النفس الطويل للمقاومة. واعتبرت أكبر معركة شهدتها منطقة الغرب الجنوبي من التراب الجزائري، قادها عدد محدود من الرجال ضد أعتى جيش هو الجيش الفرنسي، كيف لا وقد كان قائدهم العقيد لطفي، قائد الولاية الخامسة مثلا أعلى لجنوده بكونه أول من عبر الحاجز المكهرب قبل شهرين من تاريخ المعركة، أي بتاريخ **27** مارس **1960** ولم يكن استشهاده عبثا بل كان انبعاثا وحافزا لمواصلة النضال لنيل الحرية.

بعد الهزيمة النكراء التي مني بها الجيش الفرنسي في معركة جبل مزي، أطلق حملة تمشيط واسعة لم يكن الثوار هم

المستهدفون منها هذه المرة، بل الأشخاص الأبرياء العزل من البدو الرحل وسكان القصور، الذين كانت بناتهم ضحايا الاختطاف والاغتصاب، ولم يكن أي رجل حر ليتوانى عن حمايتهن والانتقام لهن ولو دفع حياته ثمنا لذلك، من بينهن فتاة في ربيعها الثالث عشر كانت قد هربت مع إخوتها من خيمتهم التي طالها القصف، فسقطت أسيرة بين أيدي نحو **20** عسكريا تداولوا على اغتصابها، حتى أزهقت روحها الطاهرة التي لم تتحمل وحشيتهم، فأي حقارة وأي نذالة تسم هؤلاء المتوحشين الأنذال.

لم تكن تلك الفتاة المسكينة الوحيدة في هذا المصير المأساوي، بل عشرات من الفتيات تم اغتصابهن لا لذنب اقترفنه إلا لأنهن كن من ساكني الخيام والقصور المحيطة بجبل مزي، لتتحول كل تلك المناطق فيما بعد على يد الجيش الفرنسي إلى مراكز للحراسة، أقيمت على حدود خط موريس. كانت عمليات الاختطاف والاغتصاب تلك عملية انتقام جبانة ضد المجاهدين، الذين لم يتراجعوا لحظة واحدة أمام قوة أسلحة العدو الفتاكة ومخططاته الحقيرة والقذرة، إذ كانت العناصر الفرنسية يرسلون بعض النسوة المواليات لهن إلى البيوت بغطاء العمل الخيري المخادع، وتقديم المساعدة للمعدمين من الناس والمحتاجين والفقراء، لكنهن في الحقيقة كن يحصين الفتيات أو الضحايا المحتملات في البيوت ليتم اختطافهن لاحقا مع سبق الإصرار والترصد.

هكذا اختطفت عشرات الفتيات الشابات اللواتي تم إحصاؤهن مسبقا في بيوتهن، واحتجزن بعد خطفهن ليجدن أنفسهن فريسة بين مخالب وحوش آدمية لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلوبها، ولا يتحكم فيها عرف ولا يثنيها قانون ولا ترضخ لدين أو ملة.

لقد بلغت الدناءة مبلغها والحقارة أقصاها ،فقد كانت المختطفات من الشابات يقدمن كمكافأة للجنود الفرنسيين قصد إشباع غرائزهم البهيمية، غير أن الهدف الخفي هو الضغط على رجال الثورة للرضوخ والاستسلام. وبهذا السلوك الدنيء والأسلوب الرخيص ارتكبت أبشع الجرائم من قبل هؤلاء الهمجيين، الذين يدعون التحضر والتمدن، منتهكين بذلك كل الأعراف ومستهترين بالمبادئ التي تسمو بالإنسان عن الحيوان ليستحلوا أعراض أناس، لا يمكنهم التصدي لعدوانهم ولا الدفاع عن أنفسهم، وكان ذلك انتقاما جبانا من الأعمال البطولية التي قام بها المجاهدون في ميدان الشرف. في مرحلة لاحقة كانت تبعات الاغتصاب كبيرة وأضحت الفتيات الحوامل شاهدا حيا على خرق كل الأعراف، وبتن يشكلن شاهدات إثبات على الجرائم المقترفة، لذا كان ينبغي التخلص منهن بأي طريقة كانت، من أجل إخفاء جرائمهم وللحفاظ على الصورة الزائفة لفرنسا المتحضرة، فتقرر تصفيتهن بعد أن أضحين عبئا ثقيلا على الأمة التي تدعي الحرية وتتشدق بحقوق الإنسان.

صدم دحان حينما وصلته أصداء هذه الجريمة على غرار

رفقائه من المجاهدين في صفوف جيش التحرير وجميعهم مستائين ومحبطين.

كان يتساءل ألم يكن بإمكان الضمير العالمي المجسد في المنظمات غير الحكومية المناضلة من أجل تحرير الشعوب، في إطار عملية تصفية الاستعمار حينها، أن يشهد على بشاعة ما يحدث ويكشف هذه الفضيحة المدوية والجريمة المروعة.

لقد كان العدو في منتهى الحقارة والنذالة، إذ سعى ليخفي آثار جريمته الشنعاء بكل السبل، فلكي يكمل مخططه الدنيء أراد استبدال الفتيات ونقلهن إلى منطقة أخرى -على الأقل هذا ما كان يبدو-، فقد نظم العدو عملية التبادل في مكان يتوسط الجيش المستقر بجبال وسط البلد والمتمركز بالجبال الواقعة غربا قصد حماية المعتدين من جنوده الأنذال.

هكذا تم اقتياد العشرات من الفتيات المختطفات اللائي كن تسلية للجنود الفرنسيين بالثكنات في موكب قادم من وسط البلد، وبالمقابل توجهت مجموعة المجرمين المنحطين نحو جبل عصفور على بعد نحو **80** كيلومترا شمال -غرب مدينة تلمسان.

وبعد توقف الموكب في أعالي مركز الاعتقال بالمكان المسمى العربي مازر، رفعت إحدى الضحايا غطاء الشاحنة وإذا بها تكتشف أنه يتم اقتيادهن ليلقين حتفهن، وإزاء هذا المصير المحتوم أطلقت صرخة مدوية تستغيث من خلالها بمن حولهن

من المعتقلين بالمركز، وراحت كل البنات الأخريات على متن الشاحنات الأخرى يحدثن جلبة وضوضاء بأصواتهن ليسمعن من بالخارج، ولم يتأخر رد المعتقلين الجزائريين فبدأوا على الفور برمي الموكب بالحجارة، ولكن ماذا كان في مقدورهم أن يفعلوا أكثر أمام وابل من الرصاص الذي أطلق؟

بوادي ثنية الرملة بالقرب من الحدود الجزائرية المغربية توقف الموكب المجرم المستعجل في التخلص من الشواهد الحية على الجريمة التي اقترفت في حقهن وأهاليهن، فقط على بعد خمسة إلى ست كيلومترات بالمكان المذكور.

أين تم حفر ثلاثة خنادق بعمق عشرة أمتار وثلاثين مترا عرضا، استعانوا في حفرها بآليات سلاح الهندسة العسكرية؛ ليلقى بالنسوة المنتهكة أعراضهن، الممرغة رؤوسهن في التراب، والممسوح بكرامتهن الأرض التي دفنوا فيها تحت أطنان من التراب، وعلى مسمع ومرأى من المجرمين من جنود الاحتلال الفرنسي الغاشم.

وما لبث أن انتشر خبر الجريمة الشنعاء كالنار في الهشيم ليصل إلى أسماع المجاهدين بسرعة البرق، فكان ردهم جزاء من جنس عمل أولئك الأنجاس.

كانت الرسالة الموقعة من قبل المجاهدين يومها واضحة وموجهة إلى فصيل اليد الحمراء تحديدا، فقد كانوا شهودا على ذلك، وهم في مجملهم من الجنود الألمان من اللفيف الأجنبي،

وبعض الجزائريين المجندين إجبارا، ثم أصبحوا بعد ذلك من الفارين، وهكذا تم إيقاف الأعمال الإجرامية الرهيبة لليد الحمراء التي زرعت الرعب في كل مكان.

الفصل العاشر

وجدة حيث يجيد الأبطال الموت

كان وصول صفية بمعية دحلابة وباقي العائلات الأخرى من اللاجئين إلى وجدة، حدثا استثنائيا صنع البهجة بلقاء بين الكثير من اللاجئين القدامى والوافدين الجدد هنالك، وسرعان ما شكلت فرحة اللقاء بينهم عائلة كبيرة التم شملها وزاد عدد أفرادها، وما فتئ أن بدأ تبادل الأخبار بينهم، وشاعت الطمأنينة والألفة، وساد جو كبير من الاحترام بينهم ينبئ عن حس عال بالوطنية، وتقدير كبير لما يقوم به المجاهدون في الميدان، وتفاؤل بما هو آت في المستقبل القريب.

على بساطتها كانت دار الاستقبال التي أقام بها اللاجئون سكنا دافئا ينضح بالمحبة والمودة التي زادت المكان اتساعا رغم ضيقه، وسهلت الحياة رغم قسوتها وقلة ذات اليد، وبددت القلق المستمر بشأن مستقبل لايزال غامضا، لتزرع أملا يتوهج في قلوب اللاجئين، وينبعث كما طائر العنقاء من رماد.

في صباح اليوم الموالي قدم رجل شاب شديد النحافة ،طويل القامة ذو شعر قصير، تكسو ذقنه لحية خفيفة، يرتدي سروالا أسودا وسترة رمادية اللون على متن عربة لاند روفر من القاعدة العسكرية العربي بن مهيدي، لزيارة أقاربه اللاجئين. وفي طريقه صادف صفية ودار بينهما حديث مقتضب، وقد لاحظت أنه يتحدث بلهجة منطقة عين الصفراء، لقد كان الشاب سعيد

يعرف جيدا هذه الدار التي كانت تجمع الوافدين الجدد القادمين من تندرارة، بادرها قائلا:

- هل بإمكانك أن تخبريني إذا كانت المرأة من عائلة توهامي أتت معكم؟

- نعم، هي بالغرفة هناك، نحن سبع عائلات، أتينا كلنا في الحافلة نفسها.

- هل أنت من القصر؟

- نعم، أتيت لرؤية زوجي.

- ما اسمه؟

- دحان!

- واسمه الثوري؟

- ابن طالب.

تغير وجه سعيد فجأة، وأخبرها أنه على معرفة جيدة وعلاقة متينة به، بل أن الاثنان كانا لا يفارق أحدهما الآخر أثناء تواجدهما بالجبل مع المجاهدين، وكذا خلال معركة جبل مزي. وأخبرها أنه يدين له بالكثير فقد أنقذ حياته.

- هل يمكنك أن تخبره أننا قد وصلنا بخير وكل الأبناء معي، أنا جد قلقة عليه.

- سأبلغه بذلك، أعدك سيدتي!

كانت الدموع تملأ مآقي صفية وهي تستمع إليه.

عاد سعيد في اليوم التالي ليخبرها أن دحان ذهب في مهمة، فانخرطت في بكاء صامت لا تسمع إلا شهقات نفسها، ثم قالت بأسى بعد صمت قصير:

- جئت من مكان بعيد، وأحرص أنا وأبنائي على رؤيته في كل الأحوال.

- سنحدد اليوم الذي نذهب فيه وسأرافقك لرؤيته. قال سعيد.

لم تكن صفية تنتظر من سعيد سوى أخبارا عن زوجها، ولعل الزائر الوحيد الذي لم تكن تهتم لوجوده أو مجيئه، هو ذاك السائق أو بالأحرى عامل الاتصال التابع للقاعدة العسكرية، وهو أيضا رجل متعدد المهام، غير أنها بمجرد رؤيته تجري صوبه لتسأله في كل مرة عن زوجها، بل كثيرا ما كانت ترقب وصوله أثناء تجوالها أمام باب الدار أملا أن يحمل خبرا ما عن زوجها. لم يغمض لصفية جفن في تلك الليلة وبقيت مستيقظة ومتيقظة لأي حركة أو إشارة قد تأتي من سعيد بشأن دحان، غير أنها استسلمت للنوم في نهاية المطاف، دون أن تتمكن من الحصول على أخبار عنه.

استبد القلق والتوتر الشديدين بصفية في اليوم الموالي، إذ كان من المفترض أن يصلها خبر من سعيد منذ البارحة وتساءلت، لم تأخر هل تم احتجازه؟ أم أرسل إلى مهمة أخرى؟

هل واجهته بعض المتاعب؟ أسئلة عديدة كانت تدور بخلدها، دون أن تجد لها إجابة ما زاد من استيائها، وبدت في منتهى العصبية تعبث بشعرها بطريقة تعكس قلقها.. وسط غرفتها كانت صفية تذرع المكان جيئة وذهابا، والصمت الرهيب يهيمن على المكان لا يكسره سوى تنهيداتها المتقطعة، التي تنبئ عن قلق ويأس كبيرين، بقيت على تلك الحال فترة طويلة ثم استلقت ونامت والقلق لا يفارقها.

بعد ثلاث ساعات استيقظت صفية، وأدركت أن موعد الغداء بالكاد قد حان، انتابها الذعر:

- يا إلهي لقد نمت كثيرا، لا بد وأن يكون الجوع قد استبد بأبنائي! ولا شك أن سعيد على وصول!". في الوقت الذي كانت صفية تفكر في سعيد وما قد يحمله من أخبار عن زوجها، كان هذا الأخير قد التقى بدحلابة على بعد أمتار قليلة من الدار، فأمسكت بالشاب من ذراعه وسحبته جانبا وتحرت أن لا يراهما أو يسمع حديثهما أحد، وقالت له:

- حالة صفية تقلقني جدا، إنها تتحمل ما لا يمكن لبشر أن يتحمله، وتقوم بمجهود يفوق طاقتها لتجاوز آلامها، ولا تكاد تتحكم في أعصابها، فالتوتر والقلق والأجواء السائدة هنا باتت تثقل كاهلها،.. صمتت قليلا ثم أضافت هل تدرك أن لا أحد هنا ليعتني بها وبأبنائها؟!!، لا يمكن أن تخفي عنها خبر دخول زوجها إلى المستشفى... ينبغي أن تعلم فالأمر لا يحتمل تأخيرا أكثر من هذا!

- لكنه في حالة سيئة ولا يمكنه حتى الكلام! وهذا قد يسبب لها صدمة أخرى أكبر!

- وكتمان الأمر عنها سيزيد الطين بلة، من المؤسف أن لا تعرف عن زوجها ..! صدقني يا سعيد، يجب أن تذهب لتراه، ردت دحلابة بإلحاح.

استعجل سعيد بالدخول إلى الدار ليكلم صفية قبل أن ينهي حديثه مع دحلابة ثم أغلق الباب وراءه، وما إن رأته حتى بادرها بإشارة تنم عن الاعتذار عن تأخره في المجيء، كانت صفية آنذاك تقدم الطعام لأبنائها، فقال لها:

صباح الخير، أعتذر تركتك تنتظرين، لقد كنت في مهمة أخرى.

- صباح الخير، بدأت أشعر بالقلق، ما الأخبار..؟

- من المفترض أن آتي بالأمس، غير أن الوقت كان متأخرا.

- حسنا، قالت صفية وهي لا تكاد تتحكم في نفسها، وصبرها يكاد ينفذ، هل وجدت دحان؟ أجبني نعم أم لا؟ إنه هنا، أليس كذلك؟ أخبرني، وإن مات فأخبرني أيضا..

- لا هو بخير، لكن لا يستطيع أن يأتي إلى هنا نحن من سيذهب لزيارته.

وهي تستمع إليه استشعرت صفية من نبرة كلام سعيد أن دحان ليس على ما يرام، وأنه يخفي أمرا ما بشأنه، فامتلأت

عيناها بالدموع. ثم قدمت لضيفها طبقا ساخنا من الحساء برشة من الكمون.

- شكرا، إنه لذيذ! قال سعيد.

- إنه طبق معروف في منطقتنا.

حينما أنهى الجميع الأكل رافق سعيد صفية مع ابنها بلخير المتشبث بها أيما تشبث، إلى المركبة، فانطلق بهما سالكا الشوارع الجانبية المليئة بالمنعرجات، متفاديا بذلك البرك المائية والأماكن الموحلة. لقد كان لدى صفية حدس ينبئها أن هذا السائق الذي كثيرا ما كان يتردد على المكان جدير بالثقة. وبالمقابل كان سعيد مقدر تماما لحالة القلق التي تعيشها صفية، ولما كانت تمر به من ظروف، فما فتئ يواسيها ويكرر على مسمعها أن كل شيء سيكون بخير.

لقد فتح الحديث المقتضب الذي دار بين سعيد وصفية سيلا من الأسئلة التي لا تنتهي في ذهنها وأرادت معرفة المزيد، لاسيما وأن الإجابات التي بحوزتها كانت قليلة ما زاد من شكوكها، وأحس سعيد بقلقها، فقرر أن لا يخفي عنها شيئا، خاصة حينما لاحظ أنها تمتاز بقوة شخصيتها وأخيرا قال لها بهدوء:

- لك الحق الكامل في أن تقلقي، لقد أصيب دحان بجروح خطيرة في معركة مزي، وكان محظوظا بالنسبة للعديد من إخواننا المجاهدين الذين مزقتهم قنابل الطائرات أو أحرقوا بسلاح النابالم.. وأردف قائلا: لقد قام زوجك بمهمة ستخلد

اسمه ويتحدث عنها التاريخ يوما ما، لكنه في هذه الأثناء لا يزال في المستشفى في قسم العناية المركزة.

نزل الخبر كالصاعقة على صفية فتجمدت في مكانها، لقد كان إحساسها إذا في محله، ..

قال سعيد في نفسه: لحسن الحظ، أن بناتها لسن معها من الصعب عليهن تحمل مثل هذا الموقف.

سألت صفية وهي تستجمع قواها وبالكاد يسمع صوتها وقالت: كيف حدث كل هذا؟

- كان ذلك أثناء مهمة خاصة تقتضي عبور المجاهدين إلى الداخل ونقل الأسلحة عبر الحدود، شرح سعيد، وكان النظام الذي أقامه العدو بالمنطقة فائق التطور، للأسف علم العدو بخطتنا فتربص بنا، ولم يكن هنالك بد من المواجهة فوقعت المعركة، كانت معركة جد عنيفة جرح أثناءها دحان ويقبع الآن في الإنعاش متأثرا بجروحه.

اغرورقت عينا صفية بالدموع أمام هذا السيل من الأخبار المفجعة، وكتمت شهقتها وابتلعت ريقها، ثم قالت جزعة وهي على وشك الإغماء:

- يا إلهي كيف يمكن لكل هذه المصائب أن تحدث دفعة واحدة!

- أصدقك القول سيدتي، لقد كان زوجك محظوظا؛ لأن معظم رفقائه استشهدوا وفاضت أرواحهم الطاهرة إلى بارئهم

تحت تأثير انفجار القنابل أو أحرقوا بالنابالم.

- ماذا عن عمر؟ هل جرح هو أيضا؟ قالت صفية.

- لا، لحسن حظه، غير أنه أثناء انسحابه مع بعض رفقائه وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام عساكر العدو فأسروا جميعهم.

- يا إلهي! يا للمصيبة! .. قالت صفية ودموعها لا تنقطع

حينما وصلا إلى المستشفى كانت صفية لا تزال تحت تأثير الصدمة مما سمعته، وبدخولهما الجناح المتواجد به دحان في العناية المركزة، أقبل عليهما المسؤول هناك كان رجلا هادئ الطبع شعره مسرح إلى الخلف، ورأسه أصلع على الجانبين ويرتدي سروالا رمادي اللون وحذاء رياضيا أسود ومئزرا أبيض، وتعرف على الفور على سعيد الذي سلم عليه بدوره، وحيا صفية بإيماءة وابتسامة مطمئنة، وحيته بنظرة تحمل تساؤلات كثيرة تريد إجابة عنها، وأن يكشف لها عما لا يمكنه أن البوح به والإفصاح عنه.

- صباح الخير سيدي، هذه زوجة دحان المجاهد الجريح، قال سعيد.

- لا زالت حالته مستقرة، حسبما أفاد المسؤول.

- هل هذا يعني أنه لا يزال مشلولا؟

- جزئيا.

- وهل سيستعيد وعيه؟

- لم يتضح بعد، فالمريض يفتح عينيه من حين لآخر، ويقوم بجهد ليتكلم، غير أن كل ما يتلفظ به غير واضح أو مفهوم.

- هل بإمكاننا رؤيته؟

- لا بأس بذلك، شرط ألا تطيلا الزيارة.

- يجب تجنب كثرة الكلام معه أو إثارة مشاعره أو تحريكه، لأن كل ذلك سيؤثر سلبا على حالته.

تنحى مسؤول الجناح جانبا بأدب ليفسح لهم المجال للدخول، موصيا إياهم بعدم إرهاق المريض ما أمكن. جلست صفية بجانب زوجها الذي هالها شكله، وصدمت مما آلت إليه حالته، وما أصاب جسده من ذبول وصحته تدهور، فقد بدا منهكا جدا ونحيفا بشكل ملفت، حاول بكل ما تبقى له من قوة أن يتكلم ويحرك ذراعه السليمة التي كانت ترتجف محييا إياها. وبدت سمات الرقة والحب على محياه وهو يرى صفية، فقد كان بالكاد يفتح عينيه، ثم امتلأت عيناه بدموع التي حجبت الرؤية عن بصره، ثم انسابت دمعة حارة على خده، كان يرغب في الحديث معها ولكنه لم يقو على ذلك، على الرغم من الجهد الذي كان يبذله.

كانت صفية تتأمل زوجها بحنو وحسرة في الآن نفسه، أمسكت بإحدى يديه وضمتها بين يديها، لقد غير المرض دحان كلية، فيداه اللتان كانتا ممتلئتين في السابق وقويتين، أصبحتا الآن نحيلتين وواهنتين، وكان دحان يجد صعوبة كبيرة في إبقاء

عينيه مفتوحتين، فنظر إليها بحزن ثم تثاقلت عيناه وأغلقهما متحسرا، حاول الكرة مرة أخرى، ثم سعى بجهد أن يعتدل على سريره، لكنه لم يقو على الحركة، وامتزجت دموعه بالعرق الذي كان يتصبب من جبهته، أما صفية فقد كانت تعتصر ألما لأجله، وتشفق عليه محاولة التحكم في مشاعرها، وعيناها مغرورقتان بالدموع لا تريد البكاء حتى لا تزيده ألما إلى ألمه، لقد فكرت في القوة التي يحاول التحلي بها رغم كل ما واجهه من محن، وما تعرض له من صعاب، وعن حجم المعاناة التي تحملها، ومع ذلك حتى وهو على فراش المرض لا زال يبدي شجاعة وأنفة في مصارعة مرضه ومقاومة وهنه.

حاول دحان الحركة مرة أخرى ببطء مما سبب له ألما فكتم صرخته على مضض، ووضع يده على صدره ثم ثنى ركبته قليلا. لم تشح صفية ببصرها عنه كان بودها أن تلج عقله لتقرأ أفكاره، وأن تسبر أغوار نفسه لتعلم ما يعتلج فيها، لقد كانت في غاية التأثر لحاله، يكاد قلبها ينفطر لأجله، ولم تعد تسيطر على مشاعرها، فدنت منه قليلا لترفع الغطاء تحت ذقنه قائلة:

- كيف تشعر؟ هل نمت طويلا؟

حاول دحان الاعتدال مجددا على سريره ثم تأوه من الألم.

لا تتحرك، همست إليه صفية وهي تمسك برأسه.

- ما الذي يؤلمك؟

استعاد دحان بصعوبة نفسه، والعرق يتصبب على جبينه.

- ساقي.. نطق بصعوبة.

حرصت صفية في هذه اللحظة على أن تريه ابنه بلخير، لعل ذلك يواسيه بعض الشيء ويخفف عنه، وربما أعطاه أملا، ولم يطل سعيد حتى جلبه لأمه، فحاول دحان بصعوبة أن يفتح عينيه التي اخترقها شعاع، ثم للحظة ركز بصره محدقا إلى ابنه، فارتسمت ابتسامة رقيقة على وجهه تماما كشمس تشرق في يوم شتاء بارد. وفي الوقت الذي كان بلخير ينظر إليه، امتلأت عينا الرجل بالدموع لقد كان يرى في هذا الرجل الصغير، امتدادا له في هذا العالم القاسي الذي كان يشعر شعورا خفيا أنه ينسحب منه شيئا فشيئا، ويوشك أن يتلاشى من بين يديه، من يدري ربما سيكمل هذا الرجل الصغير الكفاح الذي بدأه هو حتى تحقيق النصر القريب..

- أسرت صفية في نفسها، كنت أتمنى لو يتكلم، لدي الكثير مما أود أن أرويه له وأخبره به، لقد شعرت برغبته الملحة في الكلام، كان يود أن يكلمني أكثر عن بلخير..

أرادت صفية بشدة أن تكلم زوجها عن البنات أيضا، وعن رحلتها ومغامرتها لعبور الحدود، عن البرد، عن الحر، عن نقص المؤونة، وأيضا عن المرشد الشهم بوستة، الذي لولاه لما تمكنوا من الوصول. كانت تتساءل بينها وبين نفسها فيم يفكر يا ترى؟ لاشك في أنه يشعر بالحزن لأجلها ولأجل أبنائهما؟ ولكن هل ترك الألم مساحة في ذاته لمثل هذا الشعور أو لأدنى شعور آخر؟

بعد فترة قصيرة من الزيارة غادرت صفية بمعية بلخير وسعيد جناح المستشفى، متبوعين بالممرضة التي أخبرتها أن زوجها يعاني من نوبات سعال حادة يجد معها صعوبة في التنفس خاصة في الليل، ولا يكاد الأطباء يفهمون طبيعة مرضه، كانت الممرضة حزينة لأجل صفية واغرورقت عيناها بالدموع، وحاولت مواساتها قدر الإمكان لطمأنتها أن زوجها سيتعافى حتما في النهاية، ويستعيد صحته قريبا. وجمت صفية وثبتت في مكانها ولم تكن تحرك ساكنا لصدمتها بالوضع الذي تركت عليه زوجها، وهنا دنا منها سعيد ثم قال لها بنبرة مطمئنة:

- لا تقلقي سيكون بخير في قادم الأيام. عليك بالتفكير في أبنائك..

تأخر الثلاثة في المستشفى لأن بعض الزوار أتوا لتفقد جرحى لهم من المجاهدين من أمثال دحان، وآخرون كانوا هناك من أجل المواساة والتضامن.. ولما علمت إحدى النساء الزائرات أن صفية زوجة هذا المريض الذي أبدى شجاعة غير عادية على الحدود، رفعته وإياها إلى مصاف الأبطال وأبدت استعدادها الكامل لمساعدتهما.

قالت صفية بامتنان وهي تخاطب سعيد.. لا أعلم ماذا كنت سأفعل دون مساعدتك، فلولا وقوفك إلى جانبي لما كنت لأتمكن من الوصول إلى هذا المستشفى.

- لقد تعرفت إلى دحان في معركة جبل مزي في صفوف

المجاهدين، إنه رجل شجاع، كنا في نفس الفصيلة وغالبا ما كان يحدثني عن شجاعتك.

كانت صفية تبكي بحرارة والدموع ما تنفك تنساب كسيل من عينيها، تنصت إلى ما يقوله سعيد دون أن ترد على كلامه أو تعلق، بل اكتفت بأن هزت رأسها بحزن. أما هو فلم يكن ينتظر منها ردا ولا يتوقع منها جوابا، رفعت بعدها رأسها وقد استولى عليها الحزن، وبدت ومتعبة ومحبطة للغاية، ومستغرقة في أفكارها كمن يبحث عن شيء، لدرجة أنها لم تدر حتى كيف غادرت المستشفى.

اتجه سعيد وصفية وابنها نحو المركبة وانطلقوا، لا شيء كان يلفت نظرها وهم يتجاوزون حدود مستشفى وجدة لشدة انشغالها بحالة زوجها. كانت المركبة تسير باتجاه واحد على طول الطريق، لكن صفية لم تلحظ شيئا، كانت غير مبالية بالعالم الذي كان من حولها، ولم تلق بالا لأي شيء، لقد استولى عليها الحزن وتملكها الأسى، إذ كانت صامتة صمتا أزليا لا تقطعه سوى تنهيداتها التي تدمي القلب لتغرق في غياهبه. هل كانت تدعو الله لزوجها؟ في الحقيقة لم تكن لها من رغبة سوى البكاء دون انقطاع. حينما استدار سعيد للحظة ويده ممسكة بمقود المركبة، كان يريد أن يقول لها أن كل ما حدث إنما هو قضاء وقدر مكتوب لا مفر منه، ولكنه أحجم عن الحديث ولم يتلفظ بشيء أمام صمتها العميق، كان يشعر أنها تستمد من محنتها قوة خفية ولا تزداد معها إلا صلابة، لدرجة أن أحاسيسها تبلدت من

فرط ما حدث، نفسيتها منهارة، وقلبها المنكسر يرزح تحت ثقل الأحزان. ومع ذلك بدأ سعيد يتكلم ولكنها لم تكن تفهم أبدا شيئا مما قاله، أو بالأحرى لم تكن تسمع سوى كلمات مبهمة لا تكاد تتبين معناها؛ ثم لم يلبث صوته أن تلاشى، كانت منفصلة تماما عن الزمان والمكان، ولم تعد إلى واقعها سوى باهتزاز المركبة المتكرر أثناء سيرها، ومن جهته كان سعيد ينظر إليها في صمت ينتظر لحظة قبل أن يكلمها ثانية، ربما كان يريد فقط أن يتأكد من أنها لاتزال حية، وبصوت أجش مفعم بالعاطفة قال لها:

- ستمر هذه المحنة، وسيعود كل شيء إلى سابق عهده.

أرادت صفية أن تغمض عينيها، لكنها لم تتمكن من ذلك، صورة دحان لا تبرح مخيلتها، أحس سعيد أنها ليست على ما يرام، فجأة أوقف مركبته قائلا:

- هل أنت بخير؟ أجيبيني!

- لا أستطيع الحركة، أشعر بالغثيان انا بحاجة إلى التقيؤ..

لم تكن صفية في البداية تقوى على الحركة، غير أنها بعد لحظات تمكنت من النهوض، وأحست أن الدم بدأ يتدفق مجددا في عروقها، واستعادت حيويتها بعض الشيء وتمكنت أخيرا من النزول ببطء من المركبة لتلتقط نفسا عميقا وبالكاد استعادت وعيها. كانت الشوارع آنذاك خالية من المارة، اختار سعيد طريقا مختصرا لإيصال صفية وابنها أمام دار استقبال اللاجئين.

بعد دخولها الى بيتها بادرت صفية السؤال عن حال بناتها، وما إذا كن تناولن طعامهن، وأن كل شيء على ما يرام، وحين اطمأنت جمعت أبناءها في غرفتها وتحلقوا حولها، وكأنها تتهيأ لإخبارهم بشيء ما، أو ستقدم على اعترافها الأخير أمامهم، وعلى الفور بادرتها ابنتها الكبرى هاجر بسيل من الأسئلة:

- هل رأيت أبي؟ كيف حاله؟ متى نذهب لزيارته؟ هل سيأتي ليأخذنا؟ سيأتي، أليس كذلك؟

- نعم، عن قريب، سترونه.. لكنه ما زال منشغلا بمهمة في الوقت الحالي.

بعد أن تلفظت بهذه الجمل المقتضبة أحست صفية أنها أزاحت حملا ثقيلا عن ظهرها، فعلى الرغم من أنها لم تصرح بالحقيقة، إلا أن حوارها المقتضب مع ابنتها جعل ذهنها صافيا إلى حد ما، وأحست ببعض الراحة التي كانت تفتقدها. كما أنها بدت راضية ومتقبلة لواقعها المؤلم، فكما يقال "الآلام العظيمة غالبا ما تكون صامتة"، قد لا يكون هذا القول صائبا في كل الحالات، غير أنه في حالة صفية صائب بل هو في منتهى الصواب.

حدثت صفية نفسها باحثة عن القوة الكامنة في ذاتها: لن أعدم حيلة لأجل أبنائي، ولن أتوقف عن التساؤل عما يجب فعله لأجلهم، سأفكر طوال الوقت بهم، لا يمكنني أن أجعلهم يعيشون لحظات الألم التي عشتها، ولا يمكن أن يروا والدهم

على تلك الحالة المزرية بعد مساره المشرف، وصورته النابضة بالنبل والشجاعة. لم تعد صفية قادرة على إيجاد كلماتها.

كانت صفية تحمل حزنها في قلبها ولا تشي به لأحد ممن حولها على الرغم من معاناتها الكبيرة، لم تكن لتحدث جاراتها في بشأن زوجها، واستمرت على هدوئها المعتاد وابتسامتها الباهتة تشاركهن الطعام والشراب، وتتقاسم معهن الحديث أثناء تناول القهوة، لكنها كانت مقلة في ذلك ولاحظت جاراتها في إحدى الجلسات حزنها الدفين، وهمها الذي يطبق على صدرها، ولا أدل على ذلك من الشيب الذي اجتاح سواد شعرها وهي تزيح إحدى خصلاته المنسدلة على عينيها، كن يتأملنها لكنها كانت في عالم آخر غارقة في أفكارها.

بدأت التجاعيد ترتسم على جبهة صفية لتبوح بكل آلامها، وتفصح عن عظيم شقائها، لقد كان الجميع يعتقد اعتقادا راسخا أنها امرأة قوية ومن الشجاعة بمكان، لذا لم يكن أحد ليشك في ألمها الرهيب وحزنها العميق، لقد ظنوا جميعا أنها لازالت قوية وشجاعة بما يكفي، لتقهر الألم تماما كما في السابق حينما كانوا يرددون بإعجاب: يا لها من امرأة شجاعة!"، غير أنها الآن لم تعد كما كانت في ظل كل هذه المعاناة التي لا تنتهي، وتتساءل كيف أن كل من حولها انخدعوا في التصديق أنها امرأة لا تقهر.

في مساء ذلك اليوم من زيارة صفية لدحان، فاجأتها ابنتها البكر بطرح عليها عديد الأسئلة حول أبيها الذي لم تتحدث عنه كثيرا.

- أنا أعلم أنك رأيته بالأمس، كيف كان حاله؟ أخبريني بالحقيقة!

كان سؤالا صادما ولكنه متوقع ذاك الذي طرحته البنت على أمها، فهو سؤال كان يدور في ذهن الفتاة لمدة، وأنها كانت تريد معرفة الحقيقة التي كان يراد إخفاؤها عنها.

- سبق لي وأن أخبرتكم بذلك هو في مهمة، لماذا تعيدين علي سؤالك الآن؟ ردت صفية.

- لا يهم، كنت أفكر فيه..

ثم بنبرة غريبة وكأنها تقاوم مشاعر غامرة، أضافت قائلة:

- إنه أبي، أفتقده كثيرا!

بقيت صفية صامتة لا ترد على ابنتها تاركة إياها تواصل كلامها، علها تتخفف من ثقل اشتياقها لأبيها وخوفها عليه:

- أنت تعلمين جيدا ما الذي يحدث حتما للمجاهدين، أليس كذلك؟

بالطبع كانت صفية تعلم لكن ردها جاء متسما بالسذاجة:

-يحدث للمجاهدين؟ لماذا؟

لقد باتت صفية الآن أمام أزمة حقيقية، تواجه كما هائلا من الأسئلة العالقة دون إجابة! ولم تكن تستطيع حتى أن تقول عمن كانت تتحدث، ولا عن الرابط الذي كان من المفترض أن يربطها بأبيها.

لم تجد صفية من سبيل للتصدي لسيل الاسئلة المتتالية الواحد تلو الآخر، سوى احتواء ابنتها بدفء وحنان وهي تمسح على شعرها:

- نامي الآن يا ابنتي قالت لها صفية بكل بساطة، لكنها كانت تدرك أنها عبثا تحاول إلهاء ابنتها، وجلست على طرف السرير إلى جانب ابنتها لم تكن تشعر بالبرد على الرغم من الجو البارد داخل الغرفة، ومضى الوقت وهي لا تدري كم مضى منه، لقد فقدت إحساسها بالوقت ولم يعد يهمها إن كان الوقت ليلا أو نهارا، فهما بالنسبة لها سيان ولن يغيرا من واقعها المزري شيئا!

مرت ثلاثة أيام وعاد سعيد مجددا إلى الدار ليطمئن صفية عن حال زوجها، وكالمعتاد كانت البنت الكبرى هي من تولت فتح الباب، حياها سعيد وبادرها مطمئنا، بعد إلقاء السلام:

- لقد رأيت أباك للتو، لا يزال في مهمة، هل يمكنك أن تخبري والدتك أني هنا، أريد التحدث معها؟

- بالطبع، لحظة..

ثم عادت بعد دقائق قليلة.

تفضل أدخل! دعته البنت، أمي تنتظرك.

مسح الرجل حذاءه بعناية قبل أن يلتحق بصفية، لقد مضى أكثر من يومين منذ آخر مرة عاد فيها.

- أنا سعيدة برؤيتك مجددا، كيف حاله؟

- أخي دحان بخير وحالته تتحسن بالرغم من جرحه الخطير.

ثم واصل يبوح بتأثر لها:

- الشعور بالوحدة شعور قاس وبقاء الفرد دون عائلة أمر مؤسف للغاي، لذا أشعر أنني واحد منكم لا سيما وأنه لم يعد لدي عائلة تماما كالكثيرين هنا، فحينما أراك وبناتك تقاومن من أجل الحفاظ على معنويات عالية والتشبث بالأمل، أشعر بالسعادة الغامرة وبالفخر وكأنني فرد من هذه العائلة. ابتسمت صفية وكأنها تؤكد على كلامه.

عاد سعيد في اليوم الموالي إلى الدار مجددا ورأته صفية يتحدث مع دحلابة وفهمت أن الذي كانت تتخوف منه قد حدث لا محالة. ثم جاءت إليها دحلابة وأعلمتها بالخبر المؤلم بصوت يقطعه نشيج بالكاد يمكن كبح جماحه، فطفقت صفية تبكي بكاء مريرا، وفهمت بناتها اللواتي كن هناك أن أباهن قد رحل إلى غير رجعة فانفجرن بالبكاء.

في بداية فترة ما بعد الظهر كانت السماء مغشاة بالغيوم الرمادية بشكل شبه كامل، وزخات من الأمطار الخفيفة والباردة تنزل، وجيء بالنعش على متن شاحنة صغيرة إلى دار اللاجئين قبل أن ينقل مباشرة إلى مقبرة وجدة.

كانت صفية تشعر بوحدة قاتلة على الرغم من أنها كانت محاطة بجميع نساء وطنها، أحست أنها فرع مقطوع من شجرة وملقى دون وجود عائلتها لتشاركها أحزانها وتهون عليها مصابها،

فعلى الرغم من الدعم والمواساة التي لقيتهما هي وأسرتها الصغيرة، إلا أن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة إليه، لقد كانت بأمس الحاجة إلى أهلها. خارج الدار اجتمع الجيران ومجاهدون بزي مدني وعمال من الشركة الوطنية للسكك الحديدية ينحدرون من عين الصفراء، ومصور وفضوليون لتشييع جثمان الشهيد دحان.

وأمام الباب تجمعت النسوة يراقبن موكب الجنازة وتشييع دحان إلى مثواه الأخير بمقبرة وجدة وفي مقدمتهن صفية وبناتها، وجاراتها اللائي كن يتابعن بحزن عميق الموكب الذي تتقدمه الشاحنة الصغيرة وهي تحمل النعش، لتنطلق في سيرها نحو وجهتها وفجأة ذهبت صفية صوب سعيد وأمسكته من كمه وقالت له وهي تلهث:

- أنت الآن في مقام العائلة كلها في البلاد.

تأثر سعيد بكلامها كثيرا وسار بسرعة ملتحقا بالحشد واستدار لتأثره بكلمات صفية، وكانت النساء لا زلن هناك واقفات عند عتبة الباب يراقبن الموكب الجنائزي.

لم تكن المقبرة بعيدة عن الحي سوى بنحو خمسمائة متر، كان الموكب الجنائزي قد سلك طريقا ترابيا، ومن بعيد ظهرت شواهد القبور على جانب الربوة من حيث الدرب المؤدي إلى داخل المقبرة، عبر ممر متعرج يمتد حتى المدخل وعند نهايته توقفت الشاحنة الصغيرة، قبل أن يحمل النعش ليوضع بعيدا بقليل عن الممر.

كان رجلا شجاعا ومقداما لا يعرف الخوف طريقا إلى قلبه، قال أحد مجاهدي القاعدة ممن حضروا بصوت خافت وعميق. وكان من بين المشيعين مراد الذي أبى إلا أن يحضر الجنازة فقد كان دحان أحد نوابه وساعده الأيمن. عدد مناقبه لمن حوله من الحضور قائلا كان دحان رجلا وطنيا مخلصا ومتفانيا، ولم يكن أبدا يرفض المهام الموكلة إليه أيا كان نوعها ومهما كانت شاقة. واتضح من خلال حديثه أنه كان يقدر دحان ويحبه لخصاله وتفانيه غير المشروط وشجاعته الثابتة التي لا تلين.

وضع النعش بالقرب من حفرة هيئت لدفنه، وشرع الإمام يلقي خطبته التأبينية والجميع واقف يستمع إليه بخشوع. وفي هذه الأثناء عاد المطر إلى النزول ثانية. كانت الدموع تنساب على وجنتي سعيد غير الحليقتين ليمسحها بظاهر كمه. وحينما أنهى الإمام خطبته التأبينية وصلاة الجنازة شرع سعيد رفقة أربعة أشخاص في إنزال النعش إلى الحفرة، ثم أهالوا التراب على الشهيد شيئا فشيئا، كان المشهد مؤثرا جدا واغرورقت عيون البعض بالدموع، وأما البعض الآخر فقد كانت قلوبهم مشدودة من فرط الحزن والألم. ثم بدأ الإمام الذي كان يتجنب المطر، يتلو بعض الآيات القرآنية ليقوم بعضهم برش القبر، وحينما انتهت عملية الدفن تم رش الماء على القبر. هيمن الحزن وسادت المكان أجواء حزينة مليئة بالمشاعر، وبدأ الرجال المجتمعون يذكرون بطولات ومناقب الشهيد. ثم ما فتئ أن تفرق الحشد وسمع صوت محركات المركبات إيذانا بالمغادرة.

الفصل الحادي عشر

ما الذي لا يزال القدر يخفيه ؟

مرت صفية بفترة عصيبة جدا في حياتها، إذ لم يكن فقدان زوجها حدثا عابرا، فقد انهار سقف بيتها وها هي الآن مجبرة على أن تتحمل كامل مسؤوليتها، والقيام بشؤون عائلتها في غيابه، فكر سعيد في أنه من الواجب أن يقدم لها يد المساعدة للخروج من ربقة الصمت والحزن المهيمن عليها، وبذل ما في وسعه ليكون سندا لها.

كان سعيد كثير التردد على بيت صفية قصد المساعدة، وكانت ابنتها البكر في عديد المناسبات هي من تتولى فتح الباب له، فوقع أسير حبها، لإعجابه بخصالها وافتتانه بسحر جمالها، على الرغم من أنه لم يكن قد رآها أو تمعن في ملامحها، بل لمحها بشكل عابر لا أكثر، كانت الشابة نحيفة وجميلة التقاسيم ترتدي فستانا طويلا يخفي تفاصيل جسدها الضعيف.

ذات يوم وفي إحدى زيارات سعيد لصفية قصد تسليمه إياها شهادة وفاة زوجها، اغتنمت الفرصة ودعته لتناول الشاي كلفتة تقدير لجهوده معها.

- أردت أن أشكرك أنت لطيف معنا للغاية، قالت له صفية وهي تضع الشاي، هل ستبقى طويلا بوجدة؟

- لست أدري لحد الساعة، فكل شيء متوقف على أوامر القيادة قال سعيد.. كان زوجك رحمه الله رجلا شجاعا وكثيرا ما

كان يكلمني عنك وعن حسن خصالك وكرم أخلاقك وشجاعتك.

كان القاسم المشترك بين صفية وسعيد أن كليهما يبذل ما في وسعه لخوض معركة الحياة في المنفى بانتظار العودة النهائية إلى الوطن، وبالمقابل كانت معركة صفية في الحياة أكبر، إذ لا بد لها أن تسهر على تربية أبنائها وتلقنهم مبادئ الدين وقيم المجتمع.

كان سعيد يفتعل الحجج لزيارة صفية مذ وقع في حب ابنتها، فقد كان إعجابه بها يزداد يوما بعد يوم، وبقدر ما كان منجذبا إليها، بقدر ما كان يخشى أن يفقدها، فقد كانت تمتلك من الخصال ما يجعله منه رجلا اسما على مسمى، فهي بالإضافة إلى جمالها لطيفة وذكية وكيسة فطنة، على الرغم من أنها لا تزال بعد في سن الخامسة عشر. واغتنم سعيد فرصة وجوده بوجدة في أحد الأيام ومر بالدار، فدعته صفية للدخول، وهنا لم يجد بدا من مفاتحتها في الموضوع، وبادرها دون مقدمات حتى لا يتغلب عليه حياؤه وطلب منها يد ابنتها، فقبلت صفية طلبه ولم تسعها الفرحة، ولا ابنتها التي أسرت لاحقا لوالدتها أنها كانت تكن له المودة هي الأخرى، لأنه يذكرها بوالدها ويجسد ذات مبادئه وقيمه. ولم يمر وقت طويل على الخطبة حتى أقيم حفل الزفاف في أجواء بسيطة ومتواضعة، لكنها كانت أجواء مفعمة بالمحبة والألفة.

منذ عبورها الحدود عاشت صفية منفى طويل الأمد تنتقل من ملجأ إلى آخر، تحاول التأقلم مع الظروف كيفما كانت، وكثيرا ما كانت تجول بخاطرها أسئلة عميقة عن التضحيات المبذولة

والغاية المنشودة من الثورة، وعن معنى الثورة بحد ذاته، لقد كانت تدرك بسليقتها أنها لم تكن سوى امرأة مقاومة، وإن لم تسعى لتكون كذلك، فقد وجدت نفسها في خضم المقاومة حينما فرت من أجل حماية أبنائها وصونا لكرامتها، ولحقت بزوجها مؤمنة بما يقوم به، وبالمستقبل الذي سيحفظ لها ولأسرتها البقاء والعودة إلى الأصل والوطن الأم. كان اشتياق صفية لأهلها وحنينها لمسقط رأسها بالقصر وقريتها وأقاربها.

كثيرا ما يدخلها في دوامة من الحزن والاكتئاب، إذ كيف لها أن تبقى بعيدة طوال هذه المدة عن أهلها، تقاسي في عزلتها وتعاني في وحدتها ألم الفقد والغياب، إلى متى سيستمر هذا العذاب؟ وكيف لها أن تبقى عالقة مع الكثير من اللاجئين في ظل كل هذه الظروف التي يميزها البؤس والفقر؟

كانت صفية تبكي باستمرار زوجها ورفيق دربها، وحامي ظهرها الذي رحل بلا رجوع، وتبكي البيت الذي جمعهما بكثير من الحب والمودة الذي بات الآن مهجورا.

بينما أبناؤها يغطون في نوم عميق على الفراش بمحاذاة قدميها، جلست صفية على الأرض وسط الظلمة الحالكة مسندة ظهرها إلى الجدار، وبدأت تفكر في وضعها الحالي وظروف معيشتها، وأطلقت العنان لهواجسها ولسلسلة الأسئلة التي تمر تباعا في ذهنها، ترى كيف ستسير حياتها الآن في غياب زوجها؟ هل ستعود إلى عين الصفراء؟ وإذا كانت ستفعل هل لها من الإمكانيات والطاقة ما يمكنها من تكرار المغامرة؟ كانت

تتساءل بينها وبين نفسها، إذا كانت قد خاضت غمار رحلتها السابقة التي قادتها وأبناءها إلى هنا بعبورهم كل تلك المسافة، هل ستتمكن من إعادة الكرة وتقطع ذات الطريق باتجاه معاكس؟ لقد قدرت أن ذلك سيكون حتما أمرا شاقا عليها وعلى أبنائها، وربما يفوق طاقتها لم تعد كما كانت، حتى وإن تمكنت -فكرت صفية- فقد كانت تعلم جيدا إن هي عادت إلى بيتها في الساعات القليلة القادمة فإنها ستقتاد مباشرة إلى السجن، أو إلى مركز دزيرة المرعب وهناك سينتهي أمرها. لقد كانت كل تلك الهواجس والأفكار السلبية تزيد من ضغطها، وارتفاع حرارتها الذي عكسه احمرار وجهها، لقد كانت تعاني من إرهاق شديد أوهن عضلاتها وأنهك قواها وحطم أعصابها.

لقد أدركت صفية أن معاناتها قد بلغت مداها، وأوشكت أن تصل إلى منتهاها، وهي التي كانت على يقين أنها ستخرج حتما سالمة من هذه المأساة، وبأقل الأضرار، لأنها ببساطة تمتلك خبرات السنين في الصمود وقهر الألم، وتلك سمات متوارثة عن الأجداد منذ قرون؛ أولئك الذين واجهوا أعتى الغزاة وتأقلموا مع أقسى الظروف وتكيفوا مع أوعر التضاريس، وتحملوا تقلبات الجو وقساوة المناخ، لقد كانوا يروضون البيئة لصالحهم بتكيفهم معها على الدوام، فلطالما قاومت قبيلتها عبر العصور ضد كل أشكال الغزو والعدوان، فلماذا لا تفعل هي ذلك؟ فهي من نسلهم وورثت عنهم صلابتهم وصمودهم؟

بعد أن عبث القلق بها، قامت صفية متثاقلة واستندت إلى

الجدار لتستلقي على سريرها مستسلمة للنوم رغم هواجسها التي لا تنتهي. وفي ساعة مبكرة من اليوم الموالي حضّرت الإفطار لأبنائها فالتحقت البنات بالمدرسة، بينما رافقت الصغير بلخير إلى المدرسة القرآنية لتعلم تلاوة القرآن. لقد بدت صفية مستسلمة لواقعها مبدية شجاعة في مواجهة ظروفها، وأضحت تعتاد شيئا فشيئا على حياتها الجديدة بوصفها أرملة.. ولكي تنسى ما آلت إليها حياتها كانت تجهد نفسها في العمل بشكل مضاعف، حتى لا تترك فسحة لذهنها، وتلهيه عن التساؤلات المستمرة والهواجس التي كثيرا ما كانت تقض مضجعها.

بخطوات حثيثة أوصلت صفية صغيرها بلخير إلى غاية المدرسة القرآنية التي كانت تقع بمسجد الحي الذي لا يبعد كثيرا عن دار اللاجئين، لقد كانت تلك المدرسة تستقبل الأطفال الصغار لتحفيظهم القرآن الكريم، وتعليمهم طريقة تلاوته؛ حيث كانوا يجلسون على حصير في شكل نصف دائري في قاعة الدرس، منتبهين ببراءة إلى معلم القرآن أو الطالب كما يطلق عليه، ويمسكون بين أيديهم ألواحا مصنوعة من الخشب، كانت المدرسة تستقبل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة والثانية عشرة سنة. حينما رأى الطالب صفية عند المدخل قام من مكانه ليستقبلها، وبدا لها أنه يعرج في مشيته. كان رجلا متوسط القامة، نحيف الجسم، حاد العينين، يرتدي جلابة بيضاء ويعتمر عمامة بذات اللون، بادرته صفية بالتحية وقالت له:

- لقد أحضرت لك الصغير ليتعلم.

- الصغير؟ ما اسمه؟

- وحينما كانت تتأهب لإخباره منعها الطالب قائلا:

- أتركيه يخبرني باسمه بنفسه، فالطفل عليه أن يعرف اسمه!

- بلخير، رد الصبي.

- بلخير جميل! في المرة القادمة يجب عليك أن تأتي وحدك، أليس كذلك؟ كم عمرك؟

- ست سنوات.

اتخذ بلخير مكانا له بين الأطفال بتوجيه من الطالب وغادرت صفية المدرسة.

كانت صفية محظوظة ببناتها اللائي كن إلى جانب تمدرسهن لا يدخرن جهدا في مساعدتها في أشغال البيت، ومختلف الأعمال المنزلية. لقد نجحت صفية في أن تشغل نفسها بالعمل المكثف الذي لطالما كان علاجا لما كانت تعانيه من إفراط في القلق، وآلام وهواجس لا تنتهي، فقد ظلت تعمل بجدية وصرامة طيلة حياتها دون أن يكون لها حق الاختيار لما تقوم به، لقد كان الأهم بالنسبة إليها أن تضمن قوت عيالها وأن يحيوا بكرامة بين اللاجئين. كانت صفية قد بدأت نشاطها في البداية بمساعدة دحلابة، لتنتقل بعدها إلى التكسب من نسيج الحصائر والزرابي التقليدية، وبالمقابل كان لها نصيبها كباقي

اللاجئين من المساعدات التي تضمن جانبا كبيرا من المواد الغذائية.

ذات يوم وهي عائدة من عملها إلى الدار أخبرها بعض اللاجئين من أبناء جلدتها بما أعلنت عنه الإذاعة بشأن وقف إطلاق النار في الجزائر، فعمت الفرحة الدار وساكنيها.

- هل أنت متأكدة مما سمعته عبر الإذاعة؟ قالت لها إحدى النساء، تم الإعلان عن وقف قريب للمعارك!

- إذا الحرب ستنتهي حقيقة! الحرب ستنتهي.

نعم، لقد جاء الإعلان على لسان أحد مسؤولي جبهة التحرير الوطني.

- حقا؟! إذا يمكننا التنقل بكل حرية والعودة دونما خوف إلى بلدنا؟..

- أنا سعيدة جدا بهذا الخبر.. وأخيرا سينتهي هذا الكابوس الفظيع!

حركة غير عادية في الأيام الأخيرة عاشتها دار اللاجئين بعد الإعلان، ما يفسر مسارعة الكثير من المواطنين الجزائريين لتحضير أنفسهم للعودة إلى بلادهم. غير أنهم لم يكونوا الوحيدين في ذلك، فالكثير من الأشخاص المتواجدين داخل التراب الوطني عاشوا ذات الانفعال الشديد، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا كل ذلك الانفعال ألم يتحقق المبتغى؟!

- للأسف هنالك فئة لم تعش ظلم الحرب وقسوتها لكنهم جاؤوا اليوم ليقدموا أنفسهم دون حياء بصفة مجاهدين حقيقيين؟؟!!!!

-أحمد الله كثيرا أن دحان لم يعش ليرى هذه السلوكيات غير المشرفة والمشاهد المؤسفة! رحمه الله لقد كان إنسانا نزيها في أخلاقه، شريفا في كفاحه الذي يخلو من أي حسابات، لقد آمن بضرورة النضال من أجل تحرير بلده دون أن ينتظر مقابلا، لأنه ببساطة كان يعتبر ذلك واجبا. قالت صفية.

بمجرد أن بدأ الفرنسيون يفكرون في مغادرة الجزائر التي استغلوا ثرواتها ونهبوا خيراتها لما يزيد عن عقد من الزمن، بدأت بالمقابل فئة من الأفراد عديمي الضمائر تسعى للاستفادة من الوضع بالاستيلاء على الممتلكات والمنازل التي تركها المحتل، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى التخطيط بإحكام للتسلل إلى دواليب الحكم حديث العهد في الجزائر المستقلة، فقد عرف هؤلاء بانتهازيتهم المقيتة، وتسلقهم دون أدنى مراعاة لدماء الشهداء وتضحياتهم الجسام، لقد تجاوزوا بوقاحتهم كل الحدود والأعراف ليأخذوا مواقع ليست من حقهم، وينسفوا تضحيات المناضلين الذين كافحوا من أجل جزائر مستقلة ليذهب كل جهدهم أدراج الرياح.

منذ أن تم الإعلان عن وقف إطلاق النار، اجتاحت موجة بشرية من الجزائريين كل الشوارع والطرقات والساحات العامة للمدن، وتم تسخير كل المركبات والسيارات القليلة لنقل

الحشود المبتهجة المزودة بالعلم الجزائري ذي الألوان الثلاثة الذي اكتشفه الكثير من المتظاهرين لأول مرة، فما أجمل هذا العلم بألوانه الأخضر والأبيض والأحمر! وبسرعة تجندت كل خياطات البلد لصناعة الآلاف منه وتوزيعها مجانا على الشعب، وانطلقت من كل الجهات زغاريد الفرح الصاخبة واختلطت النساء بالرجال إخوانا يتقاسمون هذه السعادة الفريدة بالحرية المستردة أخيرا! هؤلاء يرقصون، وأولئك يُغنون، والبعض يضحك، والبعض الآخر يبكي.. لا ترى إلا مشاعر جياشة! كذلك كان للأطفال حضورهم في المشهد! فكل المدن والقرى خرجت تتظاهر احتفالا بهذا النصر، حشود كثيرة تجوب الشوارع لمسافات طويلة تردد بأعلى أصواتها الشعارات والأناشيد المجيدة، والأعلام على سواعدهم ترفرف خفاقة:

"إِخْوَانِي لَا تَنْسَاوْ الشُّهَدَا". هل سيبقى هذا النداء يسمع دائما لترسيخ الواجب الوطني مع استعادة الحقوق؟

ابتهجت مدينة وجدة بدورها هي الأخرى، وخرج المغاربة بمعية الجزائريين جنبا إلى جنب احتفالا بوقف إطلاق النار، وانتهاء الحرب بين مجاهدي جبهة التحرير الوطني والجيش الفرنسي. ودخل قرار وقف إطلاق النار حيز التنفيذ عند ظهيرة يوم **19** مارس **1962**، وكان من المقرر إجراء استفتاءين، الأول في الفاتح من أفريل بالنسبة لرعايا المتروبول، والثاني في أول جويلية بالنسبة للشعب الجزائري عموما.

وكغيرها من اللاجئين الجزائريين، عاشت صفية فرحة لا

تضاهى بتوقف الحرب، رغم أنها كانت مثخنة بالجراح التي خلفتها تلك الحرب، ومثقلة بالحزن الذي لا يفارقها، فمع الغزو الاستعماري، كان الأمل قائما في بزوغ فجر الاستقلال المجيد، كانت صفية تردد وهي تدور تعبيرا عن فرحها لازمة أنشودة كثيرا ما كان زوجها الفقيد دحان يرددها أنشودة "فداء الجزائر"، وبعينين مليئتين بالدموع تأملت بدفء وحنان ابنها بلخير المسترسل في نومه، أخيرا سيكون ابنها حرا طليقا يحلق في سماء الحرية، وفي رحابة بلده الجميل الذي أضحى الآن حرا مستقلا!

كانت فرحة صفية منقوصة غير مكتملة، كيف لا وهي ستعود إلى الديار بعين الصفراء دون زوجها دحان، وأكثر من ذلك فقد كانت قلقة بشأن ما يخفيه القدر لها، لقد اختلطت المشاعر عليها بين الشوق إلى وطنها والحنين إلى أهلها، وكل تلك الأحاسيس الجارفة التي تعصف بها لتجعل منها فريسة، وهي التي لطالما انتظرت هذه اللحظة، فبدأ سيل من الذكريات الدافئة ينساب ،لتتراءى أمام عينيها صور ومشاهد متتالية من حياتها، وعلى قدر دفئ تلك الأحاسيس إلا أنها قلبت على صفية المواجع وبات قلبها يعتصره الحزن والألم والحسرة على أيام جميلة مضت إلى غير رجعة، ومع كل هذا وذاك كان للفرح الغامر مكان في قلبها الذي كان يخفق بشدة، يكاد يشق صدرها من شدة الاهتزاز والخفقان، ليبعث قشعريرة في جسدها الذي كان يرتجف من اضطرام كل تلك المشاعر المختلفة والمتباينة، وفي خضم كل ذلك كانت الأسئلة لا تتوقف في ذهنها حتى لكأنها قرع

الطبول المتواصل مسببة لها صداعا عنيفا:

- إذا أخيرا نحن أحرار؟؟ أحرار حقا!! هل نحن أحرار حقيقة؟؟! هل أشرف حقا هذا الكابوس المروع على نهايته بعدما بدأ في صباح أحد الأيام..؟ هل يمكننا أخيرا العودة إلى بلدنا دون أن نخشى شيئا؟ هل سيطل علينا من جديد جبل مكثر الذي تحتمي عين الصفراء بأحضانه وظله الممتد الواسع؟ ونرى أهالينا ونلتقي بهم مجددا؟ ونستعيد حياتنا وعلاقات الصداقة والأخوة التي تجمعنا بأهلنا من سكان القصر؟ أولئك المساكين المكلومون حتما لديهم الكثير مما سيروونه. كم من ليلة تلزمني يا ترى لملء فراغ كل تلك السنين من الغياب؟ هل بإمكان بلخير أخيرا أن يعيش بكل حرية ودون عوائق في بلده الواسع الذي أصبح مستقلا؟ ذاك الذي كان يبدو سوى حلم وهمي هل أصبح حقيقة؟ وأنا؟ نعم، أنا، صفية، كيف ستكون حياتي في هذا البلد الجديد الذي كان في السابق بلدي، والذي أصبح الآن بلدي الذي تخلص من الكولون؟

كانت كل تلك الهواجس تملأ على صفية كيانها لتتقلب بين مشاعر الحزن والفرح، وهي لا تكاد تصدق ما يحدث أمامها وعلى الرغم من قلقها وحيرتها بخصوص عودتها إلى عين الصفراء دون دحان، إلا أنها كانت تتهيأ للعودة والرجوع إلى الأصل، وهي في ذلك كغيرها من اللاجئين لا تستطيع التنبؤ بما ينتظرها وما يخططه القدر لها ولهم، إلى ذلك الحين كان الرجوع إلى الأصل أهم ما كانت تعيشه ومن معها.

من جهته لم يكن لدى سعيد هو الآخر من خيار يتخذه سوى أن يسمح بسفر زوجته، طالما أن قيادة جبهة التحرير الوطني أذنت بعودة اللاجئين إلى أرض الوطن، في الوقت الذي لم يكن ذلك متاحا وممكنا بالنسبة للمجندين من الجزائريين بالتراب المغربي، فعلى الرغم من أن صهر صفية سعيد كان يدرك الخطر المحتمل على زوجته هاجر بسبب حالتها الصحية، إلا أنه لا يمكنه مرافقتها في سفرها ضمن الموكب الكبير الذي يضم اللاجئين، لقد كان ملزما بالبقاء مع رفقائه بقاعدة العربي بن مهيدي، أما عودتهم جميعا إلى أرض الوطن المحرر، فلن تكون إلا في موكب عسكري مهيب برجاله وعتاده.

لقد كان على صفية أن تتحمل المسؤولية كاملة في هذا السفر الشاق، إذ زيادة على التكفل بأبنائها، عليها أن تتكفل بابنتها الحامل في الشهر الأخير من حملها، وكانت قلقة بشأنها هذا وعلى هذا الطفل الذي قد يأتي إلى هذه الدنيا في أسوأ الظروف وحلكها.

كانت صفية توزع الأوامر وتحذر أبنائها.

- نعمة، ابقي مع بلخير، أما أنت يا هجيرة فعليك بمراقبة أمتعتنا إلى غاية عين الصفراء، ولكن كم لدينا منها، هيا قومي بعدها.

- إنها ست رزم من القماش الخشن، لا تنسي ست! إيمان، هجيرة، ابقيا بالقرب مني؛ وأنت هناك، خذي خوك ولا تتركيه

تحت أي ظرف من الظروف، هل فهمت؟

كانت حالة صفية تدعو إلى الشفقة حقا، إذ كيف ستتمكن من تدبير أمر أربعة أطفال قلقين وابنة حامل لوحدها، في سفر سيدوم على الأقل يومين كاملين، وسيكون بلا شك شديد المشقة. لقد أحست صفية من خلال نظرات بناتها وقلقهن الواضح، أن حياتهن الطبيعية كانت بوجدة، مع صديقاتهن، والحي الذي تربين فيه، والمدرسة التي كن يرتدنها ،والأهل والسكان الذين يعرفونهن حق المعرفة، والأكلات الجماعية والأعياد الدينية التي كان الجميع يلتف حولها، لقد كانت وجدة حقا وطنا لهن، إذ لم يكن يتذكرن من عين الصفراء والعائلة الكبيرة إلا بعض الذكريات المشوشة، على الرغم من أن صفية لم تدخر جهدا في محاولة ربطهن بالبلاد وأهلهن هنالك، إذ كثيرا ما كانت تكلمهن عنهم وتصفهم الفرد تلو الآخر، وتحدثهن عن الحياة في القصر، وعن العادات والتقاليد، والمنازل والنمط المعماري، وعن جمال الطبيعة فيها، لاسيما جبل مكثر الرائع في كل الفصول.

في أجواء حارة ومشحونة وصل الكثير من اللاجئين الجزائريين وهم على أهبة الاستعداد للعودة إلى بلادهم، وسط نشاط كثيف وحماس متزايد وحرارة خانقة، شقت صفية الجموع وكل أفراد عائلتها يمسكون ببعضهم بعضا خشية الضياع في خضم الزحام، ولا تسمع في تلك الأثناء سوى الصياح والضجيج، وأجواء محمومة ومشحونة عاطفيا للعودة إلى البلد. ووسط كل

ذلك بدأ بلخير بالبكاء متضايقا مما حوله مضيفا هما آخر إلى صفية وإلى اخواته اللائي بالكاد يستوعبن الرحيل. وفجأة وصل إلى مسامعهن صوت نسائي جميل:

- صفية، صفية! من هنا! تعالي معنا!

لم تكن تلك سوى مريم مرفقة بابنيها، يا لها من سعادة! ابتهجت صفية بهذه الرفقة الطيبة التي ستحظى بها معظم سفرها، ومن ثمة لن تكونا وحيدتين في سفرهما على الأقل إلى غاية تلمسان. شقت المرأتان طريقهما رفقة أبنائهما بحزم وسط الحشد الكثيف دون عناء، كأنما تآزرهما مدهما بقوة كبيرة، فعلا "في الاتحاد قوة"، قالت صفية في نفسها. وبمجرد أن اتخذن لهن مكانا داخل المقصورة، واستقر أطفالهن على مقاعدهم وهو الأمر الأهم، ارتمت كل منهما في أحضان الأخرى، وبدا أن معاناتهما ستنتهي عما قريب ومحنتهن ستنفرج بالعودة إلى الديار، كانت كل منهما تنشد السعادة التي لربما هي على مرمى حجر فقط من الجانب الآخر من الحدود، بدت المرأتان متقلبتان في مشاعرهما وأحاسيسهما متناقضة؛ فتارة تضحكان فرحة منهما بالعودة إلى بلدهما، وأخرى تبكيان وهما تتذكران التضحيات الجسام، والشهداء الذين سقطوا في ميدان الشرف، وتتألمان وهما تتذكران ضحايا النابالم المشوهون وضحايا الحرب، وكل أولئك الذين عبدوا لهما ولكل اللاجئين طريق العودة بأمان كجسر فوق نهر جارف، لم تنس صفية ومريم الأمهات الثكالى اللائي فقدن فلذات أكبادهن، ولن يروهم

مجددا، وكيف أنهن يعشن الفرحة بطعم الحزن وهن وحيدات وسط شعب خرج يعبر عن فرحته وسعادته. يا لها من مشاعر جياشة ستعيشانها عند لقاء الأهل والأحبة في الجزائر، هذا البلد الجميل الذي مزقته الحرب!

كانت عين الصفراء تعيش على وقع الفرحة، فالشوارع ممتلئة عن آخرها والأزقة والحدائق العامة، والممرات تغص بالمحتفلين من الأشخاص حشود هائلة، لا تجد موضع قدم فارغ في المدينة، إذ أن السواد الأعظم من الناس خرجوا يحملون الأعلام ويهتفون ،أما المتبقون فهم يحتفلون من شرفات المنازل ومن على أغصان الأشجار يعتلون كل مكان يمكن اعتلاؤه، وجندت المركبات على اختلافها والأحصنة لحمل الأشخاص الذين تغمرهم فرحة الاستقلال، والرايات مرفوعة والأعلام خفاقة في كل مكان، لقد شاعت السعادة وازدانت عين الصفراء ببهجة لا نظير لها، ونداءات، هتافات، وصيحات تنم عن الفرح، وعناق ودموع، إغماءات كثيرة يا لها من سعادة تفوق كل تصور.

لم يكن التعب ولا الجوع والعطش لينال من كل اولئك المحتفلين، أو يحول دون هذا الإحساس الغامر بالفرحة، ولا يمكن لشيء أن يقف في وجه هذا الحماس المتدفق للحشود الهائلة من النساء والرجال والأطفال المختلطين، وهم يهتفون ملء حناجرهم بحياة الوطن، وبمختلف الشعارات. حقا، سعادة لا توصف، وفرحة لا تضاهى وتحد يعكس إرادة الشعب، في وأد الظلم والانتصار على الموت!

أخيرا وصلت صفية إلى بيتها بعين الصفراء، ذاك البيت الذي ضم بين جدرانه كل الحياة لتجده بعد عناء العبور ومشاقه، فعادت إلى أحضانه في انبعاث نحو ولادة جديدة، وسرعان ما التم شمل العائلة الكبيرة في أجواء من المحبة والدفء الذي يمنح شعورا بالانتماء والتضامن، بحيث يزرع المودة بين أفرادها ويجعل قلب كل واحد منهم على الآخر، كل ذلك في سياق من التكافل الأسري الذي ينبئ عن استكشاف الذات والتسلح بالحب المتبادل وروح التفاني في خدمة الآخر، بروح الأخوة الدائمة والحضور الإنساني الجميل.

زادت بهجة عائلة صفية بعودة الغائب الحاضر، كانت المفاجأة بأن ولج البيت رجل لم يكن حضوره متوقعا البتة، إنه عمر لقد أضحى أكثر طولا أسمر البشرة وذو بنية قوية تم إطلاق سراحه كغيره من السجناء في **19** من شهر مارس، وهو يتخطى عتبة بيتهم ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، لقد ظن الجميع أنه في عداد الأموات بعد أسره، لذا لم يكن أحد يتوقع أن يراه مجددا، لقد نجا بأعجوبة. سيروي عمر المجاهد حتما لأسرته الكثير مما قاساه وعاشه في خضم الحرب وسيحكي عن نضاله حينما ينال قسطا من الراحة بعد عناء السفر. كان عمر قد أسر بجنين بورزق أثناء معركة جبل مزي المشهورة، ومما لا شك أنه يحمل في جعبته الكثير من القصص الحربية، والأسرار التي سيكشف عنها، أما بطولاته فسيتكتم عنها حتما فذاك ما ينبئ به تواضعه البادي للعيان.

كان وضع الجزائر المستقلة غير مستقر بعد لاسيما في الفترة المبكرة من استرجاع السيادة الوطنية، لقد أفسد التخريب الممنهج المنشآت القاعدية، وأهلكت سياسة الأرض المحروقة التي انتهجها الجيش الفرنسي ومنظمة الجيش السري (OAS) كل شيء، لذا لم يكن من السهل النهوض واستعادة الاستقرار الذي غادر هذه البلاد منذ **1830**، لقد أمعن الجيش الفرنسي في إفساد كل شيء وهو نفسه من قضى بالنفي والتهجير على الكثير من الجزائريين من مختلف مناطق، لقد أدرك عمر وهو يقف على كل تلك الحقائق عظمة القضية الوطنية، وعدالتها حينما التقي برفقائه في السجن من مناضلي الحركة الوطنية.

عقب زواجه من ابنة عمه يمينة في أجواء من البساطة، شرع عمر في البحث عن عمل. ولإعالة عائلته لكن دون جدوى فاكتفى باستصلاح بستان أبيه في انتظار ما هو أفضل. لقد تسببت الأمية التي فرضها المحتل على الجزائريين والمنتشرة على نطاق واسع في جعل هؤلاء غير مؤهلين لأي عمل كان، ما أدى إلى ظهور البلد المستقل مفرغا من قوته الحيوية، وبروز ملمح التدهور في أدنى ضروريات الحياة.

أدرج اسم عمر على قائمة المهاجرين المستقبليين إلى مدينة مرسيليا الفرنسية في إطار عقد عمل. ويعتبر بذلك محظوظا بالنسبة لغيره، لذا تنقل مرتديا جلابته مع صديقه عبد القادر إلى مقر ولاية سعيدة، بعدما أعلم أنه قد تم إدراج اسمه، وعند خروجه من مكتب تفتيش العمل سأله عبد القادر قائلا:

- إذا، هل هناك عمل؟

- نعم، ولكن ليس في البلد، أجابه عمر متأسفا.

- أين؟

- في فرنسا، في إطار الهجرة، رد عليه عمر بنزفرة حادة.

- مبروك! إنه أفضل من لا شيء، وهذه فرصة لك لتعمل هناك.

- أنا بحاجة إلى التفكير في الأمر.

- لو كنت مكانك لما تأخرت في الذهاب، هذه فرصة ثمينة.

- أفضل أن أجد عملا هنا في بلدي، يجب أن أفكر على الرغم من هذه الحالة التي أمر بها.

- لن يكلفك الأمر كثيرا إن حاولت، لن تخسر شيئا! إنها فرصتك، إذا لم ينجح الأمر بإمكانك العودة، هناك يمكنك جمع ما يكفي من المال لإعالة أسرتك.

- ربما أنت محق فيما تقول، غير أنني أتمنى من كل قلبي أن أجد عملا هنا في بلدي.. أود أن أسعد برؤية أبنائنا يرتادون المدرسة التي حرمنا منها نحن. اعتقد أن آمالنا ترتبط بجهودنا في التكفل بأنفسنا ضمن الكرامة التي استعدناها.

وقبل أن ينهي كلامه أضاف يقول:

لقد تعلمت الكثير من أخواني المثقفين في السجن، وأتيحت

لي الفرصة للتعرف على أمور لم أكن على دراية بها.

بعد عدة أيام، عند الفجر، قرر عمر الرحيل بحثا عن العمل ارتدى جلابته وتأكد من وثائقه وجواز سفره ودقق فيها مجددا، وحمل حقيبته قبل أن يستقل القطار باتجاه وهران. كان مرغما على ذلك فبالنسبة له كان الرحيل إلى فرنسا ولو لأجل العمل هو بداية المنفى الفعلي. بوصول القطار المتأخر بساعة فترة بعد الظهر. أسند عمر ظهره إلى مقعده متأملا عبر النافذة مرور المناظر الطبيعية المتنوعة بين السهوب والوهاد والوديان المتماثلة مستمتعا في الوقت نفسه بمناظر أخرى في غاية الجمال، من الأشجار والمروج الخضراء الواسعة. على خلافه كان كل المسافرين نائمون فقد أنهكتهم الحرارة المرتفعة والصخب والضجيج المتواصل لعربات القطار على طول الرحلة. وبمجرد أن وطئت قدماه مدينة وهران استغل الفرصة لزيارتها، كان عمر يكتشفها للمرة الأولى، وراح يتجول بها يشاهد المحلات الراقية والسيارات العديدة، والهندام الأنيق لسكان المدينة. لم يتأخر بعدها حتى توجه إلى الجبهة البحرية؛ حيث يوجد الميناء الذي سيقلع منه نحو مدينة مرسيليا في اليوم الموالي.

كان البحر ساحرا بجماله وزرقة لونه واتساع مداه؛ حيث تلتحم السماء به في خط ممتد لا نهاية له. كان المنظر البانورامي للميناء مبهرا، ولما رأى سفينة محملة بالمسافرين لم يستطع كبح فضوله وبدى يتأملها وهي تغادر.

استمتع عمر بجولة اكتشف من خلالها الكثير مما لم يره من

قبل، ليعود إلى مقر إقامته التي لم تكن بعيدة عن ميناء وهران. جافاه النوم في تلك الليلة، ولم يغمض له جفن تقريبا وتملكته الحيرة، واستولى عليه القلق، وبات يقلب الأفكار في رأسه بشأن مغامرته الجديدة، ورحلته المجهولة وكانت صورة والده الذي عاش ذات تجربة الهجرة بداية الخمسينيات بنفس الإحساس وذات الآلام ماثلة أمامه، ولم يكن ليتخطى تجربته وما عاناه في غربته، وكل ذلك كان يزيد من قلقه وأرقه.

في صباح اليوم الموالي حيث موعد الرحلة استيقظ باكرا، واتجه متثاقلا إلى محطة الميناء لركوب السفينة والانطلاق في رحلة كسب القوت. وحينما ولج قاعة الانتظار كان من أوائل المسافرين الذين يقبعون هنالك، منتظرين الشروع في إجراءات السفر، ومن ثم انطلاق الرحلة. جلس عمر وحيدا على مقعد غير أنه لم يكن مرتاح البال، بدا وجهه شاحبا مصفرا، كان يضع حقيبته بين قدميه، ثم راح يقلب بتوتر في أغراضه القليلة قبل أن يعيد التدقيق في وثائقه متأكدا مجددا من وجودها هناك كاملة غير منقوصة، ولم يكن ما يفعله سوى تعبير عن قلقه وتوتره، وللحظة جال ببصره في البناية ذات الطابقين؛ حيث كان الطابق الأرضي مخصصا للمسافرين، بينما خصص الطابق العلوي للنزول. ثم طفق متتبعا عبر الواجهة إحدى السفن المبحرة ببطء وهي تمخر عباب البحر حتى اختفت وتلاشت في الأفق البعيد.

تمكن القلق من عمر وبلغ مداه حتى أنه لم يعد قادرا على

التحكم في نفسه، ولا كبح جماح ثورته التي تضطرم بذاته، كان يتساءل ما الذي يفعله؟ ما الذي هو مقدم عليه؟! هل فكر بجدية في الأمر؟..

وهنا بدأ سيل ذكريات الماضي والكفاح تقتحم عليه ذاته غارقا في التفكير:

- هل سأرحل تاركا ورائي كل ما كنت أصبو إليه؟ لقد أدرك للحظة ما أنه متصل بالمكان والزمان ولا يمكنه البعد عن حي القصر حيث تربى، وحيث يوجد أفراد عائلته وإخوانه في السلاح، وتذكر السجن، والبؤس وكل ما مضى مما حفر في ذاكرته.

وبشكل مفاجئ انقلب كل شيء رأسا على عقب، لقد خلخلت الذكريات والصور التي اجتاحت بصره، واحتلت كيانه ليصبح كسفينة تتقلبها الأمواج العاتية بريح عاصفة. وبعد لحظات قليلة حسم الرجل أمره وعاد إلى هدوئه واتزانه، وحسم أمره وحمل متاعه وعاد من حيث أتى إلى أهله وأحبائه.

النهاية

على درب الرمال الملتهبة

صفية أم لخمسة أطفال تجد نفسها مجبرة على مغادرة بيتها بحي لقصر في مدينة عين الصفراء نحو المجهول هروبا من جحيم الاستعمار وظلمه، لتخوض بذلك تجربة استثنائية تواجه فيها بشجاعة قساوة الحياة ومشاقها، مجسدة معاناة كل اللاجئين ومحنتهم بعيدا عن الأهل والوطن بلجوئهم القسري إلى المغرب، لكن قيم الشجاعة والتضحية والمحبة كانت ديدنهم في التغلب على كل الصعاب.

تجد صفيّة نفسها وهي أم لخمسة أطفال مجبرة على مغادرة بيتها بحي لقصر في مدينة العين الصّفراء في رحلة نحو المجهول، هروبا من جحيم الاستعمار وظلمه وتعسّفه، لتخوض بذلك تجربة استثنائيّة تواجه فيها بشجاعة قساوة الحياة ومشاقّها، مجسّدة بذلك معاناة كلّ اللاجئين ومحنتهم بعيدا عن الأهل والوطن بلجوئهم القسري إلى المغرب، غير أن قيم الشّجاعة والتّضحية والمحبّة كانت سبيلهم إلى التغلّب على كلّ الصّعاب التي واجهوها.

استمدت فصول هذه الرّواية من أحداث حقيقيّة، أراد الكاتب من خلالها تسليط الضّوء على تضحية أبناء المنطقة أثناء الثّورة التّحريريّة، ليميط اللّثام بشكل خاص عن أحداث معركة جبل مزي، وضحايا التّجارب الكيماويّة بواد الناموس.

إبراهيم صدوق من مواليد خمسة وعشرون فبراير سنة 1956 بولاية النعامة بمدينة العين الصفراء تحديدا ، حيث نشا و تلقى تعليمه الأول قبل أن ينتقل إلى مدينة سعيدة لإتمام دراسته الثانوية .

وبطموح مبكر نحو خدمة الصالح العام التحق بالمدرسة الوطنية للإدارة و تخرج ضمن دفعة سنة 1980. تقلد عديد المناصب والوظائف الإدارية العليا بمختلف الولايات والمؤسسات الوطنية

من منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في المقاومة الشعبية والحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر سنة 1954

ISBN: 978-9947-60-642-1

9 789947 606421